يقدم :

مذكرات الشيخ يوسف القرضاوى

الجزء الثالث

مقدمة الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه. (أما بعد)

فهذا هو الجزء الثالث من مذكرات (ابن القرية والكتاب) وملامح سيرته ومسيرته.

التي أسأل الله تبارك وتعالى: أن يجعل فيها دروسا وعبرا، لمن قرأها، موصيا قارئي أن يقتبس مما يراه فيها من خير، وأن يتجنب ما يلحظه من عثرات، ويلتمس لصاحبها المعذرة، ويدعو له بالمغفرة.

وأود أن أنبه هنا: أن ما كان من جهد وعطاء يجده القارئ في هذه السيرة، فالفضل في ذلك يرجع إلى واهبه سبحانه، ولا أقول إلا ما قال سليمان عليه السلام حين أحضر إليه عرش بلقيس من اليمن ـ وهو في فلسطين ـ قبل أن يرتد إليه طرفه: (قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم) النمل: .

وما كان في هذه السيرة من قصور أو تقصير، أو خطل في الرأي والتفسير، أو شرود في السلوك والعمل، فمرده إلى نفسي، ولا أقول إلا ما قالت امرأة العزيز: (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) يوسف: .

ولا يسعني إلا ما وسع أبانا آدم وأمنا حواء حينما قالا: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإلا تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الأعراف: .

وتشمل هذه المذكرات من سنة 1965م، إلى سنة 1978م. وقد وقعت فيها أحداث مهمة على المستوى الشخصي، وأحداث جسام على مستوى الأمة. فعلى المستوى الشخصي: رزقت أبنائي الذكور الثلاثة: محمدا وعبد الرحمن وأسامة،

ودخلت بناتي ـ كما دخل أبنائي بعد ـ المدرسة، وظهر تفوق الجميع من الصغر، بحمد الله.

وحصلت على الدكتوراه من الأزهر بعد أن كنت أيست منها. وانتقلت من المعهد الديني إلى جامعة قطر، وبدأت أخرج من قمقمي في قطر، لأنطلق إلى آفاق العالم في قارات الدنيا، مدعوا من الجامعات والجمعيات والمؤسسات، ومشاركا في الندوات المؤتمرات.

وعلى مستوى الأمة: حدثت نكبة حزيران (يونيو) 1967، واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة والقنيطرة، وحدث انقلاب النميري في السودان، وقامت ثورة القذافي 1969، وحدثت مأساة أيلول الأسود، ومات جمال عبد الناصر، وتولى السادات الحكم 1970، وقضى على مراكز القوى 1971، ووقعت حرب العاشر من رمضان 1393هـ - (6أكتوبر 1973م) التي انتصر فيها جيش مصر على إسرائيل، وعبر القناة، واجتاز خط برليف، وزار السادات إسرائيل في سنة 1977، ووقع اتفاقية كامب ديفيد 1978م.

وبدأت الصحوة الإسلامية في الانطلاق والظهور، وخصوصا بين الشباب والفتيات، وبدأت البنوك الإسلامية، وبدأ الكتاب الإسلامي يكتسح السوق.

أحداث كبرى وقعت في تلك المرحلة، سيجدها القارئ في مواضعها عند حديثنا عنها إن شاء الله.

سائلا الله تعالى أن يجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه. آمين.

الدوحة في: شعبان 1424 يوسف القرضاوي

أكتوبر 2003م

السنة الدراسية 1965م،1966م

العودة من لبنان إلى قطر:

بعد قضاء شهر في مصايف لبنان الجميلة، كان حافلا بالحركة والنشاط، واللقاءات العلمية والدينية في مدينة بيروت: كان لا بد من العودة إلى قطر، مع بداية العام الدراسي، الذي يبدأ عادة في منتصف أيلول أو سبتمبر.

فكان لا بد أن يصيبنا رذاذ من محنة إخواننا في مصر، فإن لم يصبنا وابل فطلّ. فقد حجز عشرة من إخواننا وزملائنا الذين يعملون في قطر، للاعتقال مع من اعتقلوا من المصريين.

وكان الاعتقال هذه المرة أوسع دائرة من أي محنة سبقت، فكل من اعتقل من قبل في عهد الثورة أو في عهد الملكية: يجب أن يعتقل، ولو كان اعتقاله خطأ، وكل من تحوم حوله شبهة من قريب أو بعيد، ولو بكيد كائد، أو بلاغ كاذب، يجب أن يعتقل، ويتحقق من أمره فيما بعد، وقد لا تأتي (ما بعد) هذه.

وكان من المفترض أن أكون أنا والعسال في أوائل المعتقلين، وقد سئل إخواننا العشرة المعتقلون من قطر جميعا عنا نحن الاثنين، ولكن الله نجانا بفضله، ولم ننزل إلى مصر هذه الأجازة، وقد ذكرت السبب المباشر الذي دفعني إلى عدم السفر إلى مصر، في الجزء السابق.

كان من المعتقلين العشرة: سكرتير المعهد الأخ أحمد المنيب حسين عبد الغفار، وكان لا بد من ملء مكانه بسرعة، حتى تسير أمور المعهد الإدارية بانتظام، فاخترت أخا كريما من إخواننا الفلسطينيين، كنت قد تعرفت عليه في مناسبات شتى، فنقل إلى المعهد، وظل يعمل في سكرتيريته، حتى انتقلت من المعهد إلى الجامعة، وهو بالمعهد.وقد كان من المعتقلين العشرة الأخ الشيخ عبد اللطيف زايد مدرس العلوم الشرعية بالمعهد، وهو داعية ومرب فاضل. وكان عضدي الأيمن في العمل التربوي مع الطلاب، وكان منهم كذلك: الأخ الأستاذ رشدي عبد الغني المصري، مدرس اللغة العربية المتميز في مادته وطريقته وتحضيره وأدائه. ومن حسن حظ المعهد: أن أفرج عنه بسرعة وعاد إلى عمله.

كما أفرج عن عن الأستاذ رشدي ومجموعة معه، منهم: الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقة، ومنهم الأستاذ عبد الحميد طه. وقد كان الإفراج عنهم أمرا خارقا للعادة، فقد أفرج عنهم ولا زال الناس يعتقلون، ويساقون إلى السجن الحربي من هنا وهناك.

أما الشيخ عبد اللطيف، ومعه الأستاذ أحمد المنيب، وكذلك الأستاذ محمد المهدي البدري فقد بقوا، ولم يفرج عنهم إلا بعد عدة سنوات، بعد نكبة حزيران (يونيو) 1967 بمدة طويلة.

طلب السلطات المصرية عودتي

وقد طلبت السلطات المصرية من حكومة قطر عودتي إلى مصر، ولا سيما أن سنوات إعارتي الأربع إلى قطر قد انتهت، ومن حق الدولة المعيرة أن تسترد معارها بعد انتهاء مدته. ولكن قطر ـ جزاها الله خيرا ـ رفضت طلب السلطات المصرية، وأخبرتهم: أنها تعاقدت معي على العمل في وزارة المعارف في قطر بعقد خاص.

ولما قيل للشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف رحمه الله: إنهم لن يجددوا لي جواز سفري، قال لمن حدثه: سنعطيه جوازا قطريا.

وانتهت هذه المحاولات بالإخفاق، نتيجة لموقف قطر الشجاع، وتمسكها بي، واستعدادها لأن تمنحني جوازا قطريا، إذا فقدت الجواز المصري، وهذا ما حدث، فقد كنت أسافر بوثيقة قطرية تجدد كل سنة، ثم في سنة 1969م أعطيت جوازا قطريا كاملا. وسنتحدث عن ذلك في حينه.

محنة كبرى للإخوان:

كانت هذه المحنة التي ابتلي بها الإخوان في مصر، من المحن الكبرى في تاريخهم الدعوي والحركي،وقد كانت محنة ثقيلة وقاسية ومرّة على الإخوان، وذلك يرجع إلى عدة أمور:

أولا: من ناحية الكم شملت أعدادا هائلة، أكبر من أي مرة مضت، حتى إن أجهزة أمن عبد الناصر ومخابراته ذكرت على سبيل المباهاة: أنها اعتقلت ثلاثين ألفا من الإخوان في عدة ليال. فهي تعتبر هذا من (الإنجازات) العظيمة (!) التي ينبغي أن تكافأ عليها المكافآت السخية!

ثانيا: من ناحية الكيف، فقد جرى فيها من أساليب التعذيب ووسائله الوحشية والحديثة، ما لم يجر في المحنتين السابقتين في عهد الثورة، ولا في المحنة التي مضت في عهد الملك فاروق وحكومة النقراشي وإبراهيم عبد الهادي.

فقد تعلّم المصريون أساليب استفادوها من الروس والشيوعيين، الذين هم أئمة القمع والقهر والتعذيب في العالم. فقد مورست أساليب لم تعرف من قبل، ومنها: أساليب غير أخلاقية.

ومن ذلك: اعتقال النساء وتعذيبهن، كما حدث مع السيدة المؤمنة الصابرة زينب الغزالي، التي حكت عن تعذيبها في كتابها (أيام من حياتي): ما يشيب له شعر الوليد، وما يندى له جبين كل إنسان مصري وعربي.

ثالثا: أن هذه المحنة كانت مفاجئة لجمهور الإخوان، فقد داهمتهم على غقلة، دون توقع منهم، ولا عمل قدموه يمكن أن يؤاخذوا عليه. فقد كان أكثرهم منصرفا إلى عمله المعيشي اليومي، يتقنه ويتكسب من ورائه: الموظف في وظيفته، والتاجر في تجارته، والزارع في زراعته، والمحترف في حرفته، والطالب في جامعته، وبحسبه أن يؤدي فرائض الله، ويجتنب محارم الله، ويتحرى الحلال، ويربي أولاده على طاعة الله، ويدع السياسة لأهلها، والدعوة لربها، على نحو ما قال عبد المطلب لأبرهة: أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت له رب يحميه!

كان هذا هو اتجاه جمهور الإخوان بعد محنة 1954م -1965م، وهو: الكمون والسكون، حتى تتغير الأحوال، وتواتي الفرصة. والتغير حقيقة كونية، ودوام الحال من المحال، ومداولة الأيام سنة قررها القرآن: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) آل عمران: .

ولكن الإخوان فوجئوا ـ برغم اعتزالهم لأي نشاط سياسي أو حركي ـ بهذه الهجمة العامة التي لم تدع أحدا له صلة بالإخوان إلا امتدت يدها إليه، حتى بعض من ضعف إيمانهم، وتراخت عزائمهم، ولم يكتفوا باعتزال النشاط الدعوي، بل أوسعوا الإخوان

ذمّا وتجريحا، عسى أن يشفع ذلك لهم، فلم يغن عنهم ذلك شيئا، وشمت بهم من شمت ممن نالهم أذاهم وتطاولهم من إخوانهم.

ولهذا ينظر الإخوان إلى هذه (المحنة) الهائلة المريرة على أنها من جانب آخر: كانت (منحة) ساقها الله تعالى للإخوان، الذين أرادوا أن ينشغلوا بهمومهم المعيشية عن همومهم الدعوية، وأن يقول كل منهم: نفسي نفسي، فشاء الله تعالى أن يريهم أن اعتزالهم لواجب الدعوة لن ينفعهم، وأنها قد أصبحت مكتوبة على جبينهم، مقروءة في وجوههم، موصولة بحياتهم، لا تنفصل عنهم، ولا ينفصلون عنها. فليحملوها بإرادتهم واختيارهم، بدل أن يحملّوها رغم أنوفهم، ففي الحالة الأولى يؤجرون على كل ما يصيبهم في سبيلها، وتجد أنفسهم السكينة والروح كلما مسهم قرح، أو نزل بهم بلاء، فهو في سبيل الله. أما في الحالة الأخرى، فلا أجر فيها ولا مثوبة في الآخرة، ولا سكينة ولا راحة في الدنيا.

سبب هذه المحنة:

ولقد فكرت وتأملت في سبب هذه المحنة الهائلة التي فتحت فيها النار على جماعة الإخوان من كل جانب، وسلطت عليهم آلات التعذيب الجهنمية، تحطمهم ماديا، وتحطمهم نفسيا، آلات تأكل من لحومهم، وتشرب من دمائهم، وتهشم من عظامهم.

لقد قلت: إن جمهور الإخوان لم يمارسوا أي نشاط، وهذه حقيقة لا ريب فيها، وقد كان بعضهم لم يزل في سجون عبد الناصر يقضون

المدد المحكوم عليهم فيها بالأشغال الشاقة بعيدا في (الواحات) بعد أن وقع ما وفع في (ليمان طرة) من مذبحة تحدثنا عنها في الجزء الثاني.

ولكن أجهزة عبد الناصر، أعلنت أنها اكتشفت (تنظيما سريا) خطيرا جدا، يقوده (سيد قطب) ومعه مجموعة من الإخوان، منهم: الشيخ عبد الفتاح إسماعيل، ومحمد يوسف هواش، وعدد قليل آخر، منهم شخص اشتروه بالإغراء، والتأثير بالوعد والوعيد، والعفو عنه من حبل المشنقة ـ وهو علي عبده عشماوي ـ فخارت قوته، وانهزمت إرادته، فسقط في أيديهم فريسة سهلة، وأمسوا يلقنونه ما يجب أن يقول، فيذعن لهم، ويصبح رجع الصدى لما يقولونه. وهذا الطريق من وقع فيه، فقد وقع في حفرة لا ينجو منها إلا إلى حفرة أشد منها عمقا، ومن مضى فيه خطوة لم يستطع الرجوع عنها، ومن سقط السقطة الأولى ظل يسقط ويسقط، إلى ما لا نهاية، فقد غدا لا يملك من أمره شيئا، غدا مسيّرا لا مخيرا، زمامه بيد غيره. لأن الذي يبيع نفسه للطاغوت، قد خسرها بالمرة، وهذا لون من الشرك بالله، الذي ينحط به الإنسان إلى أسفل الدركات (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) الحج: .

هذا التنظيم المحدود العدد، المحدود الإمكانية ـ الذي يقوم في الأساس على التوعية والتثقيف والإعداد الفكري والنفسي ـ قد هولت أجهزة عبد الناصر من أمره، وجعلت من الحبة قبة، ومن القط جملا، كما يقول المثل. وأعتقد أن هذه الأجهزة هولت الأمر لعبد الناصر نفسه، وعرضت عليه الأمر عرضا يضخم الواقع

أضعاف ما هو عليه، فكأنما يراه بمجهر مكبر (ميكرسكوب). وذلك لتستخرج منه القرار المشؤوم بإشعال تنور الأذى والعذاب.

وكثيرا ما تصنع الأجهزة الأمنية ذلك للقادة السياسيين، فتضللهم، وتدفعهم دفعا، ليشعلوا معارك حامية لا لزوم لها، ولا فائدة منها.

والمشكل في الأجهزة الأمنية: أنها لا ترتاح إلى مناخ الهدوء والاستقرار، فهي لا تبرز ولا تعمل ولا تتحرك بقوة إلا في جو التوتر والسخونة، فإذا برد الجو اجتهدت أن توقد تحته حتى يسخن وتشتد حرارته.

وهي دائما تشعر الحاكم والقائد السياسي بالخطر الواقع أو المتوقع، حتى يشعر أبدا بحاجته إليهم، وأنهم الذين يحمونه من تغير الجو الهادئ، إلى جو الريح العاصف، والرعد القاصف، والبرق الخاطف، وأنهم الذين يعدون له في هذا الجو سفينة الإنقاذ، وطوق النجاة.

حاولوا أن يضْفوا المبالغات على هذا التنظيم المحدود، فقالوا: إنه كان يخطط (لنسف القناطر الخيرية)! وهل يفكر في ذلك عاقل؟ وماذا يستفيد من ذلك إلا الهلاك والخراب؟ وإذا كان يريد أن يحكم البلاد، فكيف يخربها قبل أن يستولي عليها؟

وقالوا: إنهم يريدون (اغتيال أم كلثوم) وهل يفكر في ذلك من له ذرة من عقل؟ وماذا ارتكبت أم كلثوم من جرائم تستحق عليها القتل؟ وهل يقتل عاقل إنسانة يحبها جماهير الشعب المصري ـ بل العربي كله ـ ويعرض نفسه لسخط عام دون حاجة لذلك؟!!

المهم أن الحكومة كانت تملك من أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، ما تستطيع به أن تغير الرأي العام إلى صفها. ولا سيما أن الخصم لا يملك أي وسيلة إعلامية يستطيع بها أن يدافع عن نفسه، ولو بأدنى دفاع.

ومن المعروف: أن الصحف كلها في مصر قد (أمّمت) وأصبحت ملك الدولة، فهي الناطقة باسمها، والمدافعة عنها، والمهاجمة لخصومها، ولا يمكن أن يعين رئيس تحرير، أو سكرتير تحرير، أو يظل في منصبه، إذا شُك في ولائه للثورة ورجالها، ولو مثقال ذرة.

ولا يوجد أي صحف معارضة، إذ لا يسمح بوجود أي حزب أو قوى سياسية، غير الحزب الواحد

الذي يحكم البلاد، وهو (الاتحاد الاشتراكي). فلتقل الحكومة ما تشاء، فلن يعارضها أحد، ولن يسائلها أحد، والمثل المصري يقول: هل يستطيع أحد أن يقول للغولة: عينك حمراء؟

وقد بدأت هذه الجولة بالقبض على الأستاذ محمد قطب يوم 30 يوليو سنة 1965 ثم القبض على الأستاذ سيد قطب في 9 أغسطس

التالي، وانطلقت بعد ذلك جحافل عبد الناصر تلقي القبض على آلاف الإخوان، وافتخر عبد الناصر فيما بعد بأنه قبض على ثلاثين ألفا في نصف ساعة!

وكان القبض على الإخوان المسلمين بتهمة أنهم يدبرون مؤامرة للعدوان على عبد الناصر وقتله، ويذكر الأستاذ موسى صبري ـ وهو كمسيحي لا يمكن أن يكون ضالعا مع الإخوان ـ أن كل الثقات يؤكدون أن قضية الإخوان التي أعدم فيها سيد قطب: كانت من اختراع شمس بدران، وزبانية البوليس الحربي، وأنها مؤامرة وهمية، وأن التعذيب في هذه القضية هو قمة المأساة.

ويقرر الأستاذ محمد حسنين هيكل: أن المعتقلين في هذه القضية وصلوا إلى عدة آلاف، وأن زوار الفجر كانوا يجمعونهم بغير رحمة، وقد تعرض الكثيرون منهم للتعذيب، وكان عبد الناصر يعرف ذلك، وقد أشرت إلى ما كتبت في الأهرام آنذاك إلى زوار الفجر، وانتقدت أعمالهم، فاستاء عبد الناصر مما كتبته في هذا الشأن، واتصل بي ليذكر أنني كنت قاسيا فيما كتبت، وأن شمس الدين بدران الذي كان يشرف على تحقيقات الإخوان المسلمين وقتها غضب وقدَّم استقالته.

عبد الناصر كان يعلم بصور التعذيب قبل وقوعها وبعد وقوعها، وكان يحاط علما بأن البعض مات خلال التعذيب

ويتحدث الرئيس أنور السادات عما أصاب الإخوان المسلمين في هذا العام فيقول: هُيئ للسلطة

عبد الناصر كان يعلم بصور التعذيب قبل وقوعها وبعد وقوعها، وكان يحاط علما بأن البعض مات خلال التعذيب

الحاكمة في ذلك الوقت أن الإخوان يتآمرون ليقوموا بثورة مضادة، وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف، وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام، وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفيتُ العملية كلها، فأغلقتُ مباشرة بعد القضاء على مراكز القوى في سنة 1971. أما المحكوم عليهم ـ سواء من الإخوان أو أية قضية سياسية أخرى ـ فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر سنة 1973م.

ويورد سامي جوهر في كتابه (الصامتون يتكلمون): تفاصيل أوسع عن هذه الحركة الوهمية وعن التعذيب الذي ارتبط بها فيقول: في سبتمبر سنة 1965 كانت أجهزة المباحث الجنائية العسكرية التابعة للمشير عامر وعلى رأسها أحد أعوان شمس الدين بدران ـ وهو العقيد حسين خليل ـ ادعت أنها كشفت مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون برئاسة سيد قطب، لقلب نظام الحكم بعد القيام بعمليات تخريب وتدمير في مختلف أنحاء البلاد، وتم القبض على الآلاف وزُج بهم في السجون، وبدأت عمليات تعذيب بشع لهم ليعترفوا بكل ما يملى عليهم.

وتأكيدا لما نقلناه عن هيكل بأن عبد الناصر كان يعرف ما يجري من صور التعذيب، يؤكد موسى صبري: أن عبد الناصر كان يعلم

بصور التعذيب قبل وقوعها وبعد وقوعها، وكان يحاط علما بأن البعض مات خلال التعذيب!

وينقل موسى صبري عن صلاح الشاهد واقعة نقلها صلاح الشاهد إلى جمال عبد الناصر. وخلاصتها: أن سيدة فاضلة وقع عليها تعذيب مرير، وجئ لها بوحش في صورة إنسان ليهتك عرضها... ويقول صلاح الشاهد: إن عبد الناصر لما سمع منه تلك الشكوى: نظر إليه بضيق شديد، وقال له: مالكش دعوة بالحاجات دي. هو حد من أقاربك اتعذب. الحاجات دي يشوفها سامي شرف.

تنبيه على أمرين مهمين:

وأود أن أوضح هنا أمرين:

أحدهما: أن جماعة الإخوان التي يرأسها الأستاذ الهضيبي، لم تؤسس هذا التنظيم، وليست هي المسؤولة عنه، وإنما يسأل عنه العدد المحدود الذين دعوا إليه ونظموه.

ومن الظلم أن تحمل جماعة كبيرة كالإخوان وزر فئة محدودة منها، لم تلتزم بخطها، ولم تأخذ إذنا من مرشدها العام.

كما أن جماعة الإخوان غير موجودة قانونا، ومحلولة رسميا، فلا يجوز أن ينسب إليها أي عمل. والأفراد ينبغي أن يحملوا جزاء ما عملوا بصفتهم الفردية.

والثاني: أن هذه الأشياء التي ذكروها في اتهام هذا التنظيم، إن افترضنا صحتها: لم ينفذ منها شيء على أرض الواقع، وقد قيل:

إن بعضهم كتبها على ورقة، باعتبارها أشياء يفكر فيها، أو مقترحات قد يعرضها على غيره، أو نحو ذلك.

والإنسان إنما يسأل ـ شرعا وقانونا ـ عما يعمله بالفعل، أو يشرع في عمله، ويأخذ في ذلك خطوات للتنفيذ. أما أحاديث النفس وخواطرها، وما يدور بتفكيرها، فلا يحاسب عليها الدين، ولا يحاسب عليها القانون.

وفي الحديث الصحيح: "إن الله عفا عن أمتي ما حدثت بها أنفسها، ما لم تعمل به أو تتكلم" رواه مسلم.





لماذا حوكم سيد قطب؟

الحقيقة أن سيد قطب وتنظيمه: لم يحاكما من أجل (الأعمال الخطيرة) التي ارتكبها، ولكن حوكم كلاهما من أجل (الأفكار الخطيرة) التي اعتنقها أو دعا الناس إليها. ولو أنصفوا وامتلكوا الشجاعة، لقالوا: إننا حاكمنا الرجل ـ بل حكما عليه بالإعدام ـ من أجل أفكاره لا من أجل أعماله.

والعجيب أن الذي كان يحاكم أفكار سيد قطب: ضابط محدود الثقافة، قليل البضاعة من العلم والفكر، وإن كان لواء في الجيش. فإن كان ولا بد من محاكمة فكر سيد قطب، فلتكوَّن له لجنة من كبار العلماء والمفكرين، تناقشه فيما ذهب إليه.

لقد أخطأ عبد الناصر ورجال أجهزته من شمس بدران ووزارة الدفاع، وأجهزة المخابرات العامة، والمخابرات العسكرية، وغيرهم، حين ظنوا أن (الأفكار) تحارب بالاعتقال والسجن والتعذيب والإعدام. إنما تحارب الفكرة بالفكرة، والحجة بالحجة، واللسان باللسان، والقلم بالقلم، ولا تحارب الفكرة بالقوة، ولا الحجة بالسجن، ولا اللسان بالسنان، ولا القلم بالسيف.

لقد حوكم سيد قطب على أخطر كتاب ألفه، وهو كتاب (معالم في الطريق) فهو الذي تتركز فيه أفكاره الأساسية في التغيير الذي ينشده، وإن كان أصله مأخوذا من تفسيره (في ظلال القرآن) في طبعته الثانية، وفي أجزائه الأخيرة من طبعته الأولى.

كان الكتاب قد طبع منه عدد محدود في طبعته الأولى، التي نشرتها (مكتبة وهبة) ولكن بعد أن حكم بإعدام سيد قطب، وبعد أن كتبت له الشهادة، أصبح الكتاب يطبع في العالم كله بعشرات الآلاف. وصدق ما قاله عليه رحمة الله: ستظل كلماتنا عرائس من الشمع لا روح فيها ولا حياة، حتى إذا متنا في سبيلها: دبّت فيها الروح، وكتبت لها الحياة!

فهم في الحقيقة لم يقاوموا أفكار سيد قطب، بل ساهموا مساهمة فعالة في إذاعتها ونشرها!

أما تقويم هذا الكتاب (المعالم) وما فيه من صواب أو خطأ، فنرجئه إلى حديثنا عن (سيد قطب) واستشهاده رحمه الله في سنة 1966م.

الحكم بالإعدام:

حوكم سيد قطب أمام (محكمة عسكرية) تتكون من ضباط كبار، والأصل في المحاكم العسكرية: أن تحاكم العسكريين من الضباط والجنود فيما خالفوا فيه النظام والقوانين العسكرية، وهذا طبيعي ومنطقي: أن يحاكم العسكريون عسكريين مثلهم، وهم أولى بهم.

ولكن المشكلة تكمن حين يحاكم العسكريون المدنيين في تهم لا تتعلق بالجانب العسكري، فهذا ما تلجأ إليه الأنظمة الديكتاتورية ـ

تحت شعار الأحكام العرفية أو أحكام الطوارئ ـ ليحكموا على خصومهم السياسيين أو العقائديين، بما لا ترضاه المحاكم المدنية.

وأكثر من ذلك: أن يحاكم العسكريون كبار رجال العلم والفكر والقانون، كما رأينا قائد الجناح جمال سالم، يحاكم أمثال: حسن الهضيبي، وعبد القادر عودة، ومحمد فرغلي.

ورأينا اللواء فؤاد الدجوي، يحاكم سيد قطب، فإن من العجب حقا أن يحاكم رجل عسكري ـ مهما يكن خبرته ومعرفته ـ رجلا في حجم سيد قطب الأديب الناقد العالم المفكر!!

وفي نهاية المحاكمة التي راقبها الكثيرون في كل مكان: فوجئ الناس بالحكم على ثلاثة من المتهمين بالإعدام، وعلى آخرين بأحكام متفاوتة.

وقد قوبل الحكم بالإعدام على سيد قطب وصاحبيه بالدهشة والاستغراب والإنكار، بل الرفض والاحتجاج من أنحاء العالم العربي والإسلامي، وقامت مظاهرات، وأرسلت برقيات، وحدثت وساطات لدى عبد الناصر، وكان الكثيرون يتوقعون أن يستجيب لها، فلم يفعل، وسد أذنا من طين، وأذنا من عجين، كما يقول المثل.

لقد شنق ستة من قادة الإخوان سنة 1954م من أجل تهمة شروع في قتل عبد الناصر في ميدان المنشية، وإن كنا أثبتنا بالأدلة القاطعة براءة جماعة الإخوان من هذه التهمة، وقول الكثيرين: إن هذه (تمثيلية) وليست حقيقة، إلى آخر ما ذكرناه في الجزء الماضي. ولكن هناك في الظاهر تهمة شروع في قتل رأس النظام.

أما هنا، فلم يحدث قتل، ولا شروع في قتل، فعلام يعدم هؤلاء؟ وبأي جريمة تقطع رقابهم؟

وقد ذكروا هنا أمرا عجيبا ينبغي أن نسجله: ذلك أن شمس بدران وحسين خليل مدير المباحث الجنائية عرضا على عبد الناصر خلال محاكمة الشهيد سيد قطب الأحكام التي سيصدرها الدجوي، ومن بينها حكم الإعدام على سيد قطب، واتفقوا مع عبد الناصر على تخفيف حكم الإعدام عليه إلى السجن، أو العفو مع تحديد إقامة، أو نحو ذلك؛ لينال عبد الناصر كسبا شعبيا يغطي كل ما قيل عن التعذيب، وما سيُقال عن العقوبات التي ستفرض على الآخرين. ولكنهم فوجئوا بعبد الناصر يصدق على حكم الإعدام وينفذه!

إن دم سيد قطب ورفيقيه، سيظل لعنة على من سفكوه بغير حق، وسيظل يطاردهم، حتى يثأر له القدر من الطغاة الظالمين، ويستجيب لدعاء المظلومين، الذي يرفعه الله فوق الغمام، ويفتح له أبوب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين.

سهام الليل لا تخطي، ولكن   لها أمد، وللأمد انقضاء

فيمسكها إذا ما شاء ربي   ويرسلها إذا نفذ القضاء

من المسؤول عن هذه الدماء؟

كان المسؤول الأول عن دماء الإخوان في المرات السابقة، وعن محنتهم بصفة عامة:

وزارة الداخلية المصرية، وأجهزة الأمن فيها، وبخاصة (المباحث العامة) التي سميت فيما بعد (مباحث أمن الدولة). كانت هي التي تعتقل، وهي التي تتهم، وهي التي تحقق، وإن شاركتها وزارة

الحربية ببعض الأشياء، مثل السجن الحربي بزنازينه وزبانيته وقائده المتجبر: حمزة البسيوني.

أما المسؤول الأول عن دماء الإخوان ومحنتهم في هذه المرة، فهو (وزارة الحربية) ووزيرها: شمس بدران، وإن شاركتها الداخلية بالمساعدة في القبض والاعتقال وغيرها.

ولكن ما مدى مسؤولية جمال عبد الناصر في هذه المحنة وتبعاتها؟

لقد حاول بعض الناصريين أن يقلل من مسؤوليته ويخفف منها، لأنه في هذه الفترة من الزمن لم يكن هو الذي يحكم مصر في الحقيقة والواقع، إنما كان الحاكم الحقيقي لمصر هو المشير عبد الحكيم عامر، الذي جمع السلطات كلها في يديه: العسكرية والمدنية، وأصبح لا يبرم أمرا من الأمور إلا بعد أن يمر على عامر، وبات عبد الناصر بمثابة الملك الذي يملك ولا يحكم، وكان عامر يفعل ذلك بحكم نفوذه في القوات المسلحة، حتى قالوا: إن عبد الناصر عرض عليه مرة: أن يعينه نائبا لرئيس الجمهورية، ويدع الجيش والقوات المسلحة، ولكنه رفض، ليقينه أن من يملك القوات المسلحة يملك البلد كله.

وهذا الذي قاله الكثيرون أكده السيد حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة في أحاديثه مع أحمد منصور في برنامج (شاهد على العصر) الذي تقدمه قناة الجزيرة.

ومع تصديقي بهذه المقولة، لا أعفي عبد الناصر من مسؤوليته التاريخية عن هذه المأساة، فهو الذي أعلن عنها من (موسكو) وذكر في خطابه الشهير هناك قائلا: إننا سنضرب بيد من حديد، وإننا لن نرحم هذه المرة. كأنه قد رحم في المرة السابقة!

وقد أكد الكثيرون من المعتقلين ـ الذين كانت السياط تشوي جلودهم في زنازين التعذيب ـ أنهم رأوا بأعينهم عبد الناصر، يحضر مشاهد التعذيب مع رجاله. ومن ذلك ما ذكرته الأخت المؤمنة الصابرة المحتسبة الحاجة زينب الغزالي، التي ذكرت في كتابها: (أيام من حياتي) ما لاقت من الأهوال، التي لا تكاد تصدق من بشاعتها، وقالت: إنها رأت جمال عبد الناصر، في إحدى مرات التعذيب.

وهو ـ على كل حال ـ الرئيس المسؤول دستوريا وقانونيا عما تفعله حكومته، وهو الذي صدق على حكم إعدام سيد قطب، وهو الذي رفض أي شفاعة فيه، وأصم أذنيه عن استغاثات العرب والمسلمين أن لا ينفذ حكم الإعدام، وأصر على أن ينفذ في الرجل الأديب العالم المفكر الداعية الكبير: حكم الإعدام.

فمهما يحاول محامو الناصرية أن يبرئوا الرجل عن التبعة، فإن الثابت بيقين: أنه مسؤول عنها أمام الله سبحانه، وأمام الشعب، وأمام التاريخ.

على أنا سنثبت عند حديثنا عن (النكسة) أن المسؤول عن كل تجاوزات عامر وانحرافاته هو عبد الناصر!

الإخوان في خارج مصر:

كان الإخوان في داخل مصر ما بين معتقل في السجن الحربي، أو في مزرعة طرة، أو في سجن القناطر، أوفي سجن القاهرة (أرميدان) أو في سجون الأقاليم والمحافظات.. وبين معتقل في بيته ممن لم يصبه الاعتقال، من غير المعروفين، فهو في منزله أشبه

بالسجين، لا يستطيع أن يتحرك، ولا أن يساعد أسرة أحد من إخوانه، لأن الأجهزة له بالمرصاد.

وكان على الإخوان خارج مصر عبء لا بد لهم أن يحملوه، دفاعا عن إخوانهم، وتعبئة للرأي العام العربي والإسلامي والعالمي، ليقف معهم، ويؤازرهم في شدتهم.

وكان على الإخوان المصريين ـ بالخصوص ـ عبء أكبر من غيرهم، فعليهم أن يتحركوا على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد الإعلامي، ليعملوا شيئا لنصرة إخوانهم، فقد نجاهم الله من هذه المحنة التي تصهر إخوانهم في بوتقتها، فعليهم أن يشكروا الله على النجاة منها، بعملهم لمساعدتهم بكل وسيلة.

ولما كانت هذه المحنة سببا في إحياء الجماعة ـ فكرا وشعورا ـ داخل مصر، فقد كانت سببا في إحياء الإخوان كذلك خارج مصر، وتحرك الإخوة هنا وهناك للمّ الشمل، وجمع المساعدات المالية، ومحاولة توصيلها لعائلات المعتقلين، رغم وعورة الطريق، وخطر المحاولة، ويقظة رجال المباحث، لأي طارق يطرق هذه البيوت المنكوبة، ولم ينس الإخوان ما حصل في محنة 1954 من محاكمات لما سموه (أجهزة التمويل) التي حكم على بعضهم فيها بعشر سنوات، وأكثر من ذلك.

ومع هذا، لا بد من المخاطرة، ولا يسعنا بحال أن ندع زوجات إخواننا وأطفالهم وأبناءهم وبناتهم جياعا، كما تريد السلطات المصرية: أن تذل أسر الإخوان، ولا يذل الإنسان مثل الجوع، والجوع كافر، ومثل مد الكريم يده إلى اللئيم يسأل القوت، ولا يقهر الأم شيء مثل أن ترى فلذات أكبادها يتضورون من الجوع، وتصرخ بطونهم من الطوى، بين أيديها وهي لا تملك لهم شيئا**!!**

أي شيطان لبس الإنسان، فجعله يقسو على مواطنيه هذه القسوة؟ وهب أنه أذنب، فما ذنب أمه وأبيه وصاحبته وبنيه؟

ما بالنا اليوم ننكر على إسرائيل ما تفعله بأسر الفدائيين، حيث تهدم بيوتهم، وتدع أهليهم في العراء؟

على حين نجد 95% من هؤلاء المعتقلين، ليس لهم في الثور ولا في الطحين، ولا في العير، ولا في النفير.

تجاوب الإخوان مع نداء الواجب، ولم يتخلف عن ذلك إلا المهازيل الذين ترتعد فرائصهم فرقا من الطواغيت، وهم على بعد آلاف الأميال! وهؤلاء كانوا قليلا، أو أقل من القليل، أو الذين آلوا على أنفسهم: أن لا يتصلوا بالدعوة من قريب ولا من بعيد. والدعوة في غنى عن هؤلاء الذين ضنوا عليها بأنفسهم وأموالهم، ورضوا أن يعيشوا حياة الفارغين من الطموح إلى مراتب العلا في الدنيا، أو درجات النعيم في الأخرى، فأولى يخاطبوا بقول الحطئية:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي!

على أن المهم ليس مجرد جمع الأموال، فالباذلون من الإخوان كثير، والحمد لله، ولكن المهم هو توصيلها إلى الأسر المحتاجة والمستحقة للعون العاجل. وهي محفوفة بالمخاطر، مليئة بالأشواك، على نحو ما قال الشاعر العاشق قديما:

كيف السبيل إلى سعاد، ودونها قمم الجبال، ودونهن صنوف؟

والرجل حافية، ومالي مركب والدرب وعر، والطريق مخوف

وهذه الأسر ليست مائة ولا ألفا، بل هي ألوف مؤلفة في القاهرة والإسكندرية وسائر محافظات مصر في الصعيد والوجه البحري، حتى العريش والواحات كان منها معتقلون. إنها في حاجة إلى شبكة كبيرة ممن لا يبالون ما يصيبهم في سبيل الله، فإنهم إذا ضبطوا اتهموا بأنهم على صلة بدولة أجنبية، يقبضون منها الأموال، ويوظفونها في تخريب البلاد، وإفساد العباد.

ولم تمنع المخاطرة من الاتصال بالإخوان الذين نجوا من الاعتقال، الذين استطاعوا أن يوظفوا عددا من الأخوات المؤمنات الصادقات في هذا الأمر، فقمن بدورهن خير قيام، على قدر الإمكان. فلا شك أن هناك أسرا في مدن وقرى مختلفة من أنحاء مصر، لم يستطع أحد الوصول إليها، وظلت صابرة على البأساء والضراء، تشكو إلى الله الرحمن الرحيم: قسوة الإنسان على أخيه الإنسان، بل قسوة المصري على أخيه المصري!

إلـى اللـه نشكو، إننا بمواطـن تحكّم فـي آسادهن كلاب!

وقد صار هذا الناس ـ إلا أقلهم ـ ذئابا على أجسادهن ثياب!

ولم تسلم أسرتنا من آثار هذه المحنة، فقد كان شقيق زوجتي ـ الأستاذ سامي عبد الجواد ـ أحد المعتقلين، الذين سيقوا إلى مزرعة

طرة، ولقي فيها من المتاعب ما لقي، حتى اضطر إلى إجراء عملية جراحية، وهو في المعتقل، عانى فيها ما عانى، ولا زالت آثارها معه إلى اليوم.

حملة إعلامية في موسم الحج:

ومما اتجه إليه الإخوان في الخارج: أن يواجهوا النظام الناصري بحملة إعلامية مضادة، حيث يستحيل عليهم في داخل مصر أن يردوا على إعلام عبد الناصر المسخر لتأييد كل ما تقوله السلطة من حق أو باطل.

اختار الإخوان أن تكون هذه الحملة في (موسم الحج) حيث يجتمع الحجيج من مصر، ومن الوطن العربي، ومن العالم الإسلامي، ومن خارج العالم الإسلامي حيث تعيش الأقليات الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوروبا والأمريكتين واستراليا. فهذا الموسم هو الزمان المناسب والمكان المناسب لتنظيم هذه الحملة ضد عبد الناصر، ونظام حكمه، القائم على البطش والقهر، وقمع المواطنين، وإرهاب كل شخصية أو جماعة تحاول أن ترفع رأسها لتقول في أي مناسبة للثورة: لم؟ ناهيك بأن تقول: لا.

ووسيلته في ذلك: السجون والمعتقلات والمشانق، وأدوات التعذيب الجنهمية، التي لم يعرفها المصريون قط في عهد الملكية التي اتهمت بالفساد والانحراف والمظالم، ولما سقطت ظن الناس أنهم تخلصوا من الظلم إلى غير رجعة، فوقعوا في ظلم أكبر وأضخم، لم يعرفوا له مثيلا من قبل.

وكان لا بد لتنظيم هذه الحملة الدعائية الواسعة في موسم الحج من أمرين لا بد من الاطمئنان إليهما قبل الشروع في الإعداد لها.

شرعية هذه الحملة:

أولهما: مدى شرعية هذا العمل في موسم العبادة العالمية (الحج). وكان الرأي السائد: أن القرآن ربط عبادة الحج بـ (شهود المنافع) للمسلمين. فقال تعالى لإبراهيم: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) الحج: .

ومن هذه المنافع: أن يناصروا إخوانهم المستضعفين في الأرض، الذين يجرّعون من كؤوس الإيذاء، ويذوقون من ألوان الإهانة والإذلال ما لا يكاد يحتمله بشر. وأن ينددوا بظالميهم المستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين ساموهم سوء العذاب (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) البروج: .

ولقد استفاد الرسول الكريم من موسم الحج في السنة التاسعة، حين بعث أبا بكر أميرا على الحجيج المسلمين، وبعث وراءه عليا بسورة التوبة يقرأها على الناس، ليحددوا موقفهم بعد أن أمهلتهم السورة أربعة أشهر. ويعلن علي باسم رسول الله: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأن يوفى لكل ذي عهد بعهده.

وفي حجة الوداع أعلن الرسول على الناس بيانه العام الذي أكد فيه كرامة الإنسان، واحترام حقوق الإنسان وصيانة الدماء والأموال والأعراض، وأبطل ما كان في الجاهلية من أوضاع كالربا وغيره، وقال للناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب.

فلا حرج إذن أن يستخدم الحج فيما فيه مصلحة المسلمين، على أن يتم ذلك بالحكمة والرفق والأناة، دون إثارة أو مواجهة بين الناس بعضهم وبعض، حتى لا تحدث فتنة بين المسلمين.

موقف السلطات السعودية:

والأمر الثاني: أن توافق السلطات السعودية على ذلك، وكانت العلاقات بين الإخوان والمملكة العربية السعودية في ذلك الوقت: علاقة تواصل ومودة وتفاهم وتعاون، وذلك في عهد الملك الراحل ـ رجل المواقف العربية والإسلامية التي لا تنسى ـ فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، ولا ريب أن كل الذين تعاملوا مع هذا الرجل أثنوا عليه ثناء عاطرا، من حيث فهمه ووعيه ودينه وأمانته وشجاعته في تبني الحق والدفاع عنه.

سعي الإخوان لإنشاء رابطة العالم الإسلامي في مكة:

وكان الإخوان قد بدأت صلتهم تتوثق بالمملكة من قبل في عهد الملك سعود، الذي استجاب للإخوان بإنشاء (رابطة العالم الإسلامي) فقد كان الإخوان ـ وفي مقدمتهم سعيد رمضان، ومعه كامل الشريف، وعبد الحكيم عابدين وغيرهم ـ هم الذين أقنعوا المسؤولين بضرورة تأسيس هذه المنظمة العالمية، وبينوا أهدافها، ورسموا طرائقها، وقدموا مسوّدتها للمسؤولين، ورشحوا لهم أعضاءها من الشخصيات الإسلامية العالمية، التي تشترك مع الإخوان في الهم الإسلامي العام، وفي الوعي بقضايا الأمة الكبرى، ووسائل النهوض بها، مثل: مولانا أبو الأعلى المودودي من باكستان، ومولانا أبو الحسن الندوي من الهند، والدكتور محمد

ناصر من إندونيسيا، والشيخ محمد محمود الصواف من العراق، والشيخ حسنين مخلوف من مصر، وغيرهم من رجال العلم والفكر والدعوة والجهاد.

الشيخ مناع القطان:

وكان من الإخوان الذين وصلوا إلى المملكة مبكرين: عدد ممن يعملون في سلك التدريس، على رأسهم الأخ العالم الأزهري المتمكن الشيخ مناع خليل القطان، خريج كلية أصول الدين، وزميلي في الدراسة وفي السكن، وقد تخرج قبلي بسنتين، وأعير إلى المملكة سنة 1953،1954الدراسية، أي قبل محنة الإخوان مع عبد الناصر بقليل، فنجاه الله منها، واختير للتدريس بالمعاهد والكليات الشرعية بالرياض، قبل أن تنشأ جامعة الإمام محمد بن سعود، وتضم هذه الكليات إليها.

وقد حاز الشيخ مناع ثقة المشايخ وطلبة العلم بالرياض، لأصالة جانبه العلمي، الذي تكون في رحاب الأزهر، ومرونة شخصيته، وتمتعه بالأناة والحكمة في مواجهة الأمور، وثقة الإخوان به، ممن يعملون في المملكة من أمثال الشيخ فتحي الخولي، والشيخ مصطفى العالم، وغيرهما ممن يعملون في مدن المملكة المختلفة في نجد والحجاز والمنطقة الشرقية.

وكان مما ساعد فضيلة الشيخ مناع على احتلال مكانته: وجود عالم كبير من قريته نفسها (شنشور منوفية) سبق إلى المملكة، ونال الاحترام والتقدير من كبار مشايخها، وأمسى مقدما فيهم، وبخاصة أنه سلفي العقيدة، ومن رجال أنصار السنة في مصر، ولكنه كان رجلا ضليعا في العلم، حكيما في الرأي، قويا في الدين، متينا في

الخُلُق، يتميز بالاعتدال والتوسط في النظر إلى القضايا، ومعالجة المواقف، هذا العالم الجليل هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله، الذي تتلمذت عليه أجيال من أبناء المملكة، وكان عضوا في هيئة كبار علمائها، ولجنة الإفتاء، وكانت مرتبته تلي مرتبة الشيخ ابن باز، وكان مهيبا محترما محبوبا مسموع الكلمة من الجميع. لذا كانت معرفة الشيخ عبد الرزاق بالشيخ مناع، وقربه منه، وحسن رأيه في الإخوان، مما مهد السبيل له لينال وضعه.

ولا غرو أن أصبح الشيخ مناع هو وجه الإخوان، والممثل لهم أمام الجهات الرسمية السعودية، وأضحت له ثقة عندهم، فإذا أراد الإخوان شيئا من الحكومة السعودية نقلها إليهم الشيخ مناع، عن طريق لقائه بالأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، أو الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، أو الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية. وكذلك إذا أرادت المملكة أمرا من الإخوان استدعت الشيخ مناعا، وأبلغته بما يريدون، أو فاوضوه فيما يطلب منهم، وقد يرجئ الإجابة حتى يشاور إخوانه، ثم يرجع إليهم.

وفي عهد الملك فيصل رحمه الله ازدادت صلة الإخوان به توثقا وقوة. وأضحى كثير من الإخوان مجندين لأنفسهم وجهودهم في تأييد السياسة الإسلامية التي ينهجها الملك فيصل، وهي سياسة تتفق مع أهداف الإخوان، وربما كان لهم دور في إغرائه بها، ودفعه إليها.

رأينا مثل الدكتور توفيق الشاوي ـ القيادي الإخواني المصري ـ يعمل في سبيل تأسيس البنك الإسلامي للتنمية، ويضع له أسسه وقواعده القانونية.

ورأينا الشيخ محمد محمود الصواف ـ مؤسس حركة الإخوان في العراق ـ يحمل رسائل من الملك فيصل إلى رؤساء إفريقيا في حركة ذكية واعية، قادها فيصل بحكمة ومهارة، لتأليب إفريقيا على إسرائيل، وضمها إلى الجانب العربي. والحق أن سياسة الملك فيصل هذه آتت ثمراتها بسرعة، وقاطعت معظم الدول الإفريقية ـ بخاصة الإسلامية منها ـ الكيان الصهيوني.

ورأينا إخوة من الأساتذة التربويين في وزارة المعارف التي يقودها الرجل الفاضل الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ، وقد شكلت منهم لجان لتغيير المناهج التقليدية، إلى مناهج معاصرة، تراعي الأسس التربوية، وتجمع بين الأصالة والتجديد، كما ألفت كتب حديثة في ضوء هذه المناهج لا تغفل العقيدة الإسلامية، ولا القيم الإسلامية، كما لا تغفل روح العصر وتياراته في المضمون والأسلوب.

الذي أقصد إليه هنا: أن المملكة في ذلك الحين كانت مهيأة لتسمح للإخوان بحملتها في موسم الحج (1386هـ -1966م). وكان هجوم عبد الناصر على المملكة ورجالها وعلى الملك فيصل خاصة، مما أحدث قطيعة بين البلدين، وتوترا في العلاقة بينهما، وكان هذا من فضل الله على الإخوان ورحمته بهم، فهو سبحانه إذا أراد أمرا هيأ له الأسباب، وأزال من طريقه الموانع.



كتب تندد بسياسة عبد الناصر

قرر الإخوان في الخارج إصدار عدة كتب تندد بسياسة عبد الناصر، ومظالم عهده، وخصوصا ما صنعه مع الإخوان، ممن علق على حبال المشانق جهرة، ومن قتل تحت سياط التعذيب خفية، ومن قتل في السجون علانية، برصاص الحراس، وهم أمانة تحت أيديهم، كما في مذبحة ليمان طرة الشهيرة، ومن عوِّق أو شوه أو أصيب بآفة في جسده، ومن ضاع مستقبله، ومن خسرت تجارته، ومن بارت زراعته، ومن جاعت ذريته، وتعرضت لمحن شداد، ومن تركت الكرابيج الساخنة آثارا باقية في بدنه، وأنا واحد منهم.

وطفق الإخوان يهيئون هذه الكتب، ويحضرون مادتها، ويستكتبون أهل الذكر والخبرة فيها، وظهر منها خمسة، بعدد صلوات اليوم والليلة، كان أحدها (الوثيقة الخطيرة) التي وقع عليها وزير الداخلية، ومعه آخرون، لمحاربة (تيار التديّن) في مصر، فهو الذي يفرخ هؤلاء الإسلاميين، الذين يعارضون الثورة، ويقدمون الفكر البديل عنها، ولا يبالون بالتضحية في سبيلها. وكلما ضربت الثورة

جيلا من هؤلاء، وحطمت قوته، برز جيل جديد، يحمل اللواء، ويعلي البناء، ويجيب النداء، ويقدم الفداء، ويتحمل البلاء.

ومن أين يأتي هذا الجيل؟ إنه يتولد من رحم التيار الديني العام، لهذا لا بد من محاصرة هذا التيار من منبعه، ومحاولة إضعافه، إن لم يكن احتواؤه.

قصيدتي النونية:

وكان عليّ دور محدد، طلب مني في هذه الحملة، وهو قصيدتي التي اشتهرت لدى الإخوان باسم (النونية) لأني قلت في مطلعها:

صوّرت فيها ما استطعت بريشتي وتركت للأيام ما يعييني

ما همت فيها بالخيال، فإن لي بغرائب الأحداث ما يغنيني

أحداث عهد عصابة حكموا بني مصرٍ، بلا خلق ولا قانون

أنست مظالمهم مظالم من خلَوْ حتى ترحمنا على نيرون!

وقد مر على قارئي الكريم فقرات من هذه الملحمة في مناسباتها في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

وكان علي أن أكتب مقدمة لهذه القصيدة، وأن أعلق على بعض أبياتها، وأعرف ببعض الأسماء التي ذكرت فيها، مثل حمزة البسيوني قائد السجن الحربي، وأمين السيد (صول) السجن، ومن حولهما من الجنود وزبانية التعذيب.

ولكن كانت هناك مشكلة قبل ذلك كله، فقد أنشأت هذه القصيدة في أواخر سنة 1955م، أي منذ عشر سنوات أو تزيد، وللأسف لم أكتبها، وكنت معتمدا على الذاكرة في حفظها، لأني كنت أخشى أن أكتبها، فتهاجم المباحث منزلي لسبب أو لآخر، وتفتشه، فتجد القصيدة، وقد ذكرت فيما مضى أني استدعيت إلى المباحث ليسألوني عن هذه القصيدة خاصة.

وكان عليّ بعد أن ذهبت إلى قطر أن أكتبها، ولكن شغلتني شواغل العمل الجديد، والبلد الجديد، والشعور بالأمن، فلم أفكر في هذه القصيدة، ولم يطلب مني أحد أن أكتبها، أو أنشدها. فنسيت الكثير منها. ولم يعد ما أحفظه منها مترابطا، بل هناك فجوات بين بعض القصيدة وبعض، وقديما قالوا: حياة العلم مذاكرته. أما ترك العلم دون مذاكرته فهو على وشك النسيان، ولا سيما مع طول الزمان، وقد قال شوقي: اختلاف النهار والليل ينسي.

وهنا كان عليّ أن أبحث عن الإخوة الذين كانوا يحفظون القصيدة ممن كانوا معي في السجن الحربي، ومنهم أخوان كريمان من إخوان طنطا، وهما: سعد زين العابدين سلامة، أصغر طالب كان في السجن الحربي، وكان في الشهادة الثانوية، وزميله فؤاد قنديل، وكان في السنة الأولى في كلية الصيدلة، وكان مشهورا بقوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، حتى إنه حفظ القرآن كله - وهو في السجن الحربي - في أقل من سنة.

وقد علمت أن كلا منهما - سعدا وفؤادا - قد غادرا مصر منذ سنوات إلى ألمانيا، واستقرا فيها، وأكملا دراستهما بها، وتزوجا من ألمانيتين، بعد أن صمما أن لا يعودا إلى مصر، بعد تجربة السجن الحربي، إلا أن تتغير الأوضاع فيها، وتهب على الناس

رياح الحرية، التي ينعمون بها في بلاد الإفرنج، وقد طعموا فيها من جوع، وأمنوا من خوف.

وبالسؤال والبحث عرفت عنوان الأخ سعد وطلبت إليه: أن يرسل إلي كل ما يحفظه من النونية، ويستعين بالأخ فؤاد، وكل من يعرف من نزلاء السجن الحربي.

وكان سعد ـ حفظه الله ـ عند العهد به، فراسل إخوانه وهاتفهم هنا وهناك، وبعث إلي بنحو مائة وتسعين بيتا من القصيدة، وهي أكثر من ثلاثمائة في الأصل، وبإضافتها إلى ما أحفظه مما لم يرسلوه إلي أمكن إعادة بناء القصيدة أو الملحمة، ولكن بقيت فيها فجوات اجتهدت أن أملأها بما يفيض به الخاطر، وإن لم يكن ـ غالبا ـ في قوة الأصل الذي ظهر في السجن متدفقا كالسيل، سلسا عذبا كالماء الزلال.

واكتملت القصيدة في نحو ثلاثمائة بيت، وقدمت لها، وعلقت عليها بما يفي بالمقصود من نشرها. وإن تبين لي بعد ذلك أن بعض الإخوة من زملائنا في السجن الحربي، يحفظ منها أبياتا، لم تودع في القصيدة، وأذكر أني كنت ليلة في الإسكندرية، وقام أحد الإخوة الدعاة الأستاذ محمد عبد المنعم وألقى كلمة ضمنها أبياتا كثيرة من النونية، مما لم يوجد فيما نشرته منها. وفي هذا الصيف (صيف 2003) كنت مدعوا على غداء مع عدد من الإخوة، ففوجئت بالأستاذ أحمد أبو شادي، وقد كان زميلا لنا في السجن الحربي، ومن رواة القصيدة: ينشد أبياتا مهمة من النونية، معظمها مما لم ينشر.

وقد أرسلتها إلى الإخوة في المملكة، وراجعها عدد من الإخوان الشعراء، مثل الأستاذ محمد المجذوب الأديب السوري الشاعر الداعية، وقد حوروا أشياء قليلة منها، فقد كان آخر القصيدة يشتمل

على دعوات أناجي فيها الله جل ثناؤه، وأسأله كشف الغمة، وتفريج الكربة التي نحن فيها. وكان منها:

يا رب خلصنا من ابنَيْ سالم ومن ابن عبد الناصر المتفون!

يا رب إن السيل قد بلغ الزبى والأمر في كاف لديك ونون

باسم الفراخ الزغب هيض جناحها فقدوا الأب الحاني بغير منون

بدموع زوج غاب عنها زوجها وبكل دمع في العيون سخين

فرأى الإخوة تغيير البيت الأول من هذه المناجاة، لما يشتمل عليه من أسماء أشخاص، وعدلوه إلى هذه الصيغة العامة:

يا رب خلص مصر من أعدائها وأعن على طاغوتها الملعون

وأحسب أن هذا من صنع الأستاذ المجذوب رحمه الله.

نشرت القصيدة ضمن كتاب اختار له الإخوة عنوانا، وهو (نافذة على الجحيم) يقصدون جحيم السجن الحربي، وما احتوى من عذاب وأهوال جسام، ونشروا القصيدة تحت عنوان: (مشاهد من الجحيم).

أزعجت هذه الحملة الإعلامية المكثفة السلطات المصرية، لما قدمته من حقائق ووثائق، وشهادات عدول، بأسلوب قوي مؤثر، وقد وزع منها عشرات الآلاف، على مختلف الحجيج من أنحاء العالم، وقد كان عبد الناصر حريصا على تحسين صورته في

العالم، ويبذل إعلامه جهودا جبارة في ذلك، وتنفق عليه الملايين بسخاء. ولكن هذه الحملة أبطلت سحر إعلامه، وألغت أثره.

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

ولقد قال أحد الحكماء: تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، وتستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت!

جفوة بين حركة (فتح) والإخوان في قطر:

كان من أبرز الأحداث التي وقعت في مطلع سنة 1965: الإعلان عن حركة وطنية فلسطينية تقاوم المشروع الصهيوني، وتقوم بأعمال عسكرية ضد إسرائيل، وشعارها: ثورة حتى النصر. وكان انطلاق هذه الحركة في (1965/1/1م) حيث قامت بأول عملية لها.

وقد أطلقت الحركة على نفسها اسم: (فتح) إشارة إلى الحروف الأولى من كلمة: حركة التحرر الفلسطيني، بعد قلبها، لأن الحروف تكوّن كلمة (حتف) فقرئت مقلوبة، لتتحول إلى (فتح) وإن كان فيها حتف الأعداء.

كان الشائع في الأوساط العربية المختلفة: أن الحركة ذات اتجاه إسلامي، ونسب إخواني، وإن لم تعلن عنه بوضوح، مراعاة للظروف السياسية المحلية والعربية والدولية.

ومن المؤكد: أن نصيب أبناء الحركة الإسلامية الذين أنشأوا حركة فتح: كان ملحوظا ومعروفا، ابتداء من زعيم الحركة ياسر عرفات، الذي كانت صلته بالإخوان معروفة. وقد تحدثت عن شيء من ذلك، أثناء معارك الإسلاميين مع الإنجليز في القناة.

وكان من هؤلاء: أبو إياد (خلف) وأبو جهاد (خليل الوزير) وهاني الحسن، وأبو يوسف (محمد يوسف النجار) الذي كان شعلة من الحركة والسعي والنشاط، وكان يعمل بمكتب وزير معارف قطر، ومنهم: أبو شاكر (رفيق النتشة) وكان يعمل مديرا لمكتب الوزير الشيخ قاسم بن حمد، الذي أيد بقوة نضال فتح. كما كان في قطر: أبو مازن (محمود عباس) الذي كان يعمل مدير شؤون الموظفين بوزارة المعارف في قطر. وكمال عدواني، الذي كان يعمل في إحدى الدوائر في قطر.

والواقع أننا استبشرنا خيرا بتأسيس هذه الحركة الجهادية، فأرض فلسطين المغتصبة لا يمكن أن تسترد بالكلام أو بالشعارات أو بالمناورات، أو بالاستجداء من هيئة الأمم ومجلس الأمن، أو بالسعي لدى الدول الكبرى مثل أمريكا أو روسيا، أو دول أوربا، فكلهم أعلنوا من أول يوم لقيام دولة إسرائيل: أنها خلقت لتبقى.

ومن قديم عرف الناس: أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وأن مقاومة السيف المسلول باللسان المعسول لا تجدي، ولا يمكنها أن تهزم باطلا، أو تنصر حقا. ولقد ساهم الإخوان بأرواحهم وأعز أبنائهم في حرب فلسطين 1948م، وقدموا من الشهداء عند الله ما يشهد لهم، وسجل لهم التاريخ ذلك بمداد من نور، وشهد لهم كبار القادة العسكريين وغيرهم، وإن كان جزاؤهم في النهاية: أن اقتيد مجاهدوهم من الميدان إلى المعتقلات، وحلت جماعتهم، وقتل

مرشدهم، وعطلت دعوتهم، فكانوا هم القربان الذي قدم لإرضاء السادة في الغرب: أمريكا وبريطانيا وفرنسا!!

لهذا كان التفكير في حركة جهادية يقوم بها الفلسطينيون أنفسهم، دفاعا عن أرضهم وعرضهم ومقدساتهم، هو الأمر الواجب، والحل العملي والضروري فأصحاب الأرض أولى الناس بالدفاع عنها. وعلى كل من حولهم من العرب والمسلمين أن يناصروهم، ويساعدوهم بالمال والسلاح والخبرات العسكرية والفنية، حتى ينتصروا على عدوهم، فالمؤمنون إخوة، والأمة الإسلامية أمة واحدة، والمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

ومضت مدة من الزمن والعلاقات بين حركة فتح والإخوان في قطر، على ما يرام، تفاهما وتعاونا وتناصحا، ثم أخذت العلاقات يشوبها شيء من التعكير، بدأ يتسع شيئا فشيئا، حتى حدث بين الطرفين في قطر ما يشبه الجفوة.

فقد لاحظ الإخوان في قطر: أن حركة فتح بدأ يغزوها اتجاه علماني، لا يبالي بالدين، ولا يركز عليه، ولا يستفيد منه. وظل هذا الاتجاه يقوى بالتدريج، حتى بدا وكأنه الغالب على الساحة، وهو الموجه للفكر والسياسة.

وأصبحنا نقرأ نشرات لفتح لا يذكر فيها اسم الله، ولا تشم فيها رائحة لأي معنى رباني، بل بدت وكأنها تتعمد البعد عن الدين، أو تعتبره تهمة تبرئ نفسها منها. وكأن هذا الاتجاه غلب على الجانب الإعلامي منها فترة من الزمن.

وكان بعض المسؤولين في فتح يقول: نحن لا يهمنا إلا من يحمل البندقية، وإن لم يركع لله ركعة واحدة، أو لم يصم رمضان، أو كان

ممن يشرب الخمر، أو يقترف الموبقات في نظر الدين، ما دام يشهر السلاح على العدو!

ومن ناحية أخرى: أرادت فتح أن تدوس كل شيء في طريقها، وأن تخضع الإخوان لإرادتها وسياستها، وظهر هذا الضغط على الإخوان الفلسطينيين أكثر من غيرهم، ولكن الإخوان جميعا ـ فلسطينيين وغير فلسطينيين ـ رفضوا الخضوع والانحناء، وسياسة ليّ الذراع، ولم يقبلوا أن يسيّروا أو يسخّروا لأي أحد كائنا من كان.

ومع هذه الجفوة بين الإخوان وفتح: اقتضت الحكمة أن لا يطفو هذا الخلاف على السطح، ويظهر للجمهور، تقديرا من الإخوان للموقف، وحتى لا يشمت بهم العدو المتربص بالجميع، والذي يعنيه أن يكيد بعضهم لبعض، وأن يضرب بعضهم بعضا، وهو قرير العين بما يحدث.

والحقيقة أن الإخوان لم يكن لهم ذنب في هذه الجفوة، ولكن الطغيان جاء من قِبل فتح، التي غرتها الأماني، وزين لها الغرور بالقوة البغي على أقرب الناس إليها، كما قال القرآن الكريم: (كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى) العلق: 6،7.

على أن هذه الجفوة بدأت تخف حدتها، بخروج العناصر القوية في فتح من قطر، لتذهب إلى بيروت، وغيرها من العواصم، فقد غادر قطر: أبو يوسف النجار، وأبو شاكر النتشة، وأبو مازن وغيرهم.

زيارة موسى الصدر للدوحة:

كان من أبرز الأحداث في تلك السنة: زيارة الإمام موسى الصدر ـ رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان ـ إلى قطر، ضيفا على الإخوة (الشيعة) في الدوحة، الذين رحبوا به غاية الترحيب، وكرموه أوفر التكريم، وأقاموا له الولائم الكبرى في منازل أعيانهم وتجارهم الكبار، وقد حرصوا على دعوتي ودعوة فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، لنشاركهم في الاحتفاء بالرجل وإكرام وفادته. وقد استجبنا لدعوتهم، وشهدنا ولائمهم، وكانت فرصة لنتحدث مع الرجل الذي اشتهر بعقله السياسي، أكثر مما اشتهر بعقله الفقهي. ومن المعروف: أن في قطر أقلية شيعية، منسجمة مع الأغلبية السنية، ولا توجد بين الفريقين أية مشكلات مقلقة، والحمد لله.

وكنت أعرف بعضهم من قبل، ولم أكن أعرف أنهم شيعة، بل بوصفهم تجارا أو موظفين أو مواطنين قطريين يؤدون دورهم في المجتمع، كما يؤدي غيرهم، يقومون بواجباته، ويأخذون حقوقهم، وصلاتهم بالحكام من آل ثاني طيبة وحميمة.

وهذا يدل على أن الفتن التي تثار في بعض البلاد بين السنة والشيعة، غالبا ما تكون أسبابها خارجية، تريد أن تضرب المسلمين بعضهم ببعض، أو يكون هناك ظلم كبير وقع على أحد الفريقين، لا يمكن احتماله أو الصبر عليه. وما عدا ذلك فالعلاقات تجري ما يرام.

وقد تحدثنا عن أهمية التقريب بين السنة والشيعة، حتى لا ندع مجالا للذين يصطادون في الماء العكر، وينتهجون سياسة (فرق تسد)، وأن نركز على (القواسم المشتركة) بين المذهبين، ونوسع قاعدتها ما أمكننا ذلك، وأن يضع كل منا يده في يد أخيه في القدر

المتفق عليه، ويسامحه فيما لا يمكن الاتفاق عليه. وفقا لـ (قاعدة المنار الذهبية) التي أطلقها العلامة المجدد السيد رشيد رضا رحمه الله، وهي التي تقول: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

وكان مما تذاكرنا فيه: الأشياء الصارخة، مثل: الشهادة الثالثة في الأذان: (وأشهد أن عليا أمير المؤمنين ولي الله) فمن المؤكد: أن هذه الشهادة لم تكن من جملة الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على عهد الخلفاء الراشدين، حتى في عهد علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

وقد أقرني على ذلك، وقال: إن هذا هو المعروف عند علمائنا، ولكن هناك أمور تصطدم بعواطف العامة، وتحتاج معالجتها إلى الرفق والأناة والحكمة.

ومما تناقشنا فيه: (الحصاة) التي يضعها الشيعة في قبلتهم عند كل صلاة، ويتحرون السجود عليها، ويشيع أنها من (طينة كربلاء). وفي هذا رائحة تقديس للحجارة والحصى، وهو من رشحات الوثنية التي يرفضها الإسلام، ويسد الذرائع إليها.

وكان من جوابه: أن تحري وجوده هذه الحصاة أو الطوبة ونحوها في موضع السجود: مبنيّ على حكم شرعي عند الشيعة من أحكام الصلاة، وهو: أن السجود لا يجوز إلا أن يكون على الأرض أو شيء من جنسها، فلا يجوز السجود على منسوج كالسجاجيد، أو ملبوس كالثياب، ونظرا لأن معظم المساجد اليوم مفروشة بالسجاد أو الموكيت ونحوها، يجتهد الشيعة في حمل الحصاة معهم،

ليسجدوا عليها، وليس من اللازم أن تكون من كربلاء ولا من غيرها.

بقي الإمام موسى الصدر أياما في الدوحة مزا مكرما، ثم غادرها عائدا إلى لبنان، وقد قيل يومها: إنه جاء طالبا المساعدة من إخوانه تجار الشيعة، لينهض بأعمال المجلس الإسلامي الشيعي ومشروعاته في لبنان. وقيل: إن إخوانه في قطر، لم يخيبوا ظنه، وأنه حصل على عدة ملايين من الروبيات.

والشيعة لا يرون زكاة عروض التجارة واجبة، بل مستحبة، ولكنهم يرون وجوب الخمس في أرباح التجارة، وكل ما يأتيهم من دخل يفيض عن حاجاتهم الأصلية لهم ولمن يعولونه طوال العام. أي أنهم يدفعون ضريبة عن (صافي الدخل) مقدارها الخمس، أي عشرون في المائة (20%) فهم يفسرون قوله تعالى: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) الأنفال: 41.

وهم يدفعون هذا الخمس لمراجعهم الدينية، الذين ينوبون عن الإمام في زمان غيبته. ومن المعلوم: أن أهل البازار في (طهران) كانوا هم الممولين الأساسيين لحركة الإمام الخميني.

لا جديد في هذه السنة في قطر:

وما عدا هذين الأمرين: ما يتعلق بفتح وزيارة الصدر: في هذه السنة الدراسية (1965-1966) لم تقع في قطر أية أحداث غير عادية، فقد مضت الأمور في المعهد الديني، وفي وزارة المعارف، وفي قطر كلها، على السنن المعتادة، ولا أذكر شيئا يلفت النظر

حدث في تلك السنة. غير أن الدفعة الثانية من طلاب المعهد قد دخلوا امتحان الشهادة الثانوية وكانت نسبة النجاح مائة في المائة.

وبالنسبة لعائلتي، فقد دخلت ابنتي الكبرى إلهام المدرسة الابتدائية، وهي لم تكمل السنة السادسة، ولكن الوزارة كانت تسامح في قبول مواليد سبتمبر وما بعده، وإلهام من مواليد سبتمبر 1959م، لم تكن هناك مشكلة في قبولها.

ولكن المشكلة ظهرت بالنسبة لأختها سهام، وهي أصغر منها بسنة (سبتمبر 1960) وقد تعلقت بشقيقتها، وأرادت أن تكون معها في المدرسة، وجاء (باص) المدرسة ليحمل أختها، فأصرت على الركوب معها وبكت، فركبت وانطلقت معها، ولكن مديرة المدرسة اعتذرت بأنها لا تستطيع أن تقبلها، لأنها دون السن المطلوبة بكثير.

وهنا لم أجد بدا من أن أكلم وزير المعارف الشيخ قاسم بن حمد، راجيا منه أن يستثنيها، رعاية لظروف البنت ومشاعرها، فاستجاب رحمه الله. وظلت البنت مع أختها طوال مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية، حتى نجحتا بامتياز في كلية العلوم، الأولى في قسم الفيزياء، والثانية في قسم الكيمياء، وعينتا معيدتين بالكلية، وتزوجتا معا في أسبوعين متتاليين. وحصلتا على الدكتوراه من إنجلترا واحدة تلو الأخرى. والحمد لله رب العالمين.

وكان أكبر ما يشغلني ويشغل إخواني في قطر، هو محنة الإخوان في مصر، وكثيرا ما كنا نجتمع لنتشاور فيما يجب عمله: أنا والإخوة عبد البديع صقر، وعز الدين إبراهيم، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ علي جمَّاز، وغيرهم، حتى كثير من الإخوة الذين بعدوا عن الجماعة، عرضوا خدماتهم لمساعدة إخوانهم.

فالأخوّة الحقة إنما تظهر عند الشدائد، أما في الرخاء والعافية، فكل يدعي أنه أخوك. وقد قال الإمام علي رضي الله عنه:

ولا خير في ود امرئ متلون إذا الريح مالت مال حيث تميل!

جواد إذا استغنيت عنه عن أخذ ماله وعند زوال المال عنك بخيل!

فما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل!

ولذا قال العرب في أمثالهم: إن أخاك من واساك.

وكيف يطيب لنا عيش، أو يهنأ لنا نوم، أو يهدأ لنا خاطر، والأخبار تصبّحنا وتمسّينا بما يقاسيه إخواننا في السجون من ألوان العذاب، وما تعانيه أسرهم وذراريهم من بعدهم من ضيق وعسر، حتى كاد بعضهم يتكففون الناس؟!

وقد قال الشاعر:

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

إجازة صيف 1966م:

حين أوشكت السنة الدراسية أن تنتهي، واقتربت إجازة الصيف، بدأنا نفكر: أين نقضي تلك الإجازة؟

لم يعد في طاقتي أن أقضيها في قطر، وقد جربت ذلك في الصيف الماضي، فخارت قواي، ولم أستطع المواصلة.

وليس في الإمكان النزول إلى مصر، وقد امتنعت عن النزول إليها في الصيف الماضي، مع وجود احتمال شيء من الخطر، فكيف وقد نزل الخطر، ووقعت الواقعة، وفار التنور، وظهر اسمي في الحملة الإعلامية، مع قصيدتي النونية؟ لا يعقل أن يذهب أحد من الدار إلى النار!

إلى مدينة الخليل:

لذا فكرنا في قضاء الإجازة في لبنان، كما قضيناها في العام الفائت، ولا شك أنها كانت إجازة ممتعة وشائقة. ولكن زملاء لنا من الإخوة الفلسطينيين أغرونا بأن نقضي إجازتنا في الضفة الغربية، فتجدوا الجو المنعش، والجوار المؤنس، والعيش الرخي، والنفس الإسلامي. واقتنعنا فعلا بما عرضوه علينا، وكنا مجموعة أسر من قطر: أسرتنا وأسرة الأخ الشيخ محمد العوضي العجرودي رحمه الله، وأسرة الأخ سعد مرزوق، وكلنا قد ذهبنا إلى مدينة (الخليل). أما أسرة الأخ الشيخ علي جماز، فقد ذهبت إلى مدينة (البيرة) وسكن في بيت الأخ سالم سمور.

وكنا قد اتفقنا مع الأخ الأديب الشاعر محمد فوزي النتشة المدرس في قطر، لنسكن في (فيلا) عندهم مكتملة المرافق، في منطقة

(الكروم) أي الأعناب، ومن استأجر بيتا هناك، يقولون: استأجر (كرما) لأنه لا يستأجر البيت وحده، بل يستأجر البيت وما حوله من عنب وفواكه مختلفة، من فواكه الصيف الجميلة، من التين والعنب و(الدُّرّاق) الذي نسميه في مصر (الخوخ)، والخوخ الذي نسميه في مصر (البرقوق) ويبدو أن أول من أدخله إلى مصر: السلطان برقوق من سلاطين المماليك.

وقد استمتعنا طوال الصيف بهذه الفواكه، نقطفها بأيدينا من أشجارها، من الصباح الباكر، وهي أقرب عهد بربها، لم تتعاورها الأيدي. وبعد انقضاء المدة قال لنا آل النتشة: إن العنب كله لكم، ويمكنكم أن تأخذوه معكم. قلنا لهم: لقد شبعنا من العنب والفاكهة، والحمد لله، فقالوا: ولكنا نستطيع أن نحول هذا العنب إلى (زبيب) تحملونه معكم. وهذا علينا نحن أن نعده لكم.

أما (الماء) فكان كل منزل له (بئر) خاص به، يملأ بالماء، أيام نزول المطر بغزارة في الشتاء، ويظل الناس يشربون منه طوال العام، بما يشبه الشادوف.

الحقيقة أن هذه الصيفية كانت صيفية ممتعة، فمدينة الخليل: مدينة تاريخية عريقة، لها عبق خاص، وسحر وجمال، وفيها قبر الخليل إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام. وإن كان إخواننا الفلسطينيون يريدون أن يحتكروا كل قبور الرسل والأنبياء في بلدهم، ففي بلد: وجدنا قبر نوح عليه السلام! وفي بلد آخر: قبر هود عليه السلام. وفي أخرى: قبر يونس.

وفي مدينة الخليل، ومع قبر إبراهيم عليه السلام: نجد بجواره قبر يعقوب حفيده، وقبر يوسف عليهم السلام. قلت لهم: أليس يعقوب ويوسف انتقلا إلى مصر وماتوا فيها، كما يدل على ذلك القرآن الكريم؟ فما الذي جاء بقبرهما هنا؟

وقيل: إنها نقلت بعد مدة من مصر إلى هنا. وهذا يحتاج إلى دليل.

وقد قال الحافظ ابن حجر: إن قبور الأنبياء الموجودة في بلاد مختلفة لا يثبت منها شيء، إلا قبر محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وقبر إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل، لا في مكان القبر بعينه.

ولقد زرت مدينة الخليل ومدن الضفة الغربية من قبل سنة 1952م في رحلتي إلى لبنان وسورية والأردن، وقد تحدثت عنها في الجزء الأول، ولكني لم أقم بها غير يومين أو ثلاثة. أما في هذه المرة فسنقضي فيها نحو شهرين ونصف، وفي هذه المدة أنسنا بالمدينة وأنست بنا، واسترحنا إليها واستراحت إلينا، وأحسسنا بالفرق بين التصييف في الخليل والتصييف في لبنان، فنحن في لبنان عادة نصيف في مناطق الدروز والمسيحيين، حيث لا نجد مسجدا، ولا نسمع أذانا. أما في الخليل فالأمر مختلف تماما. المساجد من حولك، والأذان يطرب سمعك عند كل صلاة، والصلوات في هذه المساجد ميسرة، والمسلمون فرحون بها، مسرورون بإقامتنا بينهم، يلقوننا متهللين مستبشرين.

وأنا في هذه الفترة أخطب الجمع في المساجد المختلفة، ومنها مسجد الخليل إبراهيم، ومسجد السنة،ومساجد أخرى لا أذكرها، كما ألقيت عددا من الدروس فيها، وحضرنا أعراسا ومناسبات شتى، واستجبنا لدعوات المحبين، وهم كثر، وخصوصا لآل عبد النبي (النتشة) الذين عرفتهم وعرفوني وتوثقت صلتي بهم منذ زيارتي الأولى سنة 1952: الحاج عيسى، والحاج عبد الغني، والدكتور حافظ، والحاج صالح، وغيرهم.

لقد مرت عشرون سنة على زيارتي القديمة للمدينة، ولكنهم لا يزالون يذكرونها، ويرددون كلمات مما قلته في تلك الزيارة، والكلمة الطيبة لا تموت أبدا.

وزرت المخيمات القريبة من الخليل، ومنها: مخيم (العرّوب). كما زرت مدينة (دوره) وأذكر أننا وقفنا على منطقة عالية في البلدة، وأطللنا منها على فلسطين المغتصبة التي سموها (إسرائيل)!

كما زرنا (حلحول) وغيرها من المدن المحيطة بالخليل.

زيارة القدس ومدن الضفة الغربية:

وأهم من هذا كله: زرنا مدينة (القدس) وزرنا المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وكان معي الأسرة: زوجتي وبناتي الأربع الصغيرات، وكبراهن إلهام، لم تكمل السابعة بعد، وصغراهن أسماء لم تكمل الثالثة. ولكني حرصت أن أصحبهن إلى المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، ليصلين فيهما، ولو بالمحاكاة لتنغرس في نفوسهن قيمة هذا المسجد، ويرتبطن معه بذكريات لا تنسى.

وقد تجولنا بمدينة القدس القديمة وحاراتها، وزرنا كنيسة القيامة، ومسجد عمر ابن الخطاب بالقرب منها.

وإخواننا الفلسطينيون يسمون المسجد الأقصى وما حوله (الحرم القدسي) تقليدا للحرم المكي، والحرم المدني. ولهذا يقولون عن المسجد الأقصى: أولى القبلتين، وثالث الحرمين.

ولكن من المعلوم: أنه لا يوجد إلا حرمان فقط، الأول: حرمه الله تعالى، وهو حرم مكة، والثاني: حرمه رسوله، وهو حرم المدينة،

ولا يوجد حرم ثالث بعدهما. ولهذا نرى الأولى أن يقال عن الأقصى: أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين، وهما المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فقد صح الحديث: أن هذه المساجد الثلاثة هي التي لا تشد الرحال إلا إليها.

كما زرنا مدينة (البيرة) القريبة منها، ومدينة (رام الله) وفي مدينة البيرة يسكن أخونا وزميلنا الشيخ علي جماز عند آل سمّور.

وكان معنا في زيارة القدس الأخ سعد مرزوق وأسرته. وقد سجلنا هذه الزيارة بالكاميرا، والتقطنا بعض الصور التذكارية للرحلة، وإن كان التصوير وأدواته في ذلك الوقت لم يزل بدائيا، ولم يتطور كما تطور في يومنا هذا.

وعدنا إلى مدينة الخليل لنستقر فيها أياما، ثم نبدأ جولة أخرى لزيارة مدن الضفة الغربية، مصطحبا أسرتي معي.

زرت مدينة نابلس وألقيت فيها محاضرة، شهدها جم غفير، ولقيت عددا من الإخوة هناك، أذكر منهم آل البشتاوي وآخرين، أنستني الأيام والليالي أسماءهم.

وفي اليوم التالي دعانا عالم نابلس الجليل الشيخ مشهور الضامن على الغداء في بيته، ودعا عددا من العلماء ووجهاء البلد.

وزرت قرية (صانور) من قضاء جنين، وهي قرية الأخ الحبيب الأستاذ حسني أدهم جرار، الذي يعمل معي في المعهد الديني. وكان الأخ حسني يعمل أمينا لمخزن المعهد، حيث كان يحمل الشهادة الثانوية، ككثير من إخواننا الفلسطينيين، ولكنه انتسب إلى

جامعة بيروت العربية مثل الأخ يوسف السطري سكرتير المعهد، وحصل على الإجازة أو الليسانس في اللغة العربية.

وكنت ألمح في الأخ حسني قدرات عقلية ونفسية وخلقية تؤهله أن يكون له دور في خدمة العمل الإسلامي، وبخاصة أنه مربّ بفطرته، حسن العلاقة بالشباب، قوي التأثير فيهم.

ولقد صدقت الأيام ظني فيه، فأصدر هو وصديقه الأستاذ أحمد الجدع: موسوعة (شعراء الدعوة الإسلامية) والأناشيد الإسلامية. وكتب عن عدد من رجال فلسطين مثل الحاج أمين الحسيني، والشيخ عبد الله عزام، وأخرج ديواني الأول (نفحات ولفحات) وأصدر كتبا تربوية مثل (الإخوة الإسلامية) و(الجهاد) وغيرهما، ولا زال ينتج ويخرج من ثمرات قلمه النافع المثمر إن شاء الله.

ولا غرو إذا دعاني إلى أن أزوره أنا وأسرتي في قريته أن ألبي النداء، لما بيني وبينه من أواصر الأخوة، وروابط الزمالة، ولما له علي من حق بل حقوق أكدتها العشرة.

زرنا (صانور) وبقينا فيها يومين، ثم زرنا مدينة جنين، ومعنا الأخ حسني، وألقيت فيها محاضرة، وأخذنا الإخوة لزيارة بعض القرى، القريبة جدا من خطوط التماس مع إسرائيل، ورأينا بأعيننا مدى الخطر الكامن، والمترقب الذي يهدد هذه القرى. فهي لا تملك أدنى سلاح تدافع به عن نفسها وعن حرماتها إذا انتهكت، وهي تواجه عدوا يملك من أنواع الأسلحة ما يفوق ما يملك العرب جميعا، كمًّا ونوعا.

وبعد هذه الجولة عدنا إلى مقرنا في مدينة الخليل.



تنفيذ الإعدام في سيد قطب:

وفي هذه الفترة تم تنفيذ الحكم الذي صدر من المحكمة العسكرية في مصر، بإعدام الأديب والداعية والمفكر الإسلامي سيد قطب. وضرب جمال عبد الناصر عرض الحائط بكل النداءات والتوسلات التي وصلت إليه من بلاد العرب والمسلمين.

وكان لهذا الحدث صداه الواسع في أنحاء العالم، وخصوصا بين العاملين في الساحة الإسلامية، والمهتمين بالشأن الإسلامي، وعلى الأخص بين الإخوان في الخارج، الذين زلزهم هذا الحدث زلزالا شديدا.

وقرر الإخوة في (عمّان) تنظيم مسيرة احتجاج كبرى في يوم معين، وحرصت أن أشارك بنفسي في هذه المسيرة، فسافرت من الخليل إلى عمان لألتقي الإخوان هناك، وأساهم مع الإخوة، في رفع الشعارات التي تندد بالظلم والطغيان، وتنادي بالويل للطغاة والجبارين، وبالثأر للشهيد المظلوم.

وكان من الشعارات والنداءات: إلى جنة الخلد يا شهيد الإسلام، إلى جنة الخلد يا صاحب (الظلال).

وربما يعترض بعض إخواننا على مثل هذه الأقوال، فإن أحدا لا يستطيع أن يجزم بمصير أحد، إلا من بشر رسول الله بأنه في الجنة، وقد أنكر الرسول الكريم على أم العلاء الأنصارية، حين

قالت لعثمان بن مظعون ـ بعد موته ـ وقد كان من السابقين الأولين الذين أوذوا في سبيل الإسلام: أشهد عليك أبا السائب، لقد أكرمك الله! فقال: "من هذه المتألية على الله؟ وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل الله بي؟ وبهذا زجرها عن الجزم بمصاير البشر، ولا يدري أحد بما ختم له؟

ولكن الذين يقولون مثل هذه الأقوال، لا يقولونها على سبيل الجزم واليقين، ولكن من باب التفاؤل، وتحسين الظن بالله تعالى، بالمسلم المستور الحال، أو الظاهر الصلاح، لهذا جرت عادة الناس أن يقولوا: المرحوم فلان، والمغفور له فلان. يعنون: المرجو له الرحمه، والمرجو له المغفرة، وإن كان المتحرّون يقولون: المرحوم إن شاء الله، والمغفور له إن شاء الله!

وبعد المشاركة في المسيرة عدت إلى الخليل، لأتهيأ لخطبة الجمعة القادمة، وأذكر أنها كانت في مسجد الخليل إبراهيم، الذي يسميه الخليليون: (الحرم الإبراهيمي)! وقد رأينا أنه لا يجوز أن نقول: (الحرم القدسي) مع ما ورد في القدس ومسجدها الأقصى من نصوص شرعية، فكيف يجوز أن نقول: الحرم الإبراهيمي؟

وفي مصر، أرى بعض الناس يقولون عن مسجد الحسين في القاهرة وما حوله: الحرم الحسيني، وعن مسجد السيدة زينب وما حوله: الحرم الزينبي. وهذا توسع في استخدام كلمة (الحرم) وهي لها مدلول ديني معين لا ينبغي التوسع فيه.

إلا أن يكون المقصود بكلمة (الحرم): المعنى اللغوي للكلمة، فيقال: حرم الشيء وحريمه: ما يحيط به ويتصل به، ولهذا غدا من الكلمات الشائعة في المحيط الجامعي أن يقال: (الحرم الجامعي) ويقصد به الكليات الجامعية وما يتصل بها من إدارات ومراكز ومساكن وغيرها.

ولكن يلاحظ: أن استعمال الكلمة في هذا المجال لا يوحي بأي مدلول ديني خاص.

المهم أني ألقيت خطبة بعد إعدام سيد قطب خطبة شهيرة، هيجت الأشجان، وأثارت الأحزان، وأبكت الأعين الجامدة، وأشعلت النيران الخامدة، وحركت العزائم الهامدة، ذكرت فيها مآثر الشهيد على العلم والأدب والدعوة والفكر، وكيف وقف صلبا لم تنحن له هامة، ولم تطأطئ له قامة، وكيف قدم عنقه ودمه فداء لفكرته وعقيدته.

وفي مثل هذه الخطب التي تثير الشجون، يذكر المرء ما شابهها من المآسي والنوازل. ويبكي فيها شهداء آخرين سلكوا نفس الدرب، ولقوا مثل هذا المصير.

فلا عجب أن بكينا على سيد قطب، وبكينا معه على حسن البنا، وعلى عبد القادر عودة، وعلى محمد فرغلي، وعلى يوسف طلعت، وإبراهيم الطيب وآخرين من شهداء الأمة الأبرار. وهكذا كلما سقط شهيد، ذكرنا بإخوانه من الشهداء السابقين.

وقالوا: أتبكي كل قبر رأيته   لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فقلت لهم: إن الأسى يبعث الأسى   دعوني فهذا كله قبر مالك!

وقفة مع الشهيد سيد قطب:

لا يشك دارس منصف، ولا راصد عدل، في أن سيد قطب مسلم عظيم، وداعية كبير، وكاتب قدير، ومفكر متميز، وأنه رجل تجرد لدينه من كل شائبة، وأسلم وجهه لله وحده، وجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له. ولا شك في إخلاص سيد قطب لفكرته التي آمن بها، ولا يشك في حماسه لها، وفنائه فيها، وأنه وضع رأسه على كفه، وقدم روحه رخيصة من أجلها.

ولا ريب أنه قضى سنوات عمره الأخيرة ـ وهو في السجن ـ يجلّي الفكرة، ويشرحها بقلمه المبدع، وبيانه العذب، وأسلوبه الأخاذ. كما لا ريب أن كتبه تعطي قارئها شحنة روحية وعاطفية دافقة ودافئة ودافعة، توقظه من رقود، وتحركه من سكون، لما فيها من حرارة وإخلاص.

وهذه الفكرة هي التي انتهى إليها تطوره الفكري والعلمي، بعد مسيرة حافلة بالعطاء، في مجال الأدب والنقد، وفي مجال الدعوة والفكر.

ولا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب: أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذي انتهى إليه.

مرحلة الأدب والنقد:

أول ما ظهر سيد قطب، ظهر أديبا شاعرا، ثم ناقدا أديبا.

كان شاعرا رقيقا مرهف الحس، دافق العاطفة، يحسبه الناقدون على (الاتجاه الرومانسي) في الشعر، وعده د. محمد مندور في جماعة (أبولّو) ذات الاتجاهات الرومانسية المعروفة.

ومن المعروف أنه كان في أدبه النثري محسوبا على (مدرسة العقاد) وكان العقاد يمثل (المدرسة الليبرالية) والفكر الحر، ولم يكن قد ظهر توجهه الإسلامي الذي اتضح في كتاباته الأخيرة.

وكان الذي يمثل (المدرسة الإسلامية) في الأدب هو مصطفى صادق الرافعي. وكان بين الاتجاهين أو المدرستين صراع دامٍ، سلاحه القلم، وميدانه المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة وغيرهما، والكتب الأدبية، وقد هاجم الرافعي العقاد في مقالات نشرت بعد ذلك في كتاب سماه (على السفّود).

لم يكن سيد قطب في هذه المرحلة قد عرف بتوجه إسلامي واضح، رغم أنه خريج (دار العلوم) وقد عاصر حسن البنا، وإن لم يتعرف عليه وعلى دعوته إلا بعد استشهاده.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) واقعة عن سيد قطب في هذه المرحلة، لا زلت في شك من أمرها، وهو: أنه كتب مقالة في الأهرام تدافع عن (العرْي) وأنه من الحرية الشخصية للإنسان، على غرار ما يكتبه دعاة الإباحية، وهذا نفس غريب على مسيرة سيد قطب، فلم يكن الرجل ـ على ما أعلم ـ في أي فترة من حياته من دعاة التحلل. وأرجو من إخواننا من شباب الباحثين أن يحققوا ويبحثوا في مدى صدق هذه الواقعة.

وقد توج هذه المرحلة من مراحل مسيرته: عملان كبيران من الأعمال الأدبية الأصيلة التي لم يقلد سيد قطب فيها أحدا، بل كان فيها نسيج وحده.

أولهما: كتابه عن (أصول النقد الأدبي) وهو ـ باعتراف مؤرخي الأدب العربي ـ عمل متميز، وإن لم يأخذ حقه من الظهور، ربما

كان سبب ذلك هو تحول صاحبه إلى الدعوة الإسلامية، وأمسى محسوبا على عالم الدعاة، لا على عالم الأدباء والنقاد.

وثانيهما: عمله الأصيل المتميز في خدمة القرآن، وإعجازه البياني، بمنهج لم يسبق له نظير، وهذا العمل يتمثل في كتابيه الرائعين:

أ- التصوير الفني في القرآن.

ب - مشاهد القيامة في القرآن.

والكتاب الأول يجسد النظرية، والثاني بمثابة التطبيق لها.

وهذان الكتابان يمثلان تمهيدا أو همزة وصل للمرحلة القادمة، مرحلة الدعوة إلى الإسلام.

مرحلة الدعوة الإسلامية:

والمرحلة الثانية في حياة سيد قطب، هي مرحلة الدعوة إلى الإسلام، بوصفه عقيدة ونظاما للحياة، يقيم العدالة الاجتماعية في الأرض، ويرفع التظالم بين الناس، ويرعى حقوق الفقراء والمستضعفين، بوسيلتين أساسيتين، هما: التشريع القانوني، والتوجيه الأخلاقي.

وكان هذا التطور له مقدمات وعلامات، منها: اهتمامه بقضية المظالم الاجتماعية في مصر، وسيطرة الإقطاع المتجبر في الأرياف، والرأسمالية الاحتكارية المستغلة في المدن، على الاقتصاد المصري، وضياع الفلاحين والعمال - وهم جل المصريين - بين تجبر أولئك وتسلط هؤلاء.

وقد بدا هذا التوجه واضحا في مشاركته في مجلة (الفكر الجديد) التي كانت تعنى بهذا الجانب الاجتماعي، والتي لم تدم طويلا، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الثاني من هذه المسيرة.

ولعل كتابيه السالفين في خدمة البيان القرآني، قد مهدا له الطريق، ليطل على (المضامين) الإصلاحية العظيمة، التي اشتمل عليها القرآن، وإن كانت دراسته أساسا تهتم بالشكل والأسلوب.

ظهر أول كتاب له في هذه المرحلة، وهو: كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) الذي عرض الموضوع بطريقة منهجية، بين فيها أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام، وإن كان الشيخ الغزالي رحمه الله له فضل السبق بتناول هذه الموضوعات، في مقالاته التي كان ينشرها في مجلة الإخوان المسلمين، ثم جمعها في كتبه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) (الإسلام والمناهج الاشتراكية) (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) ولكن هذه الكتب لم تكتب بالطريقة المنهجية التي كتب بها سيد قطب، لأنها في الأصل مقالات، تجلّي جوانب مهمة في هذا الجانب الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام.

ولا شك أن الشهيد سيد قطب قد استفاد من كتب الغزالي، وإن لم ينقل منها بالحرف، وإنما اقتبس كثيرا من الأفكار. ولهذا جعل من مصادره في الطبعة الأولى للكتاب: (الإسلام والأوضاع) و(الإسلام والمناهج). ثم حذفا بعد ذلك مع قائمة المصادر كلها.

استقبلت الأوساط الإسلامية كتاب (العدالة) بالحفاوة والترحيب، باعتباره أول مولود لسيد قطب في عهده الجديد، واستبشروا بأن التيار الإسلامي، قد كسب كاتبا له وزنه الأدبي، وقلمه البليغ، فهو

يعتبر إضافة لها قيمتها إلى هذا التيار، تعوض الخسارة التي لحقت به بانضمام الشيخ خالد محمد خالد إلى التيار العلماني، فكأن عدالة الأقدار عوضت عن خالد بسيد، وعن كتاب (من هنا نبدأ) بكتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام).

وغمرت الإخوان خاصة فرحة بهذا القلم الجديد، الذي انضم إلى القافلة الإسلامية، وكأنه كان مكافأة لهم بعد خروجهم من معتقلات الطور و(هايكستب) وسقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي قاتلة حسن البنا، وصاحب التاريخ الأسود، والعسكري الأسود**!**

ولم يكتف سيد قطب بهذا الكتاب بل أتبعه بكتب أخرى: (معركة الإسلام والرأسمالية) و(السلام العالمي والإسلام) ومقالات عدة كتبها في مجلة (الدعوة) التي يصدرها الإخوان، ومجلة (الاشتراكية) التي يصدرها حزب العمل، ومجلة (اللواء) التي يصدرها الحزب الوطني، ولكن هذه المقالات كانت كلها (تحت راية الإسلام). وهي التي جمعت بعد ذلك تحت عنوان (دراسات إسلامية).

وفي هذه الفترة بدأ يكتب تفسيره الشهير الذي لم يسمه تفسيرا، ولكنه رضي أن يسميه (في ظلال القرآن) وصدق في تسميته، فلم يكن في طبعته الأولى يحل الطابع الرسمي للتفسير، ولكنها وقفات عقل متدبر، وقلب حي، ووجدان مرهف: أمام القرآن، يلتمس عظاته، ويجلّي إعجازه، ويبين حقائقه، وينبه على مقاصده. وإن تغير ذلك في الأجزاء الأخيرة، وفي الطبعة الثانية للأجزاء الأولى، فقد بدأ يهتم بالجانب التفسيري، حتى أحسب أنه أفرغ خلاصة تفسير ابن كثير في (ظلاله).

ومنها: مقال عن (حسن البنا وعبقرية البناء). نقلت خلاصته في كتابي (الإخوان المسلمون: سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد).

وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق، وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالا وأحلاما، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

كأني من ليلى الغداة كقابض   على الماء خانته فروج الأصابع

وأحيل القارئ إلى ما ذكرته في الجزء السابق عن سيد قطب وانضمامه إلى الإخوان، وتسلمه رئاسة قسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئاسة تحرير مجلتهم، إلى أن دخل معهم في محاكمات محكمة الشعب وحكم عليه بعشر سنوات.

مرحلة الثورة الإسلامية:

وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها (مرحلة الثورة الإسلامية)

الثورة على كل (الحكومات الإسلامية)، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل (المجتمعات الإسلامية) أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب: أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكوّن هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة، لأنهم (أسقطوا حاكمية الله تعالى) ورضوا بغيره حكما، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟

بل الواقع عنده: أنهم لم يدخلوا الإسلام قط حتى يحكم عليهم بالردة، إن دخول الإسلام إنما هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة، لم يفهموا أن (لا إله إلا الله) منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعتبرهم الناس أهل العلم والحضارة.

أقول: تكوّن هذا الفكر الثوري الرافض، في داخل السجن، وخصوصا بعد أن أعلنت مصر وزعيمها عبدا لناصر، عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر (الميثاق) الذي سماه بعضهم (قرآن الثورة)! وبعد الاقتراب

المصري السوفيتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي.

هنالك رأى سيد قطب: أن الكفر قد كشف اللثام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفيه بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

هنالك رأي أن يخوض المعركة وحده، راكبا أو راجلا، حاملا سيفه (ولا سيف له غير القلم) لقتال خصومه، وما أكثرهم. سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام!

وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر: أخالفه في جملة توجهاته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد: سيد قطب القديم.. وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض: سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب (العدالة): سيد قطب صاحب (المعالم).

ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع، كتبت ما كتبت وناقشت ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والإعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممّن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويرد عليه. وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توافرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرا واحدا، كما في الحديث الشريف، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو: ركونه إلى فكرة (التكفير) والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من (الظلال) ومما أفرغه في كتابه (معالم في الطريق): أن المجتمعات كلها قد أصبحت (جاهلية). وهو لا يقصد بـ (الجاهلية) جاهلية العمل والسلوك فقط، بل (جاهلية العقيدة) إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترض بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم: الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه (العقيدة أوّلا) حتى يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالشريعة حاكمة.

وهذا ما أشار إليه في كتابه (المعالم) وفصله في كتاب (الإسلام ومشكلات الحضارة). وشبه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد

الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد.

كما رأى عليه رحمة الله: أن لا معنى لما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما سموه (تطوير) الفقه الإسلامي أو (تجديده) أو (إحياء الاجتهاد) فيه. إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولا، ثم نجتهد له في حل مشاكله في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت أفكاره عن (الاجتهاد) وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي: في كتابي (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه.

وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية (الاجتهاد): ناقشته في رأيه في (الجهاد) وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون.

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة، وما سماه بعضهم (آية السيف) ولم يبال بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم، وقصر القتال على من يقاتلنا، وكف أيدنا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا، ومد يده لمسالمتنا، ودعوتنا إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا.

هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله مثل قوله تعالى:

(وقاتلوا في سبيل الله الذي يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) البقرة: 190،191.

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) النساء: 90.

(فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) النساء: 91.

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) الأنفال: 61.

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة: 8.

والأستاذ سيد رحمه الله يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة: أن هذه كان معمولا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف الأخير. وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم في هذه الآيات: نسختها آية السيف.

ولا أدري كيف هان على سيد قطب ـ وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددا يتأمله ويتدبره ويفسره ـ أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن، بآية زعموها آية السيف؟ وما معنى بقائها في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟!

ويقول الشهيد رحمه الله: إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعشوا في ظله، وينعموا بعدله.

ولكن بماذا نجيب الناس: إذا قالوا لنا: إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟ إن كل شيء يجرّعه الإنسان تجريعا رغم أنفه: يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفى!

وما الحكم إذا كنا نحن ـ اليهود أو النصارى أو الوثنيين ـ أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العدة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟

ومما ننكره على الأستاذ سيد رحمه الله: أنه يتهم معارضيه من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية: أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر! مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود ، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى ، ومحمد البهي، وحسن

البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، ومحمد فتحي عثمان، وغيرهم من شيوخ العلم الديني.

هذا فضلا عن الكتاب والمفكرين (المدنيين) الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، ومحمود شيت خطاب، وعبد الرحمن عزام، وجمال الدين محفوظ، ومحمد فرج، وغيرهم وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين.

على أيّة حال، كانت هذه هي الأفكار المحورية في هذه المرحلة من حياة سيد قطب، وفيها عدل من أفكاره واتجاهه تعديلا جذريا، وأصبح ما كتبه قديما في (العدالة الاجتماعية) وغيرها، يمثل مرحلة من حياته، ولا يمثل الخط الأخير الذي يتبناه ويدعو إليه، ويدافع عنه.

وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري: أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب ـ وكان معه معتقلا في محنة 1965م ـ أخبره أن الأستاذ سيدا عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك.

قال سيد رحمه الله: نعم، غيرت كما غير الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول!

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره. فهو تغيير أصولي أو (استراتيجي) كما يقولون اليوم.

وهو على كل حال: مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه. وأشهد أن الرجل في المرحلة الأخيرة من حياته، كان كله للإسلام، عاش للإسلام، ومات في سبيل الإسلام! فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس مثواه، وغفر له ما نحسب أنه أخطأ فيه، وأجره عليه أجر المجتهدين الصادقين. وغفر لنا معه أجمعين (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم) الحشر: .

تحامل على سيد قطب في فكرة الحاكمية:

ولقد اتهم بعض الكاتبين سيد قطب بأنه تبنى فكرة (الحاكمية) التي أخذها عن المودودي، وجعلها من صلب عقيدة التوحيد، ورتب عليها أحكاما خطيرة، منها: أن الدولة التي تقوم على أساسها: أشبه ما تكون بالدولة الدينية، التي تقوم على الحكم بالحق الإلهي. وهذا تحامل ظالم على الرجل.

والحق أن فكرة الحاكمية أساء فهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يرده أصحابها. وأود أن أنبه هنا على جمل ملاحظات حول هذه القضية:

1ـ الملاحظة الأولى: أن الحاكمية التي ركز عليها سيد قطب والمودودي، هي: الحاكمية بالمعنى التشريعي، ومفهومها: أن الله سبحانه هو المشرِّع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، وهذا ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب، بل هو أمر مقرر عند المسلمين جمعيا. ولهذا حين قال الخوارج لعليّ: لا حكم إلا لله: لم يعترض علي رضي الله عنه على المبدأ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلوة. فقال ردا عليهم: "كلمة حق يراد بها باطل".

وقد بحث في هذه القضية علماء (أصول الفقه) في مقدماتهم الأصولية التي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه.

فها نحن نجد إماما ثل أبي حامد الغزالي يقول في مقدمات كتابه الشهير (المستصفى من علم الأصول) عن (الحكم) الذي هو أول مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلق بالحاكم، وهو الشارع، وبالمحكوم عليه، وهو المكلف، وبالمحكوم فيه، وهو فعل المكلف...

ثم يقول: "وفي البحث عن الحاكم يتبين: أن "لا حُكم إلا لله" وأن لا حكم للرسول، ولا للسيد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره".

ثم يعود إلى الحديث عن (الحاكم) وهو صاحب الخطاب الموجه إلى المكلفين، فيقول: "أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له، أما النبي صلى الله عليه وسلم، والسلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولولا ذلك لكان كل

مخلوق أوجب على غيره شيئا كان للموجَب عليه أن يقلب عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذن الواجب طاعة الله تعالى، وطاعة من أوجب الله تعالى طاعته".

وبهذا نعلم أن فكرة (الحاكمية) ليست من اختراع سيد قطب ولا المودودي،بل هي فكرة إسلامية أصيلة، قررها علماء الأصول، واتفق عليه أهل السنة والمعتزلة جميعا.

2ـ الملاحظة الثانية: أن (الحاكمية) التي قال بها المودودي وقطب، وجعلاها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء، يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فحسب، أما سند السلطة السياسية فمرجعه إلى الأمة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم وتراقبهم، بل تعتزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهم ومضلل، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد، بحق.

فليس معنى الحاكمية الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه كل من سيد قطب والمودودي رحمهما الله.

وحسبي هنا أن أذكر قول سيد قطب في (معالمه):

"ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم (الثيوقراطية) أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة".

3ـ الملاحظة الثالثة: أن الحاكمية التشريعية التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، ونادى بها المودودي وقطب، هي:

الحاكمية (العليا) و(المطلقة) التي لا يحدها ولا يقيدها شيء، فهي من دلائل وحدانية الألوهية. بل من مقومات التوحيد، كما بين القرآن في قوله تعالى: (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا) الأنعام: .

وهذه الحاكمية ـ بهذا المعنى ـ لا تنفي أن يكون للبشر قَدْر من التشريع أذن به الله لهم. إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات، والتشريع الذي يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط ما فرض الله. أما التشريع فيما لا نص فيه، أو في المصالح المرسلة، وفيما للاجتهاد فيه نصيب، فهذا من حق المسلمين، ولهذا كانت نصوص الدين في غالب الأمر كلية إجمالية لا تفصيلية، ليتاح للناس أن يشرعوا لأنفسهم، ويملأوا الفراغ التشريعي بما يناسبهم.

محاضرة في القدس:

نعود إلى (ابن القرية والكتاب) لنكمل معه المسيرة.

فبعد قضاء أكثر من شهرين في مدينة الخليل الجميلة، الحافلة بكل المعاني الخيرة، والمشاعر النبيلة، وبعد أن امتلأنا من هوائها، وشبعنا من غذائها، وارتوينا من مائها، ونعمنا بفواكهها، واستمتعنا بصداقة أهلها، وعشرتهم الطيبة، طفقنا نعد العدة للعودة إلى الدوحة، وهذا يستلزم أن نقوم بجولة في مدن الضفة الشرقية، كما تجولنا في مدن الضفة الغربية، ومنها (عمّان) عاصمة المملكة الأردنية.

وفعلا حزمنا أمتعتنا، وحملنا حقائبنا، لنذهب إلى عمان، منها ننطلق إلى مدن الضفة الشرقية.

ولكن قبل أن نذهب إلى عمان: هيأ إخوتنا في القدس محاضرة عامة دعوا إليها جمّا غفيرا من الناس، وكان ممن حضرها العالمان الكبيران: سماحة الشيخ عبد الحميد السايح، وسماحة الشيخ عبد الله غوشة. وكنت تعرفت على الشيخ غوشة في زيارتي الأولى للقدس سنة 1952. أما الشيخ السايح فهذه أول مرة ألقاه فيها، وقد تعدد لقائي بالشيخ فيما بعد في مؤتمرات المصارف الإسلامية وغيرها، كما تعدد لقائي بالشيخ غوشة في جلسات المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث كنا عضوين فيه.

الحاج راضي السلايمة:

وزرنا في مدينة القدس الأخ الصالح، بركة القدس، الحاج راضي السلايمة رحمه الله، وكنا عرفناه في الروضة في القاهرة، وقد عاد إلى القدس موطنه الأصلي، واستضافنا عنده، وغمرنا بكرمه وفضله، رحمة الله عليه.

والحاج راضي السلايمة تاجر صدوق، أحسبه من الذين قال الله فيهم: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) النور: .

التزم الحاج راضي في تجارته ثلاث خصال أساسية لا يحيد عنها، ولا يتساهل فيها مع نفسه:

1- أن يتجنب الحلف والأيمان، فلا يحلف على سلعة، ولا على ثمن، بائعا كان أو مشتريا. وعرف الناس عنه ذلك، فلا يجرؤ أحد

أن يطلب منه اليمين على صدقه. بل كلمته مصدّقة عند زبائنه جميعا.

2ـ ألا يتعامل مع البنوك، وكانت كل البنوك في ذلك الوقت ربوية، ومعنى هذا: أنه أراد أن يقي نفسه رجس الربا، فلا يأخذه ولا يعطيه، ولا يتوسع في تجارته، فيحتاج إلى البنك. ولكن على قدر لحافه يمد رجليه.

3ـ ألا يستلف من أحد قليلا ولا كثيرا، لما علم من خطورة الدين في الإسلام، وأن الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين، فلم يرد أن يورط نفسه في دين لعله لا يمكنه الوفاء به، والوقاية خير من العلاج.

بهذه المبادئ الثلاثة التزم الحاج راضي، وطبقها على نفسه تطبيقا كاملا طوال حياته، فكان مثالا للتجار الأبرار الأمناء، الذين يحشرهم الله مع النبيين والشهداء.

إلى العاصمة عمّان:

بعد أن أقمنا في القدس يومين أو ثلاثة ـ لا أذكر ـ عزمنا على الرحيل إلى العاصمة عمان، التي زرتها منذ عشرين سنة 1952م، لننزل ضيوفا ـ أنا والعائلة ـ على الأخ الكريم أبي زياد حجازي التميمي، الذي عرفته منذ زمن في القاهرة، حيث هو شريك الصديق الفاضل الحاج شبل سعودي في بقالة الزمالك، المجاورة لجامع الزمالك، وكوبري الزمالك.

وقد تعرفت عليه منذ كنت أخطب الجمعة في الزمالك سنة 1956م، 1957م، وإن كانت صلتي بآل سعودي أسبق من ذلك:

الحاج محمد سعودي، والحاج شبل، والحاج عبد الرزاق، والأستاذ عبد الحميد، والدكتور عبد المنعم، وأولادهم من بعدهم، بارك الله فيهم.

ولإخواننا (الخلايلة) وجود قديم في مصر في عالم التجارة، وخصوصا (البقالات) والمصريون يسمونهم (الشاميين) يقولون: اشتر من بقالة عمك فلان الشامي. ذلك لأن كلمة (الشام) في مصر تعني: فلسطين والأردن وسورية ولبنان جميعا، بما فيها (الكيان المغتصب) الدخيل على المنطقة الذي سرق الوطن جهارا من أهله، وشردهم في الأرض.

ولهذا كان الأخ أبو زياد التميمي ـ نسبة إلى تميم الداري الصحابي المعروف، لا إلى بني تميم ـ من التجار القدامى في مصر، وكانت صلتي به وثيقة لصلتي بآل سعود. وقد دعاني إلى بيته أكثر من مرة، وفي إحدى المرات جمعني بزوج أخته الداعية الثائر المجاهد الشيخ أسعد بيوض التميمي، الذي التقيت به سنة 1952م. لذا أصر على أكون ضيفه في شقته في عمان، لا سيما أني سأترك أولادي في عمان، ثم أنطلق إلى المدن الأخرى تاركا الأولاد غالبا في مستقرهم.

استأجرنا سيارة صغيرة (تاكسي) لتنقلنا من القدس إلى عمان، كما فعلنا من قبل في زيارة مدن الضفة الغربية، وقد كانت أسرتي لا تزال صغيرة، فتكفينا سيارة واحدة، تحملني أنا وزوجتي وبناتي الأربع الصغيرات.

وكانت طبيعة فلسطين والأردن، مثل طبيعة لبنان، فكلها جبال، تحتاج من سائق السيارة أن يكون ماهرا في قيادتها، فأحيانا نكون في قمة الوادي، ثم ترى قمة الجبل الشاهقة، ومطلوب منا أن نصعد إليها، فنحن بين صعود ونزول ومنعطفات خطرة، كأنها دائرة

حلزونية، ولسنا نسير في أرض سهلة مستوية منبسطة كأرض مصر التي عهدناها من قبل، وأرض قطر التي عرفناها من بعد. وهذه معارف نكسبها بالممارسة لا بالقراءة، ويكسبها أولادي معي، فتتسع مداركهم، وتثري أفكارُهم.

وصلنا إلى عمّان، وبقيت بها أياما، ألقيت فيها محاضرة في (دار الإخوان)، ومحاضرة في أحد المساجد لا أذكره، ثم دعيت إلى محاضرة في مدينة (الصلت).

ثم دعيت للسفر إلى مدينة (إربد) وقد كنت زرتها سنة 1952 وألقيت محاضرة هامة فيها في دار (السينما) بها. ولا مانع أن يلقي الداعية محاضرة في دار سينما، فإن الحرام لا يحرم الحلال، والخبيث لا يطرد الطيب، بل ينبغي أن يطرد الطيب الخبيث.

ألقيت محاضرة عامة في (إربد) ثم دعاني الإخوة إلى حضور معسكر لمدة ثلاثة أيام في المدرسة الإسلامية هناك.

وأذكر أني ألقيت فيهم محاضرة عن (مشكلة الفقر في الإسلام) وذلك قبل أن أنشر كتابي حول هذا الموضوع.

كما أذكر أني شرحت للإخوة: (الأصول العشرين) للإمام الشهيد حسن البنا، في عدة جلسات، شرحا مركزا، موصولا بالأدلة المعتبرة، ومستندا إلى أصول الفقه، وأصول الدين، وقد ظل الإخوة يذكرونني بها كلما لقوني.

صيفية مثمرة وممتعة:

والحق أن هذه الإجازة الصيفية، كانت ـ بكل المقاييس ـ إجازة ممتعة ومثمرة في الوقت نفسه.

استمتعنا فيها أنا والأسرة بدنيا ونفسيا وروحيا، ولم نحس فيها بالغربة، فقد كانت نفحات (الجو الإسلامي) تهب علينا من يمين وشمال، فتبعث فينا الحيوية، وتوقظ فينا روح الحياة، وحياة الروح، وتدفعنا إلى النشاط بهمة لا تعرف الكلل، وعزيمة لا تركن إلى الكسل.

كما كانت هذه الصيفية مثمرة بالنسبة لي، فقد ألقيت فيها عددا من الخطب والدروس والمحاضرات في مدن شتى، ولا سيما في (الخليل). كما التقيت في جلسات خاصة عددا من الإخوة، تربطني بهم رابطة الدعوة والعمل المشترك لنصرة الإسلام.

ولذا اتفقت مع الإخوة في الخليل: أن يكون مصيفنا القادم عندهم، إن شاء الله، بل الإجازات القادمة ستكون عندهم، إلا أن يأذن ربي، بأن تفتح لنا أبواب مصر من جديد، ويقال لنا ما قيل ليعقوب وإخوة يوسف: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

وإن كان قدر الله لم يحقق لنا هذا الأمل، فقد حدثت نكبة حزيران (يونيو) 1967، واحتلت القدس والضفة الغربية، وأمست كلها في قبضة إسرائيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وسنعرض لذلك في حينه إن شاء الله.

العودة من عمّان إلى قطر:

وكان لا بد أن تنقضي الإجازة الصيفية، كما تنقضي كل الأيام، حلوة كانت أم مُرّة، وإن كان مما جربه الناس من قديم: أن الأيام الحلوة تنقضي بسرعة كأنها سحابة صيف، أو زيارة طيف! والأيام المرة والشديدة تسير في بطء السلحفاة، لا تكاد تتحرك، وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء قديما، فقال:

وأيام الهموم مقصّصات   وأيام السرور تطير طيرا!

يريد: أن أيام الهموم والأحزان كأنها مقصوصة الجناح غير قادرة على النهوض والطيران. أما أيام السرور فهي تطير طيرا بكامل أجنحتها وقدرتها.

وقال شاعر آخر:

مرت سنينٌ بالوصال وبالهنافكأنها من قصرها أيام

ثم انثنت أيام الهجر بعدها   فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام!

ركبنا من مطار القدس على ما أذكر، فقد كانت الطائرات تأتي من الدوحة إلى القدس. ثم من القدس إلى الدوحة. وقد كنا ـ من اللهفة والسرعة ـ نسينا حقيبة يد (هاند باك) في مطار القدس، فيها بعض المشتريات والهدايا، فأرسلوها إلينا بعد ذلك مشكورين.

وعاد معنا إخواننا الذين جاؤوا معنا من قطر: الشيخ على جماز، والشيخ العوضي وأسرتهما. أما الأخ سعد مرزوق، فقد عاد قبلنا، لأن إجازة الإداريين أقل من إجازة المدرسين.

السنة الدراسية (1966-1967)

عدنا إلى قطر بعد قضاء الإجازة في (الخليل) وباشرت عملي المعتاد في إدارة المعهد الديني، والمشاركة في النشاط الديني والثقافي العام في قطر.

ومضت الأيام تجري في أعنتها، يصبح الصباح، ويمسي المساء، وتشرق الشمس وتغرب، ويعمل الليل والنهار في عمر الإنسان لا يتوقفان، يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد.

لا أذكر في أشهر السنة الدراسية الأولى حدثا مهما يستحق التسجيل، إنما وقعت الأحداث المهمة ـ بل الشديدة الأهمية ـ في أواخر العام الدراسي.

حادث التسمم في الدوحة:

أول حدث وقع في الدوحة في أواخر شهر مايو 1967: إصابة عدد كبير من الناس بتسمم، أدخل منه كثيرون إلى المستشفى الوحيد في الدوحة، وهو مستشفى الرميلة، حتى ضاق بالناس، وتوفي أحد المدرسين المصريين ـ وهو مدرس علوم ـ في هذا التسمم. وفزع الناس من هذا الأمر غاية الفزع.

وقيل: إن سببه أن الدقيق ـ أو الطحين ـ في أحد مخابز الدوحة، كان غير سليم، وقد أصابه تلوث أو تعفن، لا أدري من أين جاء؟

وقيل غير ذلك.

د. عز الدين يودع معارف قطر

وكان أخونا وصديقنا الدكتور عز الدين إبراهيم مساعد مدير المعارف، قد قدم استقالته من منصبه، وأراد أن يستقل بالعمل العلمي الجامعي الأكاديمي، ويستريح من العمل الإداري. وحق له ذلك، فعز الدين من العقليات النادرة التي لا يجوز أن تدفن في الأعمال الإدارية، ويحرم الناس من نتاجها العلمي والفكري. وأعتقد ـ بحكم مخالطتي له ومعرفتي به ـ أن لديه مواهب وقدرات يستطيع بها أن ينتج إنتاجا يكون له وزنه وقيمته في عالم الفكر.

لهذا فرحت بقراره التعاقد مع جامعة (الرياض) على العمل أستاذا للغة العربية والأدب العربي، وشجعته على ذلك. وكنت ناويا أن أقيم له (حفل تكريم) يليق بمقامه بهذه المناسبة، ولكن جاء حادث التسمم، وانشغال الناس، وانزعاجهم في أول الأمر انزعاجا شديدا بخطره عليهم، دون أن يعرفوا له سببا: ما منع من إقامة هذا الحفل في هذا الوقت الذي كان مناسبا له، قبل انتهاء العام الدراسي

نكبة حزيران (يونيو) 1967:

ثم لم يلبث أن وقع حدث آخر أكبر حجما، وأعظم خطرا، وأشد هولا، بآلاف المرات، بل ملايينها، من حادث التسمم.

إنه الزلزال المدمر الذي وقع في المنطقة، فغير من حالها، وقلب موازينها رأسا على عقب، ولا زلنا نعاني آثاره المرة إلى اليوم.

إنه نكبة الخامس من حزيران (يونيو) 1967/6/5م الذي عرف بـ (حرب الأيام الستة). والذي هزمت فيه (إسرائيل) مصر وسورية، هزيمة ثقيلة، واستولت على سيناء في مصر والجولان في سورية،

بضربة خاطفة قاضية، حطمت بها الطيران المصري، بضرب الطيارات وهي رابضة في مطاراتها، فدمرت الطائرات، وخربت المطار، وشلت بذلك سلاح الجو المصري، شللا كليّا، لا شللا نصفيا. وأضحت القوات المصرية في سيناء مكشوفة بلا غطاء جوي، يحميها ويحرسها من الضربات الجوية للعدو المتربص.

استيقظنا في الصباح على هذه القارعة الهائلة، وهذا النبأ المفزع، وأخذنا نتتبع الإذاعات والتلفازات، ونشرات الأخبار، لنعرف المزيد عما حدث.

ولم يكن لقطر في ذلك الوقت إذاعة ولا تليفزيون، فكنا نفتح إذاعة مصر، وتليفزيون مصر، فإذا هما يقولان كلاما، وتقول إذاعة لندن وغيرها كلاما آخر. ثم عرفنا بعد ذلك أن أكثر البيانات التي كانت

تذيعها مصر إنما هي أكاذيب ملفقة، تحاول أن تمسك بها الناس أن يثوروا، فهي تخدعهم بمعسول القول، وأخبار النصر، وإسقاط طائرة في المكان الفلاني، وأخرى في مكان آخر، والناس تصدق هذا الهراء، وتركض من مكان إلى آخر لتبحث عن حطام الطائرة المسقطة، فلا تجد له أثرا، ولا تسمع له خبرا.

حتى قال لي الأستاذ صلاح جلال ـ محرر باب العلوم في (الأهرام) الذي اختير بعد ذلك نقيبا للصحفيين ـ وكان يتردد على قطر بين الحين والحين: إننا كنا ـ ونحن صحفيون في أكبر جريدة في العالم العربي ـ نجهل الحقيقة، فكنا نجري مع عوام الناس في الشوارع نبحث عن الطائرات التي أسقطها جيشنا الباسل، لنكتب عنها شيئا، فنعود بخفي حنين، كما يقول العرب، أو بغير خف أصلا.

وكنا نحن في الخارج أكثر فهما لما وقع من أهلينا وأخوتنا في مصر، لأن لنا مصادر أخرى لمعرفة ما حدث غير الإذاعة والتلفزيون المصريين.

ومن أول ما وقعت الحرب، ارتفع نبض الشارع العربي والإسلامي، واتقدت شعلة الحماس للجهاد في صدور الناس من كل جنس ولون، ونادى جمهور الناس: أن حيّ على الجهاد، لمقاومة الصهاينة، والدفاع عن الأقصى والمقدسات.

واستقبلت منظمة التحرير الفلسطينية بالدوحة آلاف الناس يقفون في طوابير طويلة، يريدون تسجيل أسمائهم في المتطوعين لإنقاذ فلسطين. وكان أكثر هؤلاء حماسا: إخواننا من الباكستانيين والأفغانيين وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية، الذين يعيشون في قطر، قائلين: إن المسجد الأقصى ليس ملك الفلسطينيين ولا العرب وحدهم، بل هو ملك المسلمين جمعيا، فعلينا أن نسهم في تحريره وإبعاد العدو عنه.

وأذكر أننا أقمنا مهرجانا في منظمة التحرير، وكان ممّن تكلم فيه العالم القطري الغيور المعروف الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، فكان مما قاله للشباب الفلسطيني: اعتصموا بحبل الله، وتمسكوا بالدين ينصركم الله على عدوكم.

فما كان من بعض الشباب الطائش، إلا أن صاحوا وهتفوا في وجه الشيخ: لا دين إلا السلاح!

وكان لهذا الهتاف الجاهل الأهوج: أثر سيئ في جمهور الحاضرين، الذين استنكروا هذا القول كل الاستنكار، الذي يدل على غباء قائله، وفقدان وعيه، بحقيقة هذا الصراع بيننا وبين بني صهيون، وأن الدين هو المحرك الأول لهذه الأمة، وهو الذي يبعث

هامدها، ويحرك جامدها، ويشعل خامدها، ويوحد كلمتها، ويصنع بها العجائب، وروائع البطولات، ويعيد إليها أيام خالد وأبي عبيدة وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز.

ولقد قلنا مرارا: إن إخراج الدين من المعركة هو الذي أضر بهذه القضية أبلغ الضرر، لأننا نجرد أنفسنا من أمضى سلاح يحاول عدونا أن يضربنا به. فهو يستغل الدين ويوظفه في تعبئه قواه، وتجنيد رجاله، وهو غير مؤمن به. فكثير من الصهاينة (علمانيون) لا دين لهم، ولكنهم ـ وإن لم يؤمنوا بالدين ـ يؤمنون بقوة الدين، وأهمية توظيف الدين في معركتهم.

وكم نادينا قومنا: إننا يجب أن نحاربهم بمثل السلاح الذي يحاربوننا به، فإذا حاربونا باليهودية، حاربناهم بالإسلام، وإذا قاتلونا بالتوراة، قاتلناهم بالقرآن، وإذا قالوا: التلمود، قلنا: البخاري ومسلم، وإذا قالوا: نعظم السبت، قلنا: نعظم الجمعة، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: المسجد الأقصى.

ولا يفل الحديد إلا الحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم، لأن ديننا أقوى من دينهم، إذ كيف يكون المنسوخ في قوة الناسخ، وكيف يكون المحرف والمبدل في قوة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

كانت الهزيمة ثقيلة، وكان حجم الخسارة ضخما، من الناحية المادية، ومن الناحية المعنوية، وقد اعترف عبد الناصر بعد ذلك في 23 يوليو وفي نوفمبر من نفس العام، بمقدار هول الخسارة وفداحتها، وذكر أعداد المقتولين والمأسورين والمفقودين من الضباط والجنود، وصرح: أن الطريق إلى القاهرة كان مفتوحا أمام إسرائيل. ولم يكن هناك جندي واحد يعوق تقدم إسرائيل لو أرادت.

كما أعلن أرقاما فادحة عن خسارة مصر في هذه المعركة المشؤومة، فذكر: أن مصر خسرت في هذه الحرب 80% من سلاحها، و10.000 جندي و1500 ضابط، وأسر 5000 جندي و500 ضابط لم يعد أكثرهم! هذا حديث عبد الناصر، وقد سمعناه بآذاننا.

وتذكر المراجع أن ضحايا هذه الحرب يبلغون 35.000 جندي قتل أكثرهم في ساعات، وخصوصا في الممرات؛ لأن (شارون) مجرم الحرب الإسرائيلي: كان يسحقهم بالدبابات في الممرات.

أما التدمير الذي حل بمدن القناة، فخسارته أعظم من أن تقدر! وأما التدمير النفسي والمعنوي، فحدث ولا حرج.

هذا وقد أعلن عبد الناصر: أنه يتحمل كامل المسؤولية عما وقع، ولكن هل هناك من سأله، من حاسبه؟

ما معنى المسؤولية إذا لم يكن هناك سائل يسأل، ويحاسب ويعاقب؟

إن الهزائم الكبرى كثيرا ما تسقط دولا، وتغير أنظمة، وهذا عندما تتوافر الحريات، ويملك الناس حق المساءلة والحساب.

حدثت هذه الخسائر كلها، ولكن الشعب المصري لم يكن يعرف شيئا من ذلك، نتيجة التضليل الإعلامي، الذي استحل الكذب الصراح على الشعب، حتى بات غائبا عما يجري على أرضه، وما يدور في ساحة وطنه.

وقد بان أثر ذلك حين فوجئ الشعب بقائد ثورته، ورئيس جمهوريته، في مساء يوم 1967/6/9م يعلن عليهم بصوت حزين: إن مصر قد هزمت في الحرب، وأنه يتحمل كامل المسؤولية، وأنه

قرر التنحي عن منصبه باعتباره رئيسا للجمهورية، وعن كل عمل سياسي، وأنه كلف زكريا محيي الدين أن يتولى مهامه.

كان بيانه يحمل نبرة الأسى والحزن والاعتذار والاستعطاف، ومثل هذه النبرة تؤثر في الشعب المصري الطيب، فما أن انتهى من خطابه، حتى بدأت الجماهير تخرج إلى الشوارع هاتفة بحياة الرئيس المهزوم، ومنادية ببقائه على كرسيه!

وقد اختلف المحللون والمعقبون على هذا الحدث الذي سماه الناصريون: هبّة الجماهير في 9،10 يونيو: أكانت هبة عفوية أم هبة مدبرة من على صبري وجماعة عبد الناصر في الاتحاد الاشتراكي؟

الأستاذ محمد حسنين هيكل يجزم بأنها هبّة جماهيرية تلقائية، ويدلل على ذلك بشواهد يذكرها.

وآخرون من خصوم الناصرية يؤكدون: أن كل شيء كان معدا، وأن رجال المباحث والمخابرات وأعضاء التنظيم الطليعي في الاتحاد الاشتراكي، ومن معهم من مجموعات خاصة، كان عليهم أن يطلقوا الشرارة الأولى، ويرسلوا الصيحة الأولى، ويدعو الجماهير الغافلة بعدها تزحف وتزعق.

وفئة ثالثة توفيقية، تريد أن تجمع بين الرأيين، وتقول: إن بعض هذا العمل كان مدبرا، وبعضه كان تلقائيا، باندفاع ذاتي من الجماهير المصرية الطيبة، التي تتعاطف مع المغلوب، وتناصر المكلوم المحزون، وهكذا ظهر لهم عبد الناصر في بيانه.

بالإضافة إلى أن جمهور الشعب المصري لم يكن لديه أدنى معرفة بحجم الكارثة الهائلة، والهزيمة الساحقة والمذلة التي لحقت ببلده وجيشه. وربما لو عرف الأمر على حقيقته لكان له موقف آخر،

وهو موقف الشعوب الحية حين تطالب بمعرفة من المسؤول عن هذه النازلة أو القارعة؟ ولا بد أن يساءل ويحاكم ويأخذ جزاءه أيا كان موقعه.

بين ناصر وعامر:

ما مدى مسؤولية عبد الناصر عن هذه الكارثة؟ لقد قال في بيانه: إنه يتحمل المسؤولية كاملة، بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة من ناحية، ورئيس الجمهورية من ناحية أخرى.

وقال آخرون: إن المسؤول عن هذه الهزيمة، هو: عبد الحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة، ووزير الحربية شمس بدران أحد رجاله. وقال من قال: إن عبد الناصر لم يكن هو الحاكم الحقيقي لمصر، خلال تلك المدة، فقد كانت مقاليد الأمور كلها ـ عسكرية ومدنية ـ بيد المشير عامر. وأن (ناصر) أصبح (طرطورا) يملك ولا يحكم! ومع هذا نرى أن عبد الناصر هو الذي يتحمل المسؤولية، لأنه هو الذي مكن لعامر، وأرخى له العنان، مع أنه كان السبب الأول في ضياع الوحدة مع سورية.

ولقد انتهز عبد الناصر الفرصة، ليسترد سلطته المسروقة منه، وحاول أن يحمِّل عامرا المسؤولية، وأراد ناصر ألا يضيع الفرصة السانحة ليضرب ضربته، ويتخلص من صديقه القديم الذي أصبح غريمه اليوم.

ووقعت وقائع لا أدخل في تفاصيلها، انتهت بأن قيل: عامر قد انتحر! وشكك في ذلك مشككون قائلين: إنه نُحِر، ولم ينتحر! ولا زال ذلك الجدل دائرا إلى اليوم بين النحر والانتحار.

وأصبح من المشهور والمتداول إلى اليوم: أن الرجل دس له نوع من السم السريع التأثير في كوب عصير الجوافه الذي شربه قبل أن يموت بقليل. ومن المعروف: أن دس السم للمعارضين وقتلهم به: أسلوب معهود ومجاز لدى الثورة ومخابراتها، كما صرح بذلك صلاح نصر في استجواب له، أداره معه المتسشار محمد عبد السلام النائب العام. ونصه:

النائب العام: أنتم عندكم سموم؟

صلاح نصر: نعم عندنا سموم.

النائب العام: في أي شيء تستعملونها؟

صلاح نصر: يعني بنستعملها في إيه؟ بنستعملها في قتل الخونة من أعداء البلاد في الداخل والخارج.

النائب العام: بأمر من تستعملونها؟

صلاح نصر: في المسائل المهمة بأمر رئيس الجمهورية، والمسائل الأقل أهمية بأمري أنا.

النائب العام: هل تتم الأوامر بإجراء شفوي أو مكتوب؟

صلاح نصر: فيه شفوي وفيه مكتوب.

هذا الحوار العجيب كله بملف قضية المشير، ولكن هذا القدر هو ما نقله الأستاذ محمد شوكتي التوني ، ويعلق الدكتور أحمد شلبي: ولا نعرف عدد الذين قتلوا بالسم ولا كيف ثبثت جرمهم ليستحقوا هذا العقاب الذي لا تعرفه شريعة ولا قانون؟.

وعلى كل حال، فكل من النحر والانتحار عندنا جريمة ندينها، وكبيرة من كبائر الإثم ننكرها وهي - أيا كان مرتكبها - جريمة

محسوبة على نظام عبد الناصر، وثورة 23 يوليو، التي قادت البلاد إلى هذه المذلة وهذا الهوان.

من المسؤول عن تجاوزات عامر وانحرافاته؟

وهنا نريد أن نسأل سؤالا جوهريا، وهو من المسؤول عن تجاوزات وانجرافاته الكثيرة والتي أصبحت على كل لسان، ووصلت إلى حد الفساد والطغيان؟ من الذي مكن لعامر، ومنحه من السلطات ما جعل مقدرات مصر العسكرية ـ بل والمدنية ـ بين أصابع يديه يتحكم فيها كيف يشاء هو وأعوانه الذين لم يكن يختارهم على أساس القوة والأمانة (إن خير من استأجرت القوي الأمين) القصص: بل على أساس الولاء له، والاندماج في شلته! وهو ما سبب خسارة الجيش سنة 1956، وضياع الوحدة السورية المصرية 1961، ووقع النكبة الكبرى 1967م.

المسؤول عن هذا كله هو عبد الناصر، الذي أعطى عامر مسؤولية أكبر منه ومن طاقاته بكثير، والتي أثبت فشله فيها، بالإضافة إلى تصرفاته القَبَلية، وانحرافاته الأخلاقية التي زكمت رائحتها الأنوف في أنحاء مصر. وجعلت الناس يشكون إلى جمال من سوء أعمال صاحبه، ولكنه ظل يحميه إلى آخر الأيام. بل كان هناك أشياء لتعيينه قائدا عاما من أول يوم.

يقول الكاتب المعروف الأستاذ أحمد أبو الفتح: (إن تعيين عبد الحكيم عامر (قائدا عاما) نسف تقليدا عسكريا هو احترام الأقدميات، وكان لهذا التعيين أعمق الآثار على النظام، ليس في الجيش وحده، بل في كل أجهزة الدولة.

ومع ما مني به عامر وجيشه من هزيمة 1956 ـ التي حولت كذبا إلى نصر!ـ توالت عليه الألقاب والرتب ـ كما يقول السادات ـ فعين قائدا عاما للجيش السوري والمصري خلال الوحدة، ورُقي إلى رتبة (مشير) وخلع عليه عبد الناصر لقب (نائب رئيس الجمهورية) ثم أصبح بعد ذلك (النائب الأول لرئيس الجمهورية).

يقول الرئيس أنور السادات: "كان لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح، وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة، فهو يساند معاونيه بالحق أو الباطل.

ويقول أيضا: عقب الانفصال قلنا لعبد الناصر: إن عزل عبد الحكيم عامر كان يجب أن يتم سنة 1956، لا في 1961 فقط، لأنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري.

ويقول محمد حنسين هيكل: إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان، ونصف بوهيمي، ولطيفا جدا، ولكنه من الناحية العسكرية توقف عند رتبة صاغ، أي أنه يستطيع أن يقود كتيبة، لكنه لا يستطيع أن يقود جيشا، لقد أصبح عبد الحكيم عامر ضابطا سياسيا، ولكن الضابط السياسي لا يمكن أن يكون مسؤولا عن الجيش.

ويورد الضابط أحمد حمروش مجموعة من الصفات الدقيقة لعبد الحكيم عامر فيقول:

أحاط المشير نفسه بحاشية سرعان ما عرفت فيه أسوأ الصفات، فتمادت في سلوكها اللاأخلاقي، واستغلت أموال الدولة أسوأ استغلال، وكان الذين يقتربون من رجال مكتبه ـ الذين يقودهم الصاغ علي شفيق ـ تأخذهم الدهشة من الجموح الكاشف، في مجال

اللهو والبذخ المبالغ فيه، الأمر الذي أثر تأثيرا شديدا على قمة القيادة العسكرية، وانعكس على بقية مستويات الضباط.

ويستطرد حمروش قائلا:

كانت المتعة الشخصية هي الفلك الذي يعيش فيه عامر، وأصبح ذلك معروفا ومتداولا، وكانت هذه المتعة تشمل تدخين الحشيش، والاتصال ببعض الفنانات، والبذخ، الذي وصل إلى حد السفه، ونتيجة لعلاقة الضباط بالفنانات تزوج المشير من برلنتي عبد الحميد، وعلي شفيق من مها صبري، وعبد المنعم أبو زيد من سهير فخري.

وكانت هناك عصابات في مكتب المشير تشتغل بالتهريب وبخاصة في الأجهزة والآلات والدخان التي كانت تستورد من اليمن، وكانت تلك العصابة بقيادة الصاغ عبد المنعم أبو زيد وقد أدانتهم المحكمة العسكرية.

فكيف سمح عبد الناصر لنفسه أن يحمي رجلا مثل هذا ويسانده، ويجعله الرجل الثاني في الدولة، بل وصل إلى أن أصبح الرجل الأول الحقيقي في الدولة؟

إن كل ما ينسب إلى عامر من فساد وانحراف وطغيان وعبث بالجيش وبالوطن، إنما المسؤول الأول عنه هو عبد الناصر. فلولا سكوت عبد الناصر ما كان طغيان عامر!!

نكسة أو نكبة؟

لقد سمى ناصر وإعلامه هذه الهزيمة المذلة ـ التي خسرنا فيها القدس، والضفة الغربية، وغزة، وسيناء، والجولان ـ (النكسة)! كأنهم كانوا في انتصار دائم، ثم انتكسوا هذه المرة.

والواقع أن هذه تسمية خاطئة، وإنما هي (نكبة كبرى) توازي (النكبة الأولى) سنة 1948م، التي قامت فيها دولة بني صهيون، وشرد الفلسطينيون من ديارهم، وغرس هذا الكيان المعتدي في قلب بلاد العروبة والإسلام، ليكون خنجرا مسموما في صدورهم.

ولذا سميتها (النكبة الثانية) أي بعد نكبة 1948 في كتابي (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيفي ننتصر؟) الذي أصدرته في سنة 1968م، أناقش فيه أسباب النكبة الحقيقية، وطريق النصر الذي يجب أن نسلكه.

بل أقول: إن أثر هذه النكبة كان أعظم خطرا من النكبة الأولى، فقد ظل العرب ـ بعد النكبة الأولى ـ متمسكين بأن فلسطين كلها من النهر إلى البحر: وطنهم المغتصب، وبلدهم المسلوب، وحقهم فيه ثابت لا مراء فيه، وأنهم سيظلون يجاهدون بكل ما لديهم من قوة، لطرد العدو الغاصب، واسترداد الوطن الضائع، وإن طال عليهم الأمد، فإن مضي الزمن لا يسقط الحقوق الثابتة، ولا يبطل حق المواطنين في المطالبة بوطنهم المنهوب.

هكذا كان العرب جميعا في مشارقهم ومغاربهم، ثوريوهم وليبراليوهم، حتى وقعت هذه النكبة، فتغيرت فلسفة العرب، وتغيرت سياستهم، وتغير منطقهم، وتبنى عبد الناصر بعد ذلك سياسة (إزالة آثار العدوان) يعني بذلك: عدوان 1967م، وإعادة الأوضاع إلى ما كان عليه الحال قبل 5 يونيو 1967م.

ومعنى هذا: أن العدوان الجديد ألغى العدوان القديم، بل أضفى الشرعية عليه، أي عدوان 67 أضفى الشرعية على عدوان 48!!

فما أعظم الهول! وما أعظم الفارق بين موقف العرب قبل هذه النكبة المخزية، وبعد هذه النكبة المهينة!

موقف عموم الناس من الهزيمة:

وكان من أعق المواقف، وأصعب المشكلات: موقف كثير من المواطنين من هذه الهزيمة المنكرة، فقد رأينا بعضهم فرح بهذه الهزيمة ـ رغم مرارتها وقسوتها على النفس ـ لأنهم وجدوا فيها باب خلاص لما كانوا يعنونه من ظلم الحكام، وحكم الظُّلام، ومن تسلط الطغاة على الشعب حتى قهروه ومرغوا أنفه في التراب. وحسبك أنهم أركبوا الشيوعيين ظهور الناس، ومكنوهم من ناصية الإعلام والثقافة والتوجيه في البلد، وأنهم أذلوا علماء الدين والدعاة إلى الله، ويكفي مذبحة 1965م، وشنق سيد قطب وإخوانه، وسوق عشرات الألوف إلى السجون بغير جرم اقترفوه.

وقف الناس من هذه الناس مواقف شتى. فبعضهم اعتبرها منحة من الله تعالى، ليرجع الناس إلى ربهم، ويعتصموا بحبله، ويعرفوا أنه وحده الناصر، بعد طغيان الثقافة المادية اللادينية، التي أنست الناس الله، فأنساهم أنفسهم.

رأى بعضهم في هذه الهزيمة أو النكسة درءا لفتنة عارمة، كادت تخلع الناس من إيمانهم، وتفسد عليهم دينهم، حين استسلموا للطاغوت، وأعرضوا عن الله.

كان الداعية الكبير، والمفسر الشهير: الشيخ محمد متولي الشعرواي من هؤلاء، الذي نشرت عنه الصحف: أنه سجد لله شكرا، عندما وقعت الهزيمة!

ولم يكن ذلك، لأنه يؤيد الصهيونية، ويكره وطنه مصر، أو يتمنى له الخذلان، ولكن يبدو أنه رأى الهزيمة الموقتة ـ لإيقاظ الأمة وردها إلى دينها ومرجعيتها وأصولها ـ خير من نصر كاذب يؤدي في النهاية إلى دمار الأمة وهلاكها.

فرأى الشيخ في هذه المصيبة نعمة من وجهة أخرى. وهي إذلال الطاغية المفتون بسلطانه، المغرور بقوته، الذي أصبح صنما معبودا لدى الكثيرين. فعرفته هذه الهزيمة قدره، وألزمته حده، فوقف عنده.

رأى الشيخ الشعراوي أن تحرير الشعب من الفتنة بالطاغوت: أهم من نصر سريع يتحقق في معركة، ثم تعقبه مآسي لا تنتهي، وويلات تجر ويلات إلى ما شاء الله.

وهذا الكلام الصريح من الشيخ الشعراوي: هيج عليه أعشاش (الدبابير) فهاجمته الأقلام المبهورة، والأقلام المأمورة، والأقلام المأجورة. وإن كان الشيخ لم يقل هذا إلا بعد وفاة عبد الناصر، وفي فترة حكم السادات.

على أن الشيخ الشعراوي لم يكن شاذا من بين الناس، فقد كان هذا موقف الكثيرين ممن عانوا ظلم عبد الناصر وزبانيته، وشربوا من كؤوسهم المرة ما شربوا، فاعتبروا هذه الهزيمة ضربة قاصمة لهم، تذلهم كما أذلوا عباد الله، وتقهرهم كما قهروا المستضعفين.

وكم كانت فرحة المسجونين والمعتقلين الذين عذبهم شمس بدران ورجاله، حينما رأوهم يساقون إلى السجن، ويدخلون الزنازين

بجوارهم، غير أنهم كانوا يبكون بكاء الأطفال، ويستجدون العطف استجداء الأنذال، على حين استقبل الإخوان محنتهم استقبال الرجال، وصبروا على الأذى صبر الأبطال، فسبحان مغير الأحوال.

إن شر ما تصاب به الأوطان والمجتمعات: أن تتسع الفجوة، ويتعمق الانفصال بين الشعوب وحكامها، وأن يشتد الضغط والقهر على الجماهير، حتى تتمنى الخلاص منه، ولو على يد أعدائه!

وهذا ما رأيناه أخيرا عند كثيرين من أبناء الشعب العراقي، الذين رحبوا بالاحتلال الأمريكي، من أجل الخلاص من جبروت صدام وطغيانه، والتحرر من نير هذا الحكم الداعر الفاجر القاهر، الذي أفسد البلاد، وأذل العباد، وسفك الدماء، وانتهك الحرمات، ولم يرقب في مؤمن إلاّ ولا ذمة.

أنا لا أؤيد هذا الموقف، ولا أبرره، ولا أرى أن يستبدل الناس بالوطني الفاجر: المحتل الكافر، إذ لا يستبدل شر بشر، ولا ظلم بظلم، فكيف نستبدل شرا بما هو أشر، وظلما بما هو أظلم؟

ربما كانت حجة بعض الناس أو عذرهم: أن الظلم الجديد ظلم عارض ولن يستمر، بخلاف الظلم القديم، فهو ظلم طال عمره، ورسخت أقدامه، وأمسى من المتعذر ـ بل ربما من المستحيل ـ اقتلاعه من جذوره، التي امتدت بطول الزمان في أغوار الأرض.

ومهما يكن من التعليلات والتبريرات، فإن من المصائب الكبيرة في الأمة: أن توجد فيها هذه الظاهرة المؤسفة: الترحيب بهزيمة الوطن سبيلا للخلاص من جبروت الطاغين، وطغيان الجبارين، والترحيب بحكم المحتل ـ ولو إلى حين ـ بديلا لحكم وطني غشوم

ظلوم، كثرت جرائمه، وتتابعت مظالمه، واتسعت بطول الأيام ويلاته ومآثمه.

ولقد ذكرت هذا المعنى ـ انفصال الشعوب عن الحكام ـ في كتابي (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا؟ وكيف ننتصر؟) فكان مما قلته:

(فقد أصبح الحكام في واد والشعوب العربية المسلمة في واد، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعية، وفلسفات علمانية، ويحكمون بقوانين أجنبية عن شريعة الله وهي شريعة الأمة. أما جماهير الشعوب فلا زالت مؤمنة بربها ودينها وقرآنها ومحمدها. وأن كل شر وخسران في الانحراف عن صراط الله، وعن هدي رسول الله.

والحكام مشغولون بتوطيد سلطانهم، وتثبت كراسي حكمهم، باضطهاد كل فرد أو جماعة أو حركة تعارضهم، أو تحاسبهم، أو تقول لهم: لِم؟ وكيف؟ فضلا عن أن تقول: لا، ومن تجرأ وقال: (لا) فمآله السجن أو النفي أو حبل المشنقة. والشعوب مشغولة بهم لقمة العيش، وطلب الحرية والأمن، فإن الأنظمة التي تحكمهم لم تطعمهم من جوع، ولم تؤمنهم من خوف.

فلما سمعت جماهير هذه الشعوب أن هؤلاء الحكام سيحاربون: لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم، فقد عرفوا بفطرتهم وتجربتهم أن هؤلاء الحكام لا يعنيهم حرب اليهود بقدر ما يعنيهم القضاء على المعارضين للحكم. ولما بدأ اليهود بالضرب، وتورط هؤلاء في الحرب، كانت ضمائر هذه الشعوب في حيرة، وألسنتها تتلعثم في الدعاء لهم بالنصر والتمكين. فقد ذاقت على أيديهم من المظالم ما جعلها تخاف من انتصارهم مثل ما تكره من هزيمتهم. ولقد قال وكيل الأزهر (د. محمد عبد الله ماضي) في مؤتمر علماء المسلمين الذي انعقد في رجب الماضي (1388هـ) في كلمته نيابة عن الأزهر:

"إننا لو انتصرنا ـ على ما كان بنا من عيوب وانحراف ـ لازددنا جرأة على محارم الله".

وهذا هو الشعور الذي كان يسود جماهيرنا المسلمة، قبيل وأثناء الحرب. وكفى بهذه الحال تعبيرا عن الفجوة الفسيحة، والهوة العميقة، التي حفرها هؤلاء الحكام بينهم وبين جماهير شعوبهم. وصدق الشاعر:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا!!

مكابرة الأنظمة الثورية بإنكار الهزيمة:

وكان من غرائب التفكير والتحليل: ما سمعناه بعد النكبة من بعض المسؤولين في مصر وسورية: إننا لم ننهزم ولم نخسر المعركة!

قال هؤلاء: إن العدو كان يهدف إلى إسقاط النظام الثوري قبل أن يهدف إلى احتلال الأرض!

فإذا بقي النظام ـ رغم خسارة الحرب وضياع الأرض ـ ولم يسقط، فقد فشل العدو، وعاد مدحورا مخذولا!!

هذا هو المنطق السحري الذي روّحه هؤلاء: أن احتلال الأرض ليس شيئا مهما، وخسارة الأرض ليس لها قيمة كبيرة، إذا بقي النظام الحاكم. وإن كانت هذه الأرض أضعاف مساحة إسرائيل، وإن كان حجم الخسارة ما بين القنطرة في مصر، والقنيطرة في سورية!

فيا عجبا! أليست قضية فلسطين من أساسها قضية أرض احتلها عدو؟ وهل قامت الصهيونية إلا من أجل الأرض؟ وهل الأوطان التي يدافع عنها الناس ويقاتلون عليها إلا أرض؟

وهل صحيح أن الأنظمة الثورية العربية تعاديها إسرائيل وتخاصمها إلى حد إشعال الحرب من أجل إسقاطها؟ وهل الزعماء الثوريون هم (البعبع) الذي تخافه إسرائيل وترهب سطوته؟ وهل في تاريخ الثوريين وموقفهم من قضية فلسطين ما يؤيد هذا المنطق العجيب؟

كلا. فليس هناك أفضل من هؤلاء الثوريين لإسرائيل. فهم في شغل عنها بمحاربة القوى الإسلامية والوطنية المخلصة واضطهادها وكتم أنفاسها. هم في شغل عن تعبئة الأمة بشؤون الحزب، وعن آمال الشعب بمطامع الفئة الحاكمة، وعن قتال إسرائيل بقتال الرجعية المزعومة. فالحزب عندهم فوق الأمة، والحكام (الثوريون طبعا) فوق الشعب. والمذهب فوق الدين، والرجعية أخطر من إسرائيل.

ولا عجب أن قيل في بعضهم: إنهم لم يحاربوا، ولا ينوون أن يحاربوا.

ونقول لهؤلاء الثوريين: ما ذنب النظام الأردني - الرجعي - حتى يُضرب هذه الضربة، ويفقد الضفة الغربية والقدس؟ أم لعل رأيهم تغيَّر في حكم الأردن وملك الأردن؟!

تحليل لأسباب النكبة:

كان وقوع هذه النكبة الكبرى مجالا رحبا لتحليلات المحللين لأسبابها وعواملها، وقد رأينا في ذلك شطحات وعجائب من التحليلات ينبغي أن نرصد أهمها هنا.

الدين هو السبب:

وأعجب ما قرأنا في تعليل الهزيمة: أن سببها هو الدين**!** نعم، الدين**!!**

هكذا كتب الأديب المهجري المعروف (ميخائيل نعيمة) في استفتاء أجرته مجلة (الآداب) البيروتية بعد نكبة حزيران، وسكتت عليه المجلة سكوت المقر المؤيد.

قالت المجلة: ما هو في رأيكم الدرس الأكبر الذي يحسن بالعرب أن يتعلموه من الهزيمة؟

وقال الكاتب الشاعر: "في رأيي أن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء: أن الدنيا لا تُساس بالدين**!** فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد...".

إلى أن قال: "فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تُصان ولا تسترد إلا بالحرب، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح، وأن السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال، فما عليهم إلا أن يتعبدوا للعلم والمال: لعل العلم والمال لا يخذلهم حيث خذلهم ربهم"**!!**

وهذه الكلمات إنما هي خيال شاعر، لا فكرة حكيم. وهو مع هذا خيال متهافت سقيم. والخطورة ـ كما قال الأستاذ محمد المبارك ـ أن يُظن كل أديب كبير، مفكرا كبيرا**!** وليس الأمر كذلك.

إن الشاعر الذي يعيش هناك وراء البحار، يظن العرب هنا يقيمون في زوايا العبادة، بين ليل قائم، ونهار صائم، ناءت رؤوسهم بحمل العمائم، وأيديهم بحمل المسابح. فلما شبّت نار الحرب دخلوها، وسلاحهم التمائم والتعاويذ. وهذا الخيال كله باطل. فالحكومات التي اشتركت في الحرب حكومات عصرية، تعتمد على أحدث الأساليب، في الأسلحة والتدريب، وهي كلها حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة، إن لم يقم بعضها بالفعل باضطهاد الدين والتضييق عليه، وعلى دعاته، وقد كان الدعاة إلى الدين ـ عندما حلت النكبة ـ في سجونها ومعتقلاتها بالألوف وعشرات الألوف.

ولو أن الشاعر المهجري قال: "إن سبب النكبة هو التدين المدخول أو الزائف" لكان له وجه.

ولقد كان الشاعر نزار قباني الذي لم يُعرف باتجاه روحي ـ كميخائيل نعيمة ـ أدنى إلى السداد في تعقيبه على النكبة بقصيدته الشهيرة "هوامش على دفتر النكسة" فقد جاء فيها:

"لا تلعنوا السماء. إذا تخلت عنكمو. لا تلعنوا الظروفْ.

فالله يؤتي النصر من يشاء.. وليس حدادا لديكم يصنع السيوفْ".

وصور الفراغ الروحي والأخلاقي للأمة فقال:

"جلودنا ميتة الإحساس.

أرواحنا تشكو من الإفلاس.

أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس.

هل نحن خير أمة قد أخرجت للناس"؟

والجواب بداهة: لا. فالله قد خاطب هذه الأمة بقوله: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران:110

فأين منا هذه الخصائص والنعوت؟

ويصف (نزار) التدين الكاذب المنحرف فيقول:

"نقعد في الجوامع.

تنابلا كُسالى.

نشطّر الأبيات أو نؤلف الأمثالا.

ونشحذ النصر على عدونا.. من عنده تعالى"!

وعلى أية حال، قد كان الدين معزولا ـ تماما ـ عن المعركة، ولم يكن له فيها دور إيجابي ولا سلبي. لا قبل المعركة ولا في أثناء المعركة.

كان هناك حرص شديد من أكثر المسؤولين على إبعاد العنصر الديني عن الحرب، لأسباب واعتبارات لا محل لها هنا.

بل الذي يذكره الشعب العربي ـ قبل المعركة بأيام ـ أن الدين كان عرضة للهجوم والسخرية والقذف بالحصى والحجارة، حتى اجترأ مجترئ من الثوريين، أن يكتب في صحيفة علنية رسمية ـ تصدر في سورية ـ هذه العبارات:

"... والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي، هي: خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين وكل

القيم ـ التي سادت المجتمع السابق ـ ليست إلا دُمىً محنطة في متاحف التاريخ"!!

ولقد ذكرت ما شهدته بنفسي في قطر في الساعات الأولى، اجتماعا في مقر (منظمة التحرير) ضم المئات بل الألوف من الناس من الفلسطينيين والقطريين والمصريين وغيرهم، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب في هذا الجمع، وكان مما دعا إليه في كلمته: أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم.. فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البشرية إلا أن قالوا: لا دين إلا السلاح؟

هذه هي الروح التي كانت سائدة هنا وهناك. فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة؟!! وأن علينا أن نتخلى عن الدين لننتزع النصر من أحشاء الهزيمة؟

ثم أي دين يعنيه الكاتب؟ إنه لا شك يعني الدين على وجه العموم، والإسلام على وجه الخصوص. فهو الدين الذي تعتنقه أغلبية الأمة، وتنص دساتير دولها على أنه دين الدولة الرسمي.

فهل يمكن أن يكون الإسلام سبب الهزيمة، أي هزيمة؟ كلا.

وكيف يكون ذلك؟ وهو الذي يقول في كتابه: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الأنفال: 60 ويقول: (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيمليون عليكم ميلة واحدة) النساء: 102. (يا أيها الذين آمنوا خذو حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جمعيا) النساء: 71.

بل أقول: إن التحليل الدقيق والعميق لأسباب الهزيمة يقول بصراحة: إن سببها الحقيقي يكمن في تخلّينا عن حقيقة الدين، عن الإسلام الصحيح، الإسلام الحق الذي يعد الأمة للجهاد، ويطهر الأمة من الميوعة والتحلل وأسباب الخذلان.

لقد كان لتخلينا عن الإسلام ـ مصدر قوتنا ومددنا الروحي والنفسي ـ نتائج كثيرة لمسنا آثارها، حين دخلنا المعركة دون أن نتسلح بالإيمان، لمواجهة أمة تحاربنا باسم الدين.

وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انطلاق الغرائز الدنيا، وطغيان الشهوات البهيمية، وانتشار المجون والفسق، والتحلل من عقدة الفضائل والمُثُل العليا، فالعفاف والإحصان والاحتشام والحياء من أخلاق الرجعية المتزمتة، وخصائص المجتمعات المتخلفة التي لم تر نور القرن العشرين.

أما اللهو والخلاعة والصور العارية أو شبه العارية والقصص الخليعة، والأدب المكشوف والغناء الفاحش، والأزياء المثيرة فهذه هي سمات الحضارة، وعنوان التمدن، وشارة التحرر من ربقة التقاليد العتيقة البالية.

فلا تعجب إذا وزعت ـ قبل المعركة بأيام ـ عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين على خط النار، تشجيعا لهم، وتقوية لروحهم**!!**

وأخيرا كان من نتائج تخلينا عن الإسلام: أننا دخلنا المعركة بمعزل عن الله، شاعرين بالاستغناء عنه، ذاكرين كل اسم إلا اسمه، منتظرين كل عون إلا عونه، مترقبين أي مدد من أي جهة إلا مددا يأتي من جهة السماء**!**

كانت بعض الإذاعات تلهب حماس المحاربين في ساعات القتال الرهيبة بمثل هذه الكلمات: قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو. إن الفنانين والفنانات من ورائكم.. إن فلانة المطربة معكم والأخرى الممثلة بجانبكم**!!**

أما الله وملائكته وتأييده فلم يكن في الحساب.

دخلنا المعركة والغرور حشو رؤوسنا، والرياء ملء نفوسنا، والكبر ملء أنوفنا، لم ندخلها في تواضع المؤمنين، وزهد المخلصين، وصدق التائبين، وتوبة الصادقين.

لم يقل قائد لزملائه أو لجنوده يوم الحرب ما قاله خالد يوم (اليرموك): إن هذا اليوم من أيام الله، فلا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده.

وهكذا خضنا الحرب بلا عقيدة، وقاتلنا بلا إيمان.. خضناها متوكلين على الروس، فخذلنا الروس، معتمدين على السلاح فلم ينفعنا السلاح.

لقد وضع القرآن للمؤمنين شروط النصر عند اللقاء فقال: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط) الأنفال: 45-47.

فهل راعينا هذه الشروط الستة ونفذناها؟ بل هل وعيناها وحفظناها؟ بل هل خطرت لقادتنا على بال؟ كلا ثم كلا.

لا عجب إذن ـ وقد تخلينا هكذا عن الإسلام ـ أن يحجب الله نصره عنا، وأن يسلط عدوه علينا. فإنه لم يعد بالنصر إلا من نصره وأعز دينه: (ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور) الحج: 41،40.

هذا هو في نظري السبب الحقيقي للهزيمة، وهو سبب أعمق جذورا، وأبعد مدى، وأطول عمرا، من حرب (حزيران)، فإن ساعة الحرب هي ساعة الحصاد لما زُرع أيام السلم.

فليت شِعري لماذا يقحم فريق من الناس اسم الدين واسم الله بعد الهزيمة؟ وعندما كانوا يظنون النصر قريبا لم يجر ذكر الله على ألسنتهم، ولم يخطر على قلوبهم. وإنما ذكروا (هُبَلهم) و(مَناتهم) و(عُزّاهم) وسائر آلهتهم التي يلتمسون عندها المدد والعون.

أجل.. لقد كانوا ينتظرون المعونة من أي جانب إلا من الله، فلا غرو أن يتخلى الله عنهم، ويكلهم إلى أنفسهم، ويوليهم ما تولوا. فلم يغن عنهم أولياؤهم من الله شيئا. لقد كانت جيوشنا وشعوبنا أحوج ما تكون إلى تعبئة إيمانية صادقة تجعل الجندي العادي أسدا هصورا.

كل الفئات تنادي بضرورة التعبئة الدينية:

إن التعبئة الدينية الأخلاقية للشعب أو الجيش أصبحت أمرا ينادي به جميع الفئات الواعية من العرب والمسلمين.

ولا زال في آذاننا صوت وكيل الخزانة في القاهرة الذي وقف يقول في أحد المؤتمرات: "لابد من إدخال الدين في المعركة، فإن اليهود يقاتلوننا انتقاما لهزيمتهم في خيبر، وغيرها".

فهو رأي لم يدع إليه علماء الدين فحسب، بل دعا إليه رجال مدنيون في جميع القطاعات، ولم يناد بد المدنيون فحسب، بل نادى به القادة العسكريون أيضا.

فهذا القائد الأردني السيد "عبد الله التل" يرسم سبيل النجاة كما يراه في قضية فلسطين فيقول:

أولا: يجب أن نخوض معركة فلسطين على أساس الجهاد الديني، ذلك لأن فلسطين بلد إسلامي مقدس، كل شبر فيه ممزوج بدماء الصحابة والمجاهدين، يضم المسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، الذي أسرى بالنبي الكريم إليه. ويضم مسجد الصخرة، ومئات المساجد والمقامات الإسلامية الأثرية المقدسة، ويضم كذلك المقدسات المسيحية وأهمها قبر المسيح ومهده.

ثانيا: إن فلسطين ليست بلدا عربيا اغتُصب فحسب، وإنما هي بلد إسلامي بالدرجة الأولى، لأنها تعد مهوى أفئدة 700 مليون مسلم، يقدسونها كما يقدسون مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهي ليست ملكا لعرب فلسطين وحدهم، لا للأمة العربية وحدها، وإنما هي ملك جميع المسلمين، وواجب الدفاع عنها فرض عين على كل مسلم على وجه الأرض".

بل أقول: إن هذه التعبئة لم يدع إليها المسلمون وحدهم، بل دعا إليها الواعون المخلصون من المسيحين العرب أيضا.

يقول الكاتب العربي المسيحي الأستاذ "حبيب جاماتي":

"لقد حان الوقت لكي تركز الدعاية العربية ضد الصهيونية على المشاعر الدينية، بعدما ظلت إلى الآن مركزة على نواح كثيرة أخرى ماعدا الدين.

إن الدعوة الصهيونية قامت على الفكرة الدينية وعلى الشعور الديني وعلى التعصب الديني، وعلى إثارة النعرة الدينية دون غيرها من النعرات، وما الناحية العنصرية في تلك الدعوة غير مظهر من مظاهر التعصب الديني. ففي الشرق الأدنى الآن بقعة من الأرض العربي سرقها اليهود باسم الدين، وأنشأوا فيها دولة قائمة على الدين ولا يزالون يبثون في أنحاء العالم دعاياتهم المنبعثة من الدين.

"وبناء على أن مقاومة السلاح بمثله من البديهيات التي لا تتطلب تفكيرا، ولا تستحق جدلا، وبناء على أن العرب حتى الآن قد بنوا دعايتهم المضلة لدعاية اليهود على أسس وحجج ودعائم وحقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تاركين الناحية الدينية جانبا، فإن الحالة الخطيرة التي وصلت إليها قضية فلسطين من جراء ذلك كله تتطلب الآن أن يعمد العرب إلى نفس السلاح الذي استخدمه اليهود ضدهم.. وهو إثارة النعرات الدينية ليقابلوا بها النعرة الدينية اليهودية".

وهذه الكلمات الصريحة الناصعة: تبطل كل حجة لأولئك الذين يريدون إبعاد الدين وإخفاءه، مجاملة لإخواننا النصارى، الذين قد يسوءهم ذكر الإسلام، وتعبئة المشاعر باسمه وتحت رايته، فهذه دعوى مراودة. وما أصدق ما قاله السياسي المصري الشهير "مكرم عبيد": أنا نصراني دينا مسلم وطنا!

حكم القهر والإذلال:

وسبب آخر من أخطر أسباب الهزيمة، هو: أن الشعب فقد الحرية.

أمسى الشعب تحت سلطان الأنظمة الثورية يرزح تحت نِير القهر والقمع والإذلال.. تحت حكم الحزب الواحد، أو التنظيم الواحد، وتحت حكم الفرد الذي لا يجوز لأحد أن يقول له: لم؟ ناهيك بأن يقول: لا!

إن الشعب الذي يحيا في خوف من حكامه، ولا يأمن على نفسه ولا على أهله، ولا على عيشه، ويتوقع أن يأتيه (زوَّار ما بعد منتصف الليل) وهم الذين سميناهم (كلاب الصيد) ليتخطفوه في أي وقت.. مثل هذا الشعب لا يتوقع منه إنجاز، أو تحقيق نصر على عدو.

لقد جرد هؤلاء الحكام هذه الشعوب من كل أسلحة القوة، ومن كل معاني المقاومة.

لقد أذلوا كرامتها، وأهدروا آدميتها، وسلطوا عليها سيف الإرهاب، وسوط العذاب، حتى سكتت على الضيم، وأغضت العين على القذى، وجرت الذيل على الهوان.

لقد خنقوا كل فكر حر، وكسروا كل قلم حر، وأخرسوا كل صوت حر، ولم يسمحوا بالعيش والظهور إلا لحملة القماقم، ومحرقي البخور، بين أيدي الظلمة المستبدين.

لقد غلت في عهدهم المعيشة ورخص الإنسان، وعمرت المراقص، وخربت المساجد، وضُيِّق الخناق على الأفكار، وأطلق العنان للشهوات. وأكرم أهل النفاق، وأهين أهل الإيمان.

أولئك هم الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار.

ولقد أحسن الشاعر (نزار قباني) حين صور هؤلاء الطغاة وموقفهم من الحريات ومن الشعوب، فقال:

"لو أحد يمنحني الأمانْ

لو كنتُ أستطيع أن أقابل السلطانْ

قلت له: يا سيدي السلطانْ.

كلابك المفترسات مزقت ردائي..

ومخبروك دائما ورائي

عيونهم ورائي..

أنوفهم ورائي..

أقدامهم ورائي..

كالقدر المحتوم، كالقضاء..

يستجوبون زوجتي..

ويكتبون عندهم أسماء أصدقائي..

يا حضرة السلطان

لأنني اقتربتُ من أسوارك الصماء

لأنني.. حاولت أن أكشف عن حزني وعن بلائي..

ضُربتُ بالحذاءِ..

أرغمني جندك أن آكل من حذائي..

يا سيدي..

يا سيدي السلطان..

لقد خسرتَ الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا

ليس له لسان..

ما قيمة الشعب الذي

ليس له لسان؟

لأن نصف شعبنا

محاصَرٌ كالنمل والجرذانْ

في داخل الجدران..

لو أحد يمنحني الأمانْ!

من عسكر السلطان

قلتُ له:

لقد خسرتَ الحرب مرتين

لأنك انفصلتَ عن قضية الإنسان"...

فإذا كنا نريد لأمتنا أن تنتصر، وكنا نريد من أمتنا أن تجاهد، فلنزح من طريقها هذه الحجارة التي تعوق سيرها. هذا الإرهاب الحاكم الذي يفعل بأنفس الأمة ما تفعله الأمراض الفتاكة بأجسامها.

إن الجهاد لا يقوم إلا على الرجال، والرجال لا ينشأون إلا في ظل الحرية، أما تلك الأنظمة البوليسية المتجبرة على خلق الله، فلن تخلق إلا شعبا من العبيد. والعبيد إنما يحسنون فن الخدمة والطاعة ولكن لا يحسنون فن البطولة والصناعة الموت.

ولقد روت كتب الأدب أن عنترة العبْسي كان ـ لسواد لونه ـ غير محظي عند أبيه، وكان يعامله معاملة العبيد، كل مهمته أن يرعى الجمال ويحلب النُّوق، فلما أغارت يوما إحدى القبائل على عبس، وكاد المغيرون ينتصرون، وعنترة يقف موقف المتفرج، كأن الأمر لا يهمه، قال له أبوه: كِرّ ـ يريد منه أن يشترك في الذود عن القبيلة ـ فقال له عنترة: العبد لا يحسن الكَر، وإنما يحسن الحلاب والصر.. فقال الأب: كِرّ وأنت حرّ.

وهنا ظهرت بطولة العبسي الأسود راعي الإبل وحالب النُّوق، فقلبت موازين القوى، وردت المغيرين على أعقابهم مخذولين. وكان ذلك بتأثير الشعور بنعمة الحرية: "كر وأنت حر".

هيكل يعترف:

لم يملك الأستاذ (هيكل) ـ المحامي الأول عن عبد الناصر وعن ثورة 23 يوليو ـ برغم تبريراته الواسعة للهزيمة، إلا أن يعترف بكثير من الأخطاء، وكثير من الانحرافات، التي ارتكبتها القيادات الثورية، فيقول في مقالاته في الأهرام في شهر 1967/10 ذاكرا عدة حقائق:

"الحقيقة الأولى: أننا كنا نواجه عدوا تلقى مساعدات غير عادية.

والحقيقة الثانية: أن عدونا تصرف بما حصل عليه من الإمكانيات ببراعة غير عادية.

والحقيقة الثالثة: أننا تصرفنا أمامه بقصور غير عادي.

إن الضربة الأولى التي فاجأتنا كانت متوقعة بالطريقة التي جاءت بها تقريبا. وفي الوقت الذي جاءت فيه تقريبا أيضا.

ولكن الفشل في توقيها كان مذهلا!

لقد صعق الجنرال (موردخاي هود) قائد طيران العدو الذي قام بالعملية على أساس نجاحه من الضربة الأولى، صعق قبل غيره عندما جاءته نتائجها.

وكان قوله الذي نقل عنه: إن ما حدث يفوق أكثر أحلامي جنونا!! قال هيكل: ولذلك قلت: إن حادث 5 يونيو 67 غير معقول، إلى جانب أنه غير مفهوم، فضلا عن أنه ـ قبل ذلك ـ غير مسبوق، وغير ملحوق!

"ويخيل إلي أنه لا بديل لأن نتبين صراحة: أن الوطنية ليست صراخا، وليست حمّى، إنما الوطنية إيمان.. والإيمان معرفة.. والمعرفة فهم!

ويقول هيكل في 10-11-1967: "لقد تيقنت الأمة العربية أنه ليس بالشعارات تتحقق أمانيّ الشعوب، ولكن بالفعل. وليس بالخلط، ولكن بالوضوح!

ويقول في 1967/11/17: "إن أجهزة المخابرات إذا تركت بغير رقابة كافية تكتسب في نموها طبيعة سرطانية مدمرة.

"إن الجبهة الداخلية لا تستطيع أن تستفيد أي شيء من جو الإبهام والغموض وهي تستطيع أن تستفيد كل شيء من جو الانفتاح والوضوح!".

ويقول: "إن الذين يمارسون الإرهاب ليسوا أصحاب عقائد مهما ادعوا... ولا أقول أكثر من ذلك".

وفي 1968/6/28 يقول: إن مفاجأة صباح 5يونيو حطمت الطيران على الأرض في ساعات، وأغلب الظن ـ على أساس الظروف الموضوعية وحدها ـ فإن هذا الطيران بغير مفاجأة كان سيضرب من الجو خلال أيام على أساس الأوضاع التي دخل بها المعركة.

وفي 1968/6/30: "إن خطأنا الأول هو أن ألفاظنا جميعا كانت تعبر في كثير من الأحيان عن أكثر مما نقصده، وأكثر مما نستطيعه!".

ويقول الماركسي المعروف لطفي الخولي ـ رئيس تحرير (الطليعة) المصرية ـ في ملحق الأنوار بتاريخ 1968/12/15: يتحدث عن المؤسسات الحزبية:

أليست هي الأخيرة مهزومة الآن؟ ألم تسقط مع من سقط في 5حزيران؟ بل لعلها قد سقطت قبل ذلك، بدليل أن 5حزيران كان، ولو أنها في المستوى المطلوب لما كان!

وجنبلاط يدين الثورية والثوريين:

وكتب الأستاذ كمال جنبلاط رئيس (الحزب التقدمي الاشتراكي) في لبنان مقالا عن (الذهنية العربية والنكسة المستمرة) قوبل بالاهتمام

الكبير في الأوساط الثورية وغير الثورية على السواء، ومما جاء في هذا المقال الخطير:

"أخذنا منذ سنتين أو ثلاث نتلهى بشعارات سحرية وميثولوجية أخرى عممتها ـ للاستغلال الرخيص لعواطف الناس ـ حركات حزبية في الشرق العربي، أطلقت في ما أطلقته تعابير ومفاهيم أخذت تنحدر من التصور الثوري الطوباوي الواحد. فامتلأت صحفنا وأنديتنا وعقول معظم مثقفينا بكلمات جوفاء، ترددها أصداء وخلايا جوفاء في العقل والخاطر السحري الميثولوجي لنفسيّتنا: الثورية والثوريون، والتحرر والتحرريون، والذهنية الثورية، والفكر الثوري، والعقائد الثورية، والجماهير الثورية، والعلم الثوري، والفن الثوري، والنهج الثوري، والمجتمع الثوري الخ... حتى أصبحت كلمة ثورة وثورية تلصق بأي اسم ومفهوم آخر. وأضحت حشوا في كلماتنا وفي كتاباتنا وفي عقولنا.

إن التحدث عن الثورية يغطي، أو هو مركب تعويض وتغطية عن عجزنا عن القيام بواجب العمل الاجتماعي والسياسي المباشر، وعن الاضطلاع بطاقة العلم العقلانية الكاملة التي هي الأساس الحقيقي لكل تقدم في العالم الحديث.

وصلاح البيطار أيضا:

ومثل كمال جنبلاط: الأستاذ صلاح البيطار ـ أحد مؤسسي (حزب البعث العربي الاشتراكي) فى سورية ورئيس حكومته لعدة مرات ـ الذي أصدر بيانا ضافيا أعلن فيه انفصاله عن الحزب، وحلل

أخطاءه وانحرافاته قبل حركة 23شباط وبعدها، واستطرد إلى إدانة جميع الحركات الثورية والعقائدية الأخرى التي أثبتت إخفاقها

الذريع، وعجزها التاريخي عن الاندماج بالشعب وعن تحريك جماهيره، مهيبا بالثوريين المناضلين في جميع الأحزاب، إلى الانفصال عن أحزابهم، والعمل على إنشاء حركة عربية جديدة للوطن العربي كله، كي لا تبقى الساحة السياسية فارغة، ولا يبقى الشعب غارقا في الظلام. وهذا بعض ما جاء في هذا البيان:

"كنت أول من حذر إلى حتمية سقوط الحزب في ما سقط فيه بعدئذ، من تخبط في متاهات الفكر، وجهالات السياسة، وصنمية التنظيم، إلى سيطرة الطفولة اليسارية، والعقلية العسكرية، والمغامرة الانتهازية، إلى الارتداد عن المواقع القومية الوحدودية والديموقراطية الشعبية، إلى التسلح بالهوس الثوري، والثرثرة الاشتراكية، لإرهاب القوى الثورية، وتصفية الفئات العسكرية والمدنية، وضرب الوحدة الوطنية للشعب.. وعسكرة الحزب، وتسيير أعضائه ومن ورائهم الشعب بالعصا والقوة. على أن تحذيري لا يعني تبرئة نفسي من حملي نصيبي من المسؤولية.

على أن النكبة القومية لم تكشف عن عجز حزب البعث وحده، فالأحزاب والمنظمات العربية العقائدية الأخرى لم تكن أحسن منه حظا. ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن أمراضنا وعللا من النوع ذاته الذي فتك بحزب البعث، قد فتكت بالأحزاب الأخرى.

ولقد كشف الواقع الموضوعي، عن أن جميع هذه الأحزاب والحركات كانت إبان النكبة في حالة غيبوبة، يوم كان الشعب في قمة حضوره ويقظته، ويوم كان وحيدا من دون قيادة حربية تقود حركته، ويوم وجد نفسه في واد والأحزاب والحركات في واد آخر!".

بين الأعراض الظاهرة والأسباب الدفينة:

ونحن ـ كما قال الأستاذ قدري قلعجي ـ نرحب ولا شك بهذه الاعترافات التي تصدر من (أهل البيت) لأنهم أدرى بما فيه.

بيد أننا مع ترحيبنا بهذا الذي سموه (النقد الذاتي) وبهذه الاعترافات (الثورية). نرى أنها جميعا لم تشخص حقيقة الداء، ولم تهتد إلى لب المشكلة، إنها تحدثت عن أعراض المرض، لا عن أسبابه الدفينة الكامنة وراء المظاهر. ولما جهلوا حقيقة العلة لم يهتدوا قطعا إلى وصف الدواء.

إن العلة الحقيقية التي تعانيها هذه الأمة، والتي جهلها أو تجاهلها الاشتراكيون الثوريون ـ حتى الذين اعترفوا منهم بعجز الثورية العربية وإفلاسها ـ أنهم حاولوا جهد طاقتهم أن يخلعوا هذه الأمة من عقيدتها الأصيلة، ليفرضوا عليها عقيدة دخيلة، وأن يسوقوها بالدبابات والمدافع تارة، وبالإذاعات والإعلام طورا، لتعيش في إطار أيديولوجيات مستوردة مصطنعة، تصادم معتقدات الأمة وشرائعها وأفكارها ومشاعرها وقيمها وأخلاقها وتقاليدها.

وليس من السهل ولا من الممكن أن تتخلى الأمة عن عقيدتها وشريعتها ومثلها ورسالتها، فتتخلى بذلك عن مقومات حياتها. ولهذا لم يكن بد من الصدام والصراع الظاهر والخفي بين الأمة وبين هؤلاء الذين حرفوا مسيرتها. ونتيجة هذا كله الحيرة والتمزق وبعثرة الجهود والأموال والأعمار في غير جدوى. بل في الهدم والتخريب لا في البناء والإنشاء.

إن هؤلاء الثوريين الاشتراكيين ـ إن افترضنا إخلاصهم ـ لم يفهموا أمتهم، ولم يعرفوا حقيقتها.. كما أنهم لم يعرفوا عدوهم الذي يتحدى بقلته كثرتهم، وبرقعته الضيقة أقطارهم الواسعة!

لقد ادعوا أن إسرائيل مجرد دولة عنصرية، وأن الصهيونية حركة قومية سياسية فحسب، وأغفلوا الجانب الديني في قيام الصهيونية وفي تكوين إسرائيل، كما أغفلوا هذا العامل الديني في توجيه شعوبهم وجيوشهم، على حين عنيت به إسرائيل كل العناية، فربحت وخسروا، وانتصرت وانهزموا.

كتب بن جوريون في رسالته إلى الرئيس ديجول في مطلع عام 1968 يقول:

"إن سر بقائنا بعد التدمير البابلي والروماني، وحقد المسيحيين الذين أحاطوا بنا ألف عام: يكمن في صلاتنا الروحية بالكتاب المقدس! وعندما جاءت اللجنة الملكية البريطانية إلى القدس في آخر سنة 1936 لتدرس مستقبل الانتداب قلت لها: الانتداب الخاص بنا هو التوراة! لقد استخرجنا منه قوتنا؛ لنقاوم عالما عاديا، ولنستمر في الإيمان بعودتنا إلى بلادنا".

وفي الصفحات الأخيرة من مذكرات (وايزمان) ما يعتبر وصية وتوجيها عاما لإسرائيل.

"هدفنا هو بناء حضارة تقوم على المثل الصارمة للآداب اليهودية. عن تلك المثل يجب ألا نحيد، كما فعلت بعض العناصر في حياة الوطن القومي القصيرة، بإحناء الركب أمام آلهة غرباء. لقد كان الأنبياء دائما يؤنبون الشعب اليهودي بأشد القسوة من أجل هذه النزعة. وكلما عاد الشعب إلى الوثنية وكلما ارتد: كان يعاقب من قبل إله إسرائيل الشديد. وإنه من الصعب القول فيما إذا كان سيظهر أنبياء بين اليهود في المستقبل القريب. ولكنهم إذا اختاروا الحياة الصادقة الصعبة النقية على الأرض في منازل مبنية على المبادئ القديمة، وإذا استهدفوا في نشاطهم قيما حقيقية، في الصناعة والزراعة والعلم والأدب والفن، عندها يطل الله بعطف

على أبنائه الذين عادوا بعد تيه طويل إلى بيتهم ليخدموه، وعلى شفاههم مزمور، وفي أيديهم مجرفة، محيين بلادهم القديمة، وجاعليها مركز حضارة إنسانية.

هذا هو اتجاه إسرائيل، وصنّاع أمجادها وانتصاراتها.

أما في أرض الثورية العربية، فكل دعوة إلى الإسلام (رجعية) وكل ذي فكر وقلم يدعو إلى الإسلام الصحيح يجب أن يكون مصيره حبل المشنقة، أو زنزانة السجن، أو العزلة الخانقة تحت الإقامة الجبرية!

يقول الكاتب المسيحي السوري الدكتور أديب نصُّور:

"استطاعت إسرائيل أن تعبئ لمصلحتها العاطفة الدينية عند اليهود في العالم، وتتلقى منهم العون والمزيد من العون، بينما كانت السياسة العربية الثورية تعادي الدول الإسلامية غير العربية، وتخاصم الدول الإسلامية العربية، وتصمها بالرجعية والتخلف لتمسكها بالدين، وتعتبر كل تقارب بين المسلمين تحالفا استعماريا، وتهمل الجانب المسيحي في العالم العربي، وتجرد إنسانها الثوري من قوة روحية هائلة، وتجرد سياستها الخارجية من بُعْد هو الأساس من أبعادها.

"إن الخطر الأكبر لم يداهمنا من انقضاض طيران العدو، وغزو ألويته ودباباته، وإنما جاء من انهيار داخلي سبق المعركة بأعوام، ومن محاولة الانتحار الأدبي. والتخلي عن الحقيقة والفضائل والقيم قضى على أمم كثيرة من قبل في التاريخ. إن ما حدث داخل المجتمعات الثورية كان وحده سببا كافيا ليجلب لنا الدمار الروحي والدمار المادي جميعا".

السفر إلى لبنان منتصف يونيو:

كنا قد حجزنا من قبل للسفر إلى لبنان في منتصف حزيران ـ يونيو ـ كالعادة بمجرد انتهاء العام الدراسي، وتواعدنا مع بعض الإخوة الذين يعملون في قطر: أن نلتقي في مصيف (سوق الغرب) في (فندق فاروق) وهو فندق نزل فيه بعض زملائنا، وأثنوا على صاحبه (أبو فاروق) وهو مسيحي دمث الأخلاق، وقد سمى الفندق باسم ابنه.

وكان المعتاد والمفترض: أن نبقى في الفندق عدة أيام، نبحث فيها عن مسكن مناسب لنا نقيم فيه طوال فترة الإجازة، ولكنا وجدنا الحياة في لبنان كلها شبه معطلة بعد الحرب، ولم تعد الحياة إلى البلد من جديد.

لذا أشار علينا بعض إخواننا: أن نذهب إلى تركيا، لنقضي فيها إجازة الصيف، في مدينة استانبول خاصة، تلك المدينة الجميلة الرائعة، التي تجمع بين آسيا وأوربا، والتي كانت عاصمة الخلافة الإسلامية لآل عثمان عدة قرون، بل كانت في وقت من الأوقات: سيدة العالم!

وقيل لنا: إن عددا من الإخوة الذين يعملون في قطر، قد سبقونا بالسفر إلى استانبول عن طريق الباصات السياحية الفارهة، التي تقلهم من بيروت إلى استانبول في يومين، على ما أذكر.

وراقت لنا الفكرة: أن نزور تركية، ونتعرف على آثارها وجوامعها ومكتباتها وأسواقها وشواطئها وجبالها ومضيق البوسفور فيها. إنها فكرة محببة ومطلوبة، ولا يرغب عنها أحد.

ولكن بقيت أمامنا مشكلة، وهي: أن الذين يذهبون عن طريق الحافلات (الباصات) السياحية، يمرون بسورية، ولا بد، في

طريقهم إلى تركية. وسورية يحكمها البعثيون العلويون، ومن المؤكد: أن اسمي من الأسماء الممنوعة من دخول سورية، فكيف نخاطر، ونقطع التذاكر، ونذهب إلى الحدود، ثم قد نفاجأ بردنا، وربما قيادتنا إلى الشرطة للتحقيق معنا، وربما حجزونا أياما، قد تقل أو تكثر، فهذه الأنظمة الشمولية القمعية، التي ابتليت بها بلادنا العربية والإسلامية لا يوجد في قوانينها شيء محظور! كل شيء مباح لهم، وإن حرمته قوانين الأرض وشرائع السماء.

وفكرنا أن نأخذ الطائرة من بيروت إلى استانبول، ولكن وجدنا ثمنها غاليا، يرهقنا عسرا.

ثم أشار علينا بعض العارفين بوسيلة أخرى، نتخطى بها المرور على سورية، وما فيها من أخطار، ولا تكلفنا كثيرا، وهو: أن نأخذ الطائرة التركية من بيروت إلى مدينة (أضَنَة) في جنوب تركية، بالقرب من الحدود السورية، ومن (أضنة) نأخذ الحافلة إلى (استانبول) إن شئنا، أو إلى (أنقرة) ثم استانبول.

ورحبنا بهذا الاقتراح، وقطعنا التذاكر لي وللأسرة إلى (أضنة) ذهابا وعودة، وكان معي في هذه الرحلة من أولها إلى آخرها أخونا وصديقنا الأخ العالم الداعية الحبيب الشيخ علي جماز رحمه الله وأسرته، وكانت أسرته تتكون من زوجته وابنه طارق، وهو في السابعة أو الثامنة من عمره.

وقررنا معا: أن نأخذ هذه الرحلة على مراحل: نبقى في (أضنة) ثلاثة أيام، ثم نذهب إلى أنقرة، ونبقى فيها ثلاثة أيام. ثم نغادر إلى استانبول لنقضي فيها بقية مدة الإجازة.

وفي اليوم المحدد امتطينا الطائرة، لتهبط بنا بعد نحو ساعة أو أكثر إلى مطار أضنة، ولقد سرنا أن كثيرين في هذه المدينة يتكلمون

العربية، فلم نجد صعوبة في التعامل معهم، ولا ريب أن وحدة اللغة من أقوى وسائل التفاهم بين البشر.

واستأجرنا سكنا في أحد الفنادق، وكان سعره رخيصا إلى حد بعيد، وتعرفنا على بعض المطاعم لنأكل فيها (شيش كباب) هكذا يسمونه، وأحسب أننا أخذنا منهم هذه التسمية. وكثير من أسماء المأكولات نجدها مشتركة، مثل البامية.

أما المحشي فيسمونه (ضُلْمه). والبطيخ يسمونه (قَرْبوز) والشمام يسمونه (فاوون) وهذه كلمة مستعملة في بعض أقاليم مصر.

وسألنا الإخوة الذين ينطقون العربية: أن يدلونا على أماكن النزهة، فدلونا عليها. وكانت نزها جميلة، لولا ما يعكرها من قرص (الناموس) الذي لدى زوجتي حساسية منه، فهو يترك في جسمها أثرا ظاهرا.

كما كان يعكر علينا صفونا في كل مكان ذهبنا إليه: سؤال صعب يوجهه إلينا الأتراك، بعد هزيمة حزيران (يونيو)، هذا السؤال الذي واجهونا به، هو: كيف يُهزَم العرب، وعددهم مائتا مليون، أمام إسرائيل، وعددها 2 مليون؟! كيف يهزم الواحد من اليهود مائة من العرب؟

بعضهم يقول هذا تشفيا من العرب وشماتة بهم، وهؤلاء هم العلمانيون. وبعضهم يقول هذا حزنا على العرب، أو قل غضبا على العرب، ولم نجد جوابا شافيا، يمكننا أن نجيب به القوم، يقنعهم ويسكتهم، إلا أن قلنا لهم: لقد دخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ونحن دخلنا المعركة وليس معنا القرآن، لقد دخلوها يهودا، ولم ندخلها نحن مسلمين!

ركبنا الحافلة إلى أنقرة:

وبعد أيامنا في أضنة، قطعنا التذاكر لنمتطي حافلة (باص) من الحافلات السياحية التركية المريحة المهيأة لمثل هذه الأسفار الطويلة، والتي تقوم عليها شركات متخصصة معروفة، ولها مكاتبها في لبنان وسورية وغيرها من بلاد العرب.

وكانت أجرة الحافلة رخيصة جدا، من أضنة إلى أنقرة، هي تأخذ في الطريق حوالي 8 ساعات أو 10 ساعات، لا أذكر. وهي تمر بنا على مناظر رائعة الجمال، ما بين جبال يكسوها بساط سندسيّ أخضر، وسهول مزروعة بالمحاصيل، وغيرها من المشاهد التي تمتع العين، وتبهج النفس، وتنعش الفؤاد.

وبعد كل ساعتين، تتوقف الحافلة في أماكن معينة معدة للاستراحة، نشرب فيها الماء، أو العصير، أو (الأيْران) وهو اللبن الرائب، الذي تمتاز به تركيا، ويقدم في كل المطاعم مع المآكل والمشارب.

وقد نشتري بعض (المكسّرات) من البندق أو الفستق أو اللوز أو الجوز (الذي نسميه في مصر: عين الجمل).

وفي بعض المرات يكون موعد الصلاة، فنتوضأ ونصلي الظهر والعصر في الطريق قصرا وجمعا، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه.

وفي بعض الطرق نجد أكلات خفيفة، تسد رمق المسافر، وأحيانا نجد (المشويات) التركية. ولا بد أن نتزود في الطريق إلى أن نصل إلى مقصدنا.

قضينا يوما كاملا ممتعا حقا، في طريقنا إلى (أنقرة) العاصمة السياسية لتركيا في العهد الجمهوري منذ انقلاب أتاتورك.

فندق جيهان بالاس في أنقرة:

وعندما وصلنا إلى هناك سألنا عن فندق ملائم في وسط البلد، فدلنا بعضهم على فندق (جيهان بالاس) فاستأجرنا سيارتين صغيرتين ـ لنا وللشيخ جماز ـ لتنقلنا إلى الفندق المذكور.

ونزلنا الفندق الذي كان موقعه مهما في صرة المدينة. ونزلنا للعشاء في أقرب مطعم، وفي الصباح تناولنا فطورنا، وأذكر أنه من ألذ الأطعمة في تركيا (اللبن) الذي يسميه المصريون (اللبن الزبادي) لأنه كان يوضع في (زبدية) وهي وعاء فخّاري صغير، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وسمي (الزبادي). وإخواننا في بلاد الشام (سورية ولبنان والأردن وفلسطين) يسمونه (اللبن). ونحن ـ المصريين ـ نطلق كلمة (اللبن) على ما يسمونه هم (الحليب).

وأعتقد أن تسمية المصريين للحليب (لبنا) تسمية صحيحة، وهي تسمية قرآنية، فقد قال تعالى: (وإن لكم في الأنعام لعبرة، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) النحل: .

حديقة كبرى قرب الفندق:"

وحزنت على نفسي أني لم أتقن اللغة الإنجليزية، برغم ما كان لدي من قدرة لغوية غير عادية، واستعداد نفسي للتعلم، فأصبحت لا أملك اليوم من اللغة ما يمكنني من التفاهم في الأمور البسيطة. ولذا حرصت على أن يتقن أولادي جميعا: الإنجليزية، ومن استطاع أن يتعلم لغة أخرى فهو أفضل.

خرجنا في الصباح نتجول في الشوارع التي حولنا، وإذا بنا نكتشف قرب الفندق: حديقة كبيرة، من أكبر الحدائق السياحية، التي تشتمل على ملاهٍ وألعاب متنوعة، فوجد الأولاد فيها ضالتهم، وغرقوا في الألعاب المختلفة، وأخذت هذه الحديقة جل أوقاتنا وشغلتنا عن كثير من الفسح، التي لم تأخذ منا إلا أقل الوقت.

وكان البعض قد نصحنا أن نأخذ القطار ـ قطار الشرق ـ من أنقرة إلى استانبول، وقلنا: فكرة معقولة، وأردنا أن نجد أحدا نسأله عن محطة قطار الشرق: أين تكون، وكيف نحجز أماكننا، أو نقطع تذاكرنا، فلم نجد أحدا يعرف العربية، يفيدنا في هذا الأمر. وحزنت على نفسي أني لم أتقن اللغة الإنجليزية، برغم ما كان لدي من قدرة لغوية غير عادية، واستعداد نفسي للتعلم، فأصبحت لا أملك اليوم من اللغة ما يمكنني من التفاهم في الأمور البسيطة. ولذا حرصت على أن يتقن أولادي جميعا: الإنجليزية، ومن استطاع أن يتعلم لغة أخرى فهو أفضل.

على أن تعلم الإنجليزية في تركيا لا يفيد كثيرا، فقليل جدا من الأتراك في ذلك الوقت كانوا هم الذين يعرفون الإنجليزية، ولذا من الصعب أن تجد من يتفاهم معلك بغير التركية، حتى الألفاظ المتداولة من الإنجليزية، التي يعرفها كثير من الناس لا يعرفونها.

وأخيرا، وبعد لأي، وجدنا تركيًّا أصله عراقي، يعرف عربية مكسّرة، ففرحنا به، وقلنا: مكسرة مكسرة، المكسر خير من العدم.

وصحبَنا الرجل إلى محطة القطار، فوجدنا القطار يحتاج إلى حجر، ووقت، وليس أمامنا وقت، فنصحنا الرجل أن نأخذ (الباص) ودلنا على شركة للباص، تنقل الركاب إلى (استانبول) اسمها: (جول هانه). ومن فضل الرجل أنه وصلنا إليها ـ أنا والشيخ الجماز ـ وقطعنا التذاكر من المحطة لنأخذ أول دفعة في السابعة

صباحا، وكان ثمن التذكرة رخيصا جدا (15 ليرة تركية) أي نحو دولار وربع دولار للفرد

إلى إستانبول:

وفي الصباح الباكر، ركبنا الحافلة، وقرأنا كالعادة أدعية الركوب والسفر، وقد اجتهدت أن أحفظها لبناتي الصغيرات حتى يتعودن عليها. فكنت كلما أركب طائرة أو سيارة أجهر بصوتي: الله أكبر. الحمد لله. سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم بك نصول، وبك نجول، وبك نسير، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد. اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بعده. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى.

نتلو هذه الدعوات، في الذهاب، وفي الإياب، ونزيد في الإياب: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون.

وكان معظم الطريق ممطرا، ونحن لم نتعود على هذه الطرق الجبلية الصاعدة والمتعرجة، فكنا نخاف من الزلق مع شدة المطر، فنقرأ الدعاء المأثور: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

وكان الطريق إلى استانبول، كالطريق إلى أنقرة، تمتعك خضرته، وتسحرك نضرته، وتروعك جباله التي ألبسها باريها حلة خضراء، تسر الناظرين. وزاد هذا الطريق أننا نمر فيه على (بحر مرمرة) فنستمتع بالنظر إلى المياه مع الخضرة والوجوه الحسنة، وهي الثلاثة التي يقول فيها الشاعر:

واستمتعنا بالاستراحات في الطريق، وشربنا الأيران، وأكلنا المكسرات، وإن كان نزول المطر قد حرمنا النزول أحيانا.

وحوالي الخامسة مساء ـ بعد العصر ـ وصلنا إلى المحطة النهائية في استانبول، ونزلنا في المحطة الأخيرة، لنبحث أين نذهب؟

رحلة بلا تخطيط:

كانت رحلتنا بدون تخطيط، ولا معرفة سابقة، ولا خريطة دالة، ولا دليل يهدي، ولا عناوين أو تليفونات لأشخاص يدلوننا على ما نقصده أو يساعدوننا في تذليل الصعاب التي تواجهنا.

كل ما كان معنا هو تليفون لشخص واحد وعنوانه، أملاه علي الأخ عادل عاقل مدير دار الإرشاد للنشر، حين علم أني ذاهب إلى استانبول. إنه عنوان وتليفون الأخ مصطفى بلجه، الذي لم أكن سعدت بمعرفته من قبل، وهو في منطقة (الفاتح) أي التي فيها جامع السلطان محمد الفاتح، وهو يعرف العربية جيدا، ومن أبناء الدعوة الإسلامية.

وحين نزلنا ـ أنا والأخ علي جماز ـ سألنا عن منطقة الفاتح كيف نذهب إليها؟ ولكن كلما سألنا أحدا لم يرد علينا؛ لأنه لم يفهم ما قلنا له. إنها مشكلة اللغة مرة أخرى!

ووقفنا في طريق يمر منه الناس، نتوسم أحدا يعرف العربية ولو مكسرة، وكلما مر شخص قال له الأخ الشيخ جماز: سْبيك أَرَبِك؟ قلت له: وماذا تفيد كلمة (سبيك أربك هذه؟) إنها لا تفيد إلا من

يعرف الإنجليزية. الأولى أن نقوله له: هل تعرف العربية؟ فإن كان يعرف أجاب بـ (نعم). وإلا لم يرد عليك.

وذكرنا النكتة التي قالها أحد الظرفاء. أن أحدهم كان في لندن، وهو لا يعرف غير العربية، ويريد أحدا يعرف العربية يسأله عن شيء، فوقف أمام إحدى السينمات، والناس خارجون، يقول لكل من يواجهه: أنت رجل حمار! أنت رجل حمار! والناس يمرون عليه، ويسمعون هذه الكلمة ولا يعيرونه التفاتا، إلى أن مر عليه أحدهم، فقال له: أنت رجل حمار! فقال: أنت ستين حمار!

فهناك أمسك به وقال له: إياك أريد. فأنا ما قصدت شتمك، إنما أردت اكتشافك.

ولم تجد معنا طريقة: هل تعرف العربية؟ كما لم تجد: اسْبيك أرَبِك؟

فخطر لنا خاطر ـ وقد اقترب موعد أذان المغرب ـ أن نذهب إلى المسجد، نصلي فيه المغرب، لعلنا نجد إمام المسجد يعرف شيئا من العربية، فنسأله عما نريد.

وذهبنا وصلينا وراء الإمام الذي أمّنا، وقرأ القرآن فأحسن تلاوته، ثم فرغ من صلاته وصلى ركعتي السنة، ثم ختم الصلاة على طريقة الأتراك، وأعطوا كل واحد منا سبحة، ليعد الثلاثة و الثلاثين تسبيحه وتحميدة وتكبيرة، ثم ختم المائة بـ (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) ثم قال: سبحان ربي الأعلى الوهاب) ودعا الناس، كل بما في نفسه، ثم ختم الإمام هذا كله بعشر من القرآن تلاه بصوت رخيم، وبدأ الناس ينصرفون، فاتجهنا إلى الإمام نكلمه، فوجدناه لا يعرف معنى كلمة في العربية. إنه يحفظ القرآن، وإن كان لا يفهمه، وهذه

معجزة هذا الكتاب، وجدناها من قبل في الهنود والباكستانيين والأفغان، ونجدها اليوم في الأتراك.

عربية مكسرة تكفي:

وظللنا نكلم بعض الناس، عسى أن نجد فيهم من يعرف شيئا من العربية، حتى عثرنا أخيرا بين المصلين على واحد يعرف بعض كلمات من العربية، فكأنما عثرنا على كنز ثمين.

سألنا الرجل: أين منطقة الفاتح؟ فقال لنا كلاما كثيرا بعضه بالتركية، وبعضه بالعربية، عرفنا من خلاصته: أننا في البر الآسيوي من مدينة استانبول، ومنطقة (الفاتح) في البر الأوربي منها، ولا بد أن نركب (الوابور) أي الباخرة لتنقلنا إلى الشاطيء الآخر، ثم نستأجر سيارة (تاكسي) لتأخذنا إلى منطقة الفاتح، وهناك تسكنون في فندق إلى الصباح، ثم تبدأون البحث عن صديقكم.

وتنفسنا الصعداء، وقلنا: الحمد لله، قد عرفنا طريقنا، وعرفنا كيف نصل إلى مقصودنا.

وهذا مثل حي للإنسان إذا أراد هدفا لا يعرف طريقه، ولا يعرف دليلا يوصله إلى هذا الطريق.

وهذا هو السر في بعث الله رساله إلى الناس حتى يهدوهم إليه، ويعرفوهم الطريق إلى مرضاته، وإلا ضاع الناس، وبقوا حائرين، لا يدرون: أيشرقون أم يغربون؟ وربما ذهبوا شمالا وهم يبغون اليمين، أو العكس.

الباخرة إلى الشاطئ الآخر:

لقد استأجرنا سيارة تاكسي لتنقلنا إلى محطة الباخرة أو (الوابور) كما قال الأخ التركي. وقطعنا التذاكر، وركبنا لأول مرة: هذا النوع من البواخر التي تنقل الركاب من شاطئ إلى شاطئ، وكانت رحلة ممتعة بعد المغرب، ونحن نشق عُباب (البوسفور) في هذه الجو المنعش، ونسمات البحر تهب علينا، وقد قلنا عندما ركبناها ما قاله سيدنا نوح عليه السلام حينما ركب سفينته، وقال لمن معه: (اركبوا فيها، بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) هود: .

ووصلنا إلى الشاطئ الأوربي في محطة أو مرسى يسمى (قاضي كوى) والمرسى في الشاطئ الآخر يمسى (كراكُوي).

ومن (قاضي كوى) أخذنا سيارتين لأسرتينا، وقلنا له: نريد فندقا في منطقة (الفاتح) فذهب بنا إلى فندق، وآخر، فلم نجد فيه مكانا فارغا، فاقترح الرجل أن نذهب إلى (أقصراي) قلنا: لا بأس. ونحن لا نعرف شيا لا عن اقصراي ولا عن غيرها.

وفي أقصراي وجدنا فندقا مناسبا، يملكه رجل أصله حلبي، ويعرف العربية، وكان هذا كسبا كبيرا لنا، أن نجد من يعرف العربية، ويستطيع أن يفهمنا ونفهمه، ولكن لم يكن صاحب الفندق موجودا في ذلك الوقت.

ونحن نريد أن نقيم في الفندق لعدة أيام فقط، لأن تكاليف الفنادق فوق طاقتنا، وإنما هي مرحلة ضرورية حتى نتسأجر منزلا أو شقة مناسبة، فننتقل من الفندق إليها، وكلما طالت إقامتنا في الفندق زاد العبء علينا، وكلما قصرت مدة الإقامة كان في ذلك سعة وبحبحة لنا

البحث عن مصطفى بلجه:

وفي الصباح بعد أن تناولنا فطورنا، شرعنا في البحث عن الشخص الوحيد الذي نعرفه باسم (مصطفى بلجه) واتصلنا بالتليفون الذي أعطاه لي عادل عاقل، وردت علينا امرأة، لم نفهم منها شيئا، ولم تفهم منا شيئا، إلا أن مصطفى غير موجود.

فقلنا: نذهب نبحث عن البيت حسب العنوان، ونترك رسالة مكتوبة، وظللنا نمشي في منطقة الفاتح يمينا وشمالا، لنبحث عن الشارع الذي فيه العنوان، فلم نهتد إليه، فنفضنا أيدينا يأسا من الوصول إليه، وعدنا إلى الفندق

محمد فرحان:

وبعد عودتنا إلى الفندق، كان من حظنا أن وجدنا صاحب الفندق، وهو يتكلم العربية بطلاقة، ورحب بنا، وقلنا له: إننا نريد من يساعدنا على استئجار منزلين، أو شقتين في مكان مناسب، وبسعر مناسب، فقال: يسكن بجوار الفندق طالب عربي شهم كريم، من الأردن، وهو يدرس بالجامعة هنا منذ سنوات، ويعرف البلد هنا تماما، وأعتقد أنه إذا عرف بوجودكم فسيسره أن يخدمكم. وأرسل إليه بالفعل أحد موظفي الفندق، يستدعيه إلينا، فلبى النداء مشكورا، وحضر مسرعا، فتعرف علينا، وفرح بلقائنا، وقال: أنا متفرغ لخدمتكم في كل ما تريدون، وليس عندي شيء محدد يشغلني الآن، فنحن في فترة الإجازة.

وكان الأخ محمد فرحان هجاينه (الأستاذ الدكتور الآن) عند حسن الظن به، فوضع جهده ووقته للبحث معنا عن المسكن الملائم، وظللنا يومين نبحث في استانبول، وهي مدينة كبيرة رحبة، فيها

الجانب الأسيوي، والجانب الأوربي، ولكنا اخترنا أن نسكن في الجانب الأوربي، فهو الحافل بالآثار الإسلامية، والجوامع الضخمنة، والمكتبات والأسواق المغطّاة والمكشوفة، وغيرها.

وبعد معرفتنا بجغرافية المدينة، رأينا أن أكثر الأماكن مناسبة هو ما كان حول منطقة (تقسيم) الشهيرة، التي تعتبر مركز القسم الأوربي من المدينة.

السكنى في حي شيشلي ومزاياه:

وفعلا في اليوم الثالث، وفقنا إلى شقتين مناسبتين جدا، لي وللأخ الجماز، وكلتاهما في منطقة تسمى (شيشلي) وهي منطقة راقية وهادئة وآمنة. أشبه بحي العجوزة أو الدقي بالقاهرة الكبرى. وكانت أجرة الشقة معقولة بل رخيصة جدا، فهي في الشهر 500 ليرة تركية، وكان الدولار يصرف بـ 12 ليرة. يعني أن أجرة الشقة الشهرية ـ وهي مفروشة ومجهزة بكل اللوازم ـ نحو 40 دولارا.

وكان للسكنى في حي شيشلي مزايا كثيرة، منها: القرب من حدائق كثيرة، كنا نذهب إليها معظم الأيام، مصطحبين الأطفال، ليسرحوا في هذه الحدائق ويمرحوا، ويلعبوا بالأراجيح والأدوات الكثيرة والمتنوعة، المهيئة للأولاد.

ومعظم هذه الحدائق مجانية معدة لخدمة أبناء الشعب، وقليل جدا منها هو الذي يحتاج إلى دفع رسوم. لأنها تحتوي آثارا مهمة، وهي رسوم غير باهظة.

ومن المزايا التي اكتشفناها لمنطقة (شيشلي): أنها تتمتع بـ (سوق متنقلة) تقام بها في كل أسبوع مرتين.

يأتي الباعة من كل الأصناف: الخضروات والفواكه واللحوم، وأنواع المأكولات والملبوسات، ويفرش التجار، ويعرضون بضائعهم، فيبيعونها بأثمان معقولة جدا، وفي آخر النهار حينما يريد كل بائع أن يصفي ما عنده: تباع البضاعة بأقل من نصف ثمنها.

ومن هذا السوق اشترينا كل حاجاتنا، وخصوصا مع رخص الليرة، وقدرتها الشرائية العالية في ذلك الوقت.

وأذكر أننا لقينا الأخ الصديق الأستاذ عبد الحميد طه، زميلنا في قطر، والذي سبقنا مع أسرته إلى استانبول، والذي أخبرنا أن الأسعار هنا رخيصة بالنسبة إلى لبنان. وكان يقول: اقسم على أربعة تعرف الفرق. أي أن الليرة اللبنانية تساوي 4 ليرات تركية.

وكان من مزايا منطقة شيشلي: أنها قريبة من المحلات الكبيرة المتخصصة في بيع اللحوم، وقد اكتشفنا هذه المحلات التي تبيع اللحوم مصنفة ومقطعة ومجهزة.

فمنها: ما يباع قطعا كبيرة، فخذا أو كتفا. ومنها: ما يباع قطعا صغيرة تصلح للسلق أو للشيّ، أو لغير ذلك.

ومنها: ما هو مقطع بالفعل وموضوع على السيخ ومعد للشي مباشرة.

وكانت هذه اللحوم في غاية الجودة، وغاية الرخص، وقد دعونا بعض الإخوة الأتراك على غداء أو عشاء، وأطعمناهم من هذه اللحوم، فسألونا: من أين لكم بهذه اللحوم الجيدة؟! لقد عرفنا من

خبايا استانبول ما لم يعرفه أهلها الذي يعيشون فيها، لأنهم يعيشون غالبا في مناطق شعبية ليس فيها هذه الإمكانات.

زيارة الجوامع والمتاحف والآثار:

اكتشفنا هذه المزايا للمنطقة التي وفقنا الله للسكنى فيها، فكانت قريبة من كل ما ذكرناه.

كما كانت قريبة من مناطق الجوامع والآثار العثمانية الفريدة، التي بدأنا نخطط لزيارتها، فزرنا (جامع السليمانية) الشهير، وهو تحفة معمارية إسلامية، قلما يوجد لها نظير، في أعمدته وقبته وزخارفة.

وكان المسجد أو الجامع عند الدولة العثمانية: مؤسسة كاملة، تقام بجواره مكتبة علمية، ومساكن للطلاب، وحدائق تجمل المكان، وتملؤه بهجة، وتجعل منه روحا وريحانا.

وزرنا كنيسة (آيا صوفيا) الشهيرة التي حولها السلطان محمد الفاتح إلى مسجد، وغطى الصور والتماثيل الموجودة فيها، وظل المسلمون عدة قرون يصلون فيها، فلما حدث الإنقلاب العلماني في عهد أتاتورك، وألغيت الخلافة، وعطلت الشريعة، وحذف كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، حتى الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية: ألغيت واستبدل بها الحروف اللاتينية، حتى الأذان منع باللغة العربية، في هذه الحالة ألغيت مسجدية آيا صوفيا، وحولت إلى متحف!

وقد كان بعض العلماء والدعاء الكبار إذا دخلوا هذا الجامع، صلوا فيه ركعتين. أول من علمته فعل ذلك: الداعية الفقيه الشيخ مصطفى السباعي، وحينما زارها العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي، قال:

سن لنا الشيخ السباعي سنة حسنة، فصلى فيها ركعتين. وقد حاولت أن أفعل ذلك، فلم يمكني الحراس، وقالوا: هذا ممنوع.

وبعد زيارة (آيا صوفيا) اتجهنا إلى زيارة (جامع السلطان أحمد) بجوارها المعروف بـ (الجامع الأزرق). وقد بناه السلطان ليضاهي آيا صوفيا. فكان آية من آيات الفن وروعة العمارة الإسلامية، وفاق آيا صوفيا بجماله وجلاله. ولذا ترى آلاف السياح، بل عشرات الآلاف كل يوم يفدون إليه من كل حدب وصوب، ويستمتعون برؤية آيات الفن والجمال والإبداع في جدرانه وأركانه وأعمدته وسقوفه ومآذنه، وأبوابه ونوافذه ومداخله، يصورونه من كل مكان وناحية. وقد سمعت الأستاذ جارودي يتحدث عنه كما يتحدث العاشق عن معشوقته.

وهذا الجامع ـ كجامع السليمانية ـ مؤسسة شاملة، تضم مكتبة ومساكن وحدائق وملحقات.

تجربة متميزة في استانبول:

وبمناسبة ذكر جامع السلطان أحمد، أذكر تجربة مهمة شهدتها في ذلك الصيف في مدينة استانبول، فقد بدأت فيها حركة دينية، وبدأ وعي إسلامي يؤتي ثمراته، على مستويات عدة.

وكان من هذه الثمرات: الدعوة إلى صلاة الفجر في المساجد الكبرى كل فترة معينة، وتولى الدعوة إليها الأخ الصحفي المعروف صاحب جريدة (بوجون) اليومية و(بوجون) معناها: اليوم.

والمطلوب: أن يجتمع الناس في مسجد محدد لصلاة الفجر، وقد حضرت هذه الصلاة مرتين: مرة في جامع السلطان أحمد، ومرة في جامع (بايزيد).

وقد تجمع في هذه الصلاة عشرات الألوف، كنت تجد الناس قبل الفجر، كخلايا النحل، متجهين إلى المسجد المقصود بالحافلات، وباللوريات، وبالتاكسيات، وبالدراجات، ومشيا على الأقدام. منظر - والله - يشفي صدور المؤمنين، ويغيظ الكفار والذين في قلوبهم مرض.

لا يفعل المصلون شيئا غير الصلاة، لا درس ولا خطبة ولا هتاف، ولا شيء من هذا. إنه تجمع صامت، ولكنه صمت أقوى وأبلغ من كل كلام.

وبعد الصلاة يقوم الأخ الداعي إلى هذا التجمع الإيمان - اسمه رفعت ونسيت باقي اسمه - فينادي الناس بالانصراف.

هذا التجمع الصامت أزعج القوى العلمانية، يكفي أنه أثبت قدرة الإسلاميين على تجميع أعوانهم - إذا دعوهم - في أي وقت من ليل أو نهار. وأن استجابة الأعوان بهذه الكثافة، وبهذه السهولة، وبدون تقديم أي مساعدة، لهو أكبر دليل على أن في الزوايا خبايا، وأن المستقبل حافل بكثير من التوقعات.

وهكذا ظللنا كل يوم، أو كل عدة أيام نزور معلما من هذه المعالم الشامخة، التي تركها آل عثمان، أمارات ناطقة على علو كعبهم في الحضارة والعمران.

ومنها: متحف (طوب قبي) أكبر متاحف استانبول، والذي يضم آثار معظم سلاطين آل عثمان، وقد ظللنا ساعات نطوف فيه حتى كلت أقدامنا، وزرنا الحجرة التي تضم بعض الآثار النبوية، ومنها:

الرسالة التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وقد أجريت بعض الدراسات على هذه الرسالة، فثبتت صحتها، وألفاظها هي نفس الألفاظ التي روتها كتب الحديث، فكان هذا برهانا إضافيا على صدق السنة النبوية الشريفة، وثبوت ما روي فيها بأسانيد صحاح.

ومن المعالم التي زرناها: قصر السلطان عبد المجيد، ويسمى (ضُلْمة بخشه) وهو ـ وإن دل على ما وصل إليه السلاطين من غنى ورفاهية وفخامة وأبّهة تبهر الأبصار ـ يدل على انغماس السلاطين في آخر عصورهم بمظاهر الترف، والإغراق في أسباب المتعة والسرف، وهي بداية التدحرج والنزول من القمة إلى السفح. كما يقرر ابن خلدون في مقدمته.

مسجد السلطان الفاتح:

ثم زرنا مسجد السلطان محمد الفاتح، وهو أول مساجد استانبول، بناه الرجل الذي فتح الله على يديه القسطنطينية، وقد حاول المسلمون منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم أن يفتحوها، ومات على أسوارها سيدنا أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دفن خارج أسوار المدينة، ثم أنشئت المدينة فأصبح قبره هناك داخلها، وبني بجواره مسجد، وسمي باسمه حي كبير باسم (أيوب).

وكان الخلفاء يأخذون البيعة في هذا المسجد، ويهتمون بأمره، ويعتقدن أن فيه بركة خاصة، على أن البركة الحقيقية إنما هي في العزائم الصادقة، والنيات الخالصة، والأعمال المتقنة.

كان الصحابة يريدون أن ينالوا الحظوة بفتح القسطنطينية، التي بشر بفتحها الرسول الكريم، وادخر الله هذا الفضل لهذا الفتى العثماني الذي فكر في فتحها، وهو ابن التاسعة عشرة، وافتتحها وهو ابن الثالثة والعشرين، فتحها في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة 857 هـ الموافق 1453/5/28م.

قرأ هذا الشاب في كتب الحديث: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش جيشها" فتاقت نفسه أن يكون هذا الأمير، وأن يكون جيشه هو ذلك الجيش. وفعلا كتب له القدر أن يفتحها.

وفعلا كتب الله هذا الفخر لمحمد بن مراد، الذي لقب بـ (محمد الفاتح) الذي غير اسم المدينة، فسميت (اسلامبول) أو (استانبول) بدل اسمها القديم، الذي نسبت فيه المدينة إلى الملك الروماني الشهير (قسطنطين) الذي كان وثنيا ثم تحول إلى النصرانية، ولكنه لم يتحول إلى النصرانية الحقيقية، بقدر ما حول النصراينة إلى ديانة مطعّمة بالوثنية الرومانية، حتى قال بعض أئمة المسلمين: لم تتنصّر الرومانية، بقدر ما تروّمت النصرانية.

زرنا مسجد الفاتح وملحقاته، وقرأنا الحديث الذي علق فيه: "لتفتحن القسطنطينية ... الحديث".

فتح جدير أن يذكر فلا ينسى:

هذا الفتح أو هذا المجد الذي ادخره الله للأتراك، والذي كان من حقهم أن يعتزوا ويغالوا به، ويفخروا على غيرهم: جاءت العلمانية الأتاتوركية، فأهملته، بل غشته بغشاء كثيف، حتى ينسى فلا يذكر، ويجهل فلا يعلم.

إلى أن جاء الزعيم الإسلامي د. نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاة الإسلامي، فأحيا هذه الذكرى، وجعل منها مناسبة سنوية يدعى فيها رجالات الدعوة والفكر في العالم الإسلامي. وقد دعت مرتين، وشهدت هذا الحفل الرائع، الذي يمثل فيه الفتح، ويتكلم فيه أربكان وبعض رجاله، وبعض ضيوفه، ويحضره نحو مائتي ألف من الأتراك. وقد تكلمت في تينك المرتين كلمة بهذه المناسبة، كان لها أثرها في أنفس إخواننا الأتراك. ولا أدري: هل بقي الاحتفال بهذه المناسبة كما كان أو توقف بعد أن حوكم أربكان، وحظر عليه العمل السياسي فترة من الزمن؟

لقاء الشيخ أمين سراج:

كان من أهم ثمرات زيارة مسجد الفاتح: لقاء زميلنا وأخينا الكريم، وخريج كلية الشريعة بالأزهر الشريف: الشيخ أمين سراج، أحد مدرسي مسجد الفاتح، وقد سر بلقائنا غاية السرور، ورحب به كل الترحيب، وجددنا الذكريات القديمة حين كان يدرس في الأزهر، ويتميز بطربوشه التركي الذي كان يلبسه في الكلية، ثم غادر القاهرة، أظنه بناء على طلب السلطات المصرية، بتهمة أنه كان متعاطفا مع دعوة الإخوان المسلمين.

كان الشيخ أمين يتوقد حيوية وحماسا ونشاطا، في سبيل الدعوة إلى الإسلام، وإحياء الأمل في عودة الحياة الإسلامية إلى بلد الخلافة.

وقد كان الشيخ أمين همزة وصل بيننا وبين عدد من الجهات الإسلامية، منها:

1- الطلبة العرب الذين يدرسون في استانبول دراسات شتى من الطب والهندسة والصيدلة والاقتصاد وغيرها.

2- الإخوة (النوريون) أتباع الشيخ المجدد المربي بديع الزمان النورسي، الذي قاوم الكماليين، وأقام جماعة صوفية تتميز بالإيجابية والعمل الهادئ لتغيير المجتمع من داخله بتغيير ما بنفسه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

3- الإخوة الأتراك المستنيرون، الذين لهم اتصال بالدعوة الإسلامية العالمية، ولهم لقاءاتهم وموجهوهم.

الطلبة العرب:

كان من ثمرات لقائنا بالشيخ أمين سراج: أن أوصلنا بإخواننا الطلبة العرب – وخصوصا الإسلاميين منهم - الذين يدرسون في جامعات استانبول، وكان معظمهم من أبناء فلسطين والأردن والعراق، وسورية، وأقلهم من مصر.

طه الجوادي:

وكان أبرز الطلاب الذين عرفنا عليهم الشيخ أمين: الطالب العراقي الملتزم المخلص، وهو الدكتور طه الجوادي، الذي كان يدرس الدكتوراه في الطب، وكان متزوجا من تركية، وكان شعلة من النشاط، وقد وضع نفسه وإمكاناته في خدمتنا، وتوصيلنا بإخوانه الطلبة، لنلتقي بهم، ونحضر جلساتهم، ونسهم في توجيههم.

كما جعل نفسه في خدمتنا، وبخاصة أنه يملك سيارة مرسيدس، خصصها لنقلنا كلما شئنا، فهو ينقلنا إلى الأماكن البعيدة، ويصر على أن يقدم هذه الخدمة، حتى أخجلنا بخدماته وعطائه غير المحدود، الذي لا يبتغي من ورائه جزاء ولا شكورا، ولكنه –

جزاه الله خيرا- كان يتصرف بمقتضى الأخوة الإسلامية، التي تجعل كل مسلم في خدمة أخيه وفي عونه، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.



النُّوريون:

كما وصلنا الشيخ أمين سراج بالإخوة النوريين، الذين كانوا يقومون بنشاطهم الديني الخالص،

ويعقدون جلساتهم التربوية الروحية، التي يتدارسون فيها غالبا: رسائل المربي الكبير وشيخهم الروحي، بديع الزمان النورسي، التي تسمى (رسائل النور) والتي ترجم كثير منها إلى العربية، وقرأت بعضها، فوجدت فيها: أن هذا الرجل ممن يدعو إلى الله على بصيرة، وأنه عميق الحاسة الروحية، وأنه دقيق الفهم للقرآن الكريم.

وكان الإخوة النوريون يقتصرون على هذا النشاط الروحي أو الديني، ولا يتدخلون في السياسة، وكأنهم يعلمون أن هذه الطريقة الهادئة الطويلة النفس، هي الجديرة بتغيير المجتمع على المدى البعيد، ولهذا كانوا يعقدون هذه الجلسات في سرية وتكتم، دون إعلان ولا ضجيج.

وكان رئيسهم في ذلك الوقت الأستاذ زبير، وأحد المسؤولين عن الشباب الأستاذ ثروت، وقد دعوني لزيارتهم، وحضور بعض

جلساتهم في تخفٍّ وكتمان، وقد استجبت لهم، وزرتهم في عدد من الجلسات وساعدني على التخفي: أني كنت في ذلك الوقت ألبس (البذلة الإفرنجية) في فترة الصيف، فلا ألبس الزي الأزهري، ولا الزي الخليجي، الذي يلفت الأنظار، ويثير الانتباه في ذلك البلد.

إن الشعب التركي –برغم سيطرة العلمانية على كل شؤونه التشريعية والتعليمية والإعلامية والسياسية والاجتماعية- لا زال شعبا مسلما في أعماقه، ولا زالت كلمة الإسلام تجد الاستجابة إذا وجدت الداعية الذي يفقه دينه، ويفقه عصره، ويفقه واقعه.

وحدثني الإخوة: أن الشعب التركي رحب بـ(عدنان مندريس) حين أتاح للناس قدرا معقولا من الحرية الدينية، وأعاد للدين بعض الاعتبار، حتى إنه أعاد الأذان باللغة العربية بدل التركية.

ولقد حدثني بعض الإخوة: أن أبناء الشعب حينما سمعوا لأول مرة بعد انقطاع عشرات السنين: الأذان باللغة العربية، وسمع الناس كلمة (الله أكبر، الله أكبر): سجد الناس في الشوارع شكرا لله تعالى، وعانق الناس بعضهم بعضا، وهنأ بعضهم بعضا.

وقد انقلب الجيش التركي –الذي يحرس العلمانية والمسنود من القوى الغربية- على عدنان مندريس، وقضى على حكومته، وأصدر حكمه بإعدامه، وقتل الرجل، وأخفي قبره، حتى لا يقدسه الشعب التركي، ويعتبره وليا من أولياء الله، ولا يزال قبره مجهولا إلى اليوم.

وفي نهاية الإجازة جاء الإخوة النوريون، وودعوني، وأهدوني سجادة صلاة قيمة من السجاد التركي اليدوي، لا تزال عندي إلى اليوم.

الأستاذ ماهر إزّ:

كما وصلني الشيخ أمين سراج بالبروفيسور الأستاذ ماهر إزّ، الذي كان أحد المنارات في إستانبول، وكان له حلقة تدور حوله من خيار الشباب المثقفين والمستنيرين، والمتصلين بالدعوة الإسلامية العالمية، وكان منهم: أخونا مصطفى بلجة (الدكتور مصطفى بعد ذلك) الذي تعبت في البحث عنه من قبل، فلم أتوصل إليه، فلقيته وتعرفت عليه، ووجدت فيه الفكر النير، والوعي البصير، والالتزام الصادق، مع نورانية وإشراق، وكانت بداية لصلة وثيقة، وأخوة عميقة، امتدت واستمرت إلى اليوم.

كما عرفت في حلقة ماهر إزّ: الأخ الفاضل عثمان أوز توك (د. عثمان بعد ذلك) وهو على شاكلة مصطفى بلجه، وكل تلاميذ الأستاذ (إز) من الصفوة التي جمعت بين حسن الفهم، وصدق الإيمان، وقوة الغيرة على الإسلام، والعمل لنصرة قضاياه.

كان الأستاذ ماهر إز حفيا بلقائي، وسر به سرورا بالغا، وقد قال لي أمام الملأ: إنه وجد في شخصي ما كان يفتقده في علماء الدين في تركيا، الذين لم يكن ينقصهم الإخلاص والحماس للدين والشريعة، ولكن كان ينقصهم – في رأيه- معايشة العصر، وتجديد الاجتهاد في قضاياه الحديثة في ضوء مقاصد الشريعة، ومعطيات العصر وحاجات الناس.

صالح أوزجان:

وممن لقيته هناك: الأستاذ صالح أوزجان، عضو رابطة العالم الإسلامي، وصاحب مؤسسة (الهلال) الصحفية، والذي كان قد لقيني قبل ذلك في لبنان، وأخذ مني حق ترجمة كتاب (الحلال

والحرام) وغيره من كتبي إلى التركية ونشرها، وكتب معي عقدا بذلك، وإن لم ينفذ منه حرفا واحدا فيما يتعلق بحقوق التأليف!

وقد أخبرني الإخوة الأتراك: أن الصحف تتحدث عن دارين للنشر، تختصمان – في أيهما أحق بنشر كتابي (الحلال والحرام): دار الهلال، ودار أخرى لا أذكر اسمها. وأعتقد أن الأستاذ أوزجان كسب القضية في المحكمة، بما معه من عقد موقع مني.

كتاب (الناس والحق):

ومن الطرائف: أني كنت أطوف أنا والشيخ أمين سراج على بعض المكتبات التي تعتني ببيع الكتب الإسلامية، لنأخذ فكرة عن الكتب التي تحتويها دور النشر في هذه الأيام، فقدمني الشيخ أمين لصاحب المكتبة، وقال له: هذا فلان، فرحب الرجل بي، وقال: عندنا كتابه قد نشرناه (الناس والحق) ترجمة الأستاذ فلان، وذكر اسم المترجم.

ولهذا الكتاب قصة، فقد أرسل إلي في قطر أحد الإخوة الباحثين الناشطين من الأتراك، بطلب الأذن مني بترجمة كتاب (الناس والحق) إلى التركية، وكان الكتاب قد نشره المكتب الإسلامي الذي يملكه الأخ الشيخ زهير الشاويش، في بيروت. فأرسلت لهذا الأخ التركي بموافقتي على الترجمة، على أن تراجعه شخصية علمية تركية معروفة، وأنا أقترح أن يراجعه صديقنا الدكتور على أرسلان أيْدن: زميلنا في الدراسات العليا في كلية أصول الدين، وقد كان هو في شعبة العقيدة والفلسفة، وأنا في شعبة التفسير والحديث، أو القرآن والسنة.

وذهب الأخ بعد أن ترجم الكتاب، فعرضه على الدكتور علي أرسلان، فرده وطلب منه أشياء يجب أن يراعيها، وظلا في أخذ ورد، وإذا بنا نفاجأ بهذا الأخ الذي ترجم الكتاب دون إذن من أحد! ولكني سألت الإخوة عن الترجمة، فأثنوا عليها، فقلت: هذا هو المهم، والحمد لله.

د. علي أرسلان أيدن:

وبهذه المناسبة، سألت الشيخ أمين سراج عن الدكتور علي أرسلان، وكيف يمكن أن نراه، ونجدد عهدنا به، فقد عرفته عالما فاضلا، وباحثا متعمقا، فوعدني أن يتصل به، ويأخذ منه موعدا نلتقي فيه.

وما هي إلا أيام حتى زارني الدكتور علي، وسعدت بلقائه، وأصر على أن يدعوني أنا وأسرتي إلى بيته، ولم يسعني إلا أن أجيب، وزرناه أنا والعائلة، وقضينا يوما طيبا، تعرفنا فيه على أسرته، وكان معنا الشيخ أمين أيضا، وأكلنا الشهي من الطعام، وجددنا الطيب من الذكريات، وتذاكرنا في أحوال المسلمين في العالم، ومستقبل الإسلام في تركيا.

وفي آخر النهار عدنا إلى حيث نقيم في شيشلي.

محاولة تعلم التركية:

في هذه المدة بدأنا نتعلم شيئا من اللغة التركية، وقد أعطى لنا بعض الإخوة كتابا في تعلم التركية، استفدت منه كثيرا، والحقيقة أن اللغة التركية لغة سهلة جدا، ومما يزيد في سهولتها: وجود

كلمات عربية كثيرة بها، فهي مزيج من العربية والفارسية والطورانية القديمة، وإن كان العلمانيون منذ أتاتورك يحاولون أن يفرغوها من الألفاظ العربية، كما حرموا كتابتها بالحروف العربية، فقطعوا أجيال الأمة عن تراثهم كله، وعزلوها عزلا تاما، وكان هذا مقصودا لهم.

عرفت الأرقام، وحفظها سهل، وبعضها مستعمل في بلادنا. مثل كلمة (بير) أي واحد، (بيرنجي) أي الأول، وكنا نقول في المدرسة: فلان بيرنجي الفصل، أي الأول عليه.

وكلمة (أون) أي عشرة، و(يوز) أي مائة، و (بن) أي ألف، وفي الرتب العسكرية: نجد رتبة (أون باشي) أي رئيس عشرة، و(يوز باشي) أي رئيس مائة، و (بن باشي) أي رئيس ألف. وهو الذي كان يسمى أيضا: (بكباشي).

وهناك كلمات تركية منتشرة بيننا مثل (أوده) أي حجرة، ومثل (اختيار) أي كبير السن، ومثل: يا واش يا واش، بمعنى: على مهلك... الخ.

ومن المفارقات اللغوية الطريفة: أن الإخوة دلونا على مطعم في أقصراي يقدم أكلات طيبة، ولا يقدم خمرا، فكنا نؤثر أن نذهب إليه بين الحين والحين، وكنا نطلب منه بعد الطعام: طبقا من البطيخ فإذا هو يقدم لنا طبقا من الشمام. وتكرر ذلك عدة مرات، ثم اكتشفنا سبب هذا الخطأ، وهو أن الكتاب الذي نتعلم منه التركية كتب أمام كلمة (بطيخ): كلمة (قاوون) بالتركية، وكلمة (بطيخ) عند العراقيين، ومنهم مؤلف الكتاب: معناها (الشمام)، أما ما يسمى عندنا (البطيخ) نحن المصريين، فاسمه عندهم : (الرّقّي) .

والبلاد العربية تختلف في بعض الأشياء اختلافا شاسعا، تضلل من لم يحط بها علما، من ذلك ما يسمى به هذه الفاكهة، فالمصريون يسمونها البطيخ، وفي معظم بلاد الشام يسمى البطيخ الأخضر، والشمام : البطيخ الأصفر، وفي الحجاز يسمى: الحبحب، وفي قطر ونجد يسمى: الجح، وفي حلب وما حولها يسمى الجبَس، وفي العراق يسمونها: الرقي (نسبة إلى مدينة الرقة) في بلاد المغرب كلها، يسمى: الدلاع.

المهم أننا عرفنا أن البطيخ (المصري) يسمى بالتركية (قربوز) فبدأنا بطلب (قربوز) إذا أردنا البطيخ، (وقاوون) إذا أردنا الشمام.



متحف آيا صوفيا

التسوق:

والذي يزور تركيا لا بد له أن يزور أسواقها، وفيها أسواق كثيرة، من أشهرها (السوق المغطى) ويسمى (قبالي تشارشي) وتشارشي: سوق، وقبالي: مغطى.

وهو سوق كبير حافل، ومنه تشترى التحف من النحاس، ومن الرخام، ومن غيرهما، كما تشترى منه أشياء أخرى كثيرة.

وهناك أسواق للمأكولات، وخصوصا الأجبان والحلويات وأنواع المَلْبن، الذي يسميه إخواننا في الشام (راحة) أو (راحة الحلقوم).

وهناك أسواق الملبوسات، وقد تميز الأتراك بصناعة أنواع من الملبوسات وخصوصا للنساء، بعضها من الصوف، وبعضها من أنواع نسيت اسمها، تصلح في الربيع والخريف، بل في الصيف أيضا.

وكانت الأسعار رخيصة بالنسبة لغيرها من الأقطار الأخرى، ومنها قطر ولبنان.

وبالممارسة والخبرة والمعايشة، عرفنا هذه الأسواق، وعرفنا كيف نصل إليها بأقدامنا، وعرفنا الأماكن والمحلات الأكثر رخصا من غيرها، رغم جودة السلعة، وقد اشترينا كل ما نحتاج إليه لأنفسنا ولمن نحب أن نهدي إليه.

زيارة الجزر:

واقترح علينا الأخ طه الجوادي: أن نزور (الجزر) المشهورة في بحر مرمرة، وهي معالم لا بد لمن يزور استانبول أن يزورها.

وهذه الجزر تزار بواسطة بواخر معينة، دلنا الإخوة عليها، وصحبَنَا بعضُهم، وكنا وأسرة الشيخ الجماز معا، وتبدأ الزيارة عادة بالجزر الصغيرة، ثم تنتهي بالجزيرة الكبرى، ويسمونها (بيوك أضا) وأضا: معناها جزيرة، وبيوك: معناها: أكبر، أو كبرى، فالمعنى: الجزيرة الكبرى، ومن خصائص هذه الجزيرة:

أنها لا تمشي فيها سيارة، بل يمنع دخول السيارات إليها ولكن ينتقل الناس بعربات الخيل، التي نسميها في مصر (الحنطور). فمن أراد أن يطوف بالجزيرة، ويطلع على معالمها، استأجر حنطورا، مر به في دورة معلومة، وعاد به إلى حيث بدأ، وهذا ما فعلناه.

ثم تناولنا الغداء هناك، وعدنا آخر النهار بحفظ الله تعالى.

زيارة يالُوَا وترمل:

ومن المعالم المهمة التي يجب أن تزار: منطقة (يَالُوا) وحمامات ترمل، ومدينة (بورصة) التاريخية. وقد جاء أحد الإخوة معنا ليوصلنا إلى هناك ثم نعود.

وركبنا الباخرة السريعة (اكسبريس) من مرساها في استانبول، لتذهب بنا إلى شاطئ يالوا، وقطعنا المسافة في ساعين على ما أذكره، وهي رحلة بحرية جميلة في ذاتها، تستمتع فيها بالبحر ونسيمه، وحين ذهبت إلى يالوا، لم نقم بها، فإن قصدنا هو منطقة ترمل بعدها بنحو بضعة عشر كيلو مترا على ما أذكر أو أقل من ذلك.

واستأجرنا سيارتين واحدة لأسرتي، وواحدة لأسرة الأخ الشيخ الجماز، لنصل إلى قرية بجوار حمامات ترمل، اسمها (جوكشدرا) وفيها ستكون إقامتنا لمدة عشرة أيام.

والواقع أننا وجدنا هذه القرية بسيطة وجميلة وممتعة، ووجدنا فيها بيتا ريفيا مناسبا، فيه شقق للإيجار، أخذنا شقة لنا، وشقة للأخ الشيخ علي. وكان أهل البيت من الفلاحين الطيبين المتدينين، كنا نشتري منهم في الصباح: اللبن الحليب الطازج بعد أن يحلبوه من

البقرة، ونشتري الخضروات والفواكه واللحوم من السوق، وهي في منتهى الجودة، ومنتهى الرخص. وأحيانا يمر باعة الفواكه والخضر أمام البيت، ونشتري منهم ما نريد.

وكان الخوخ أو الدرّاق كما يسمه إخواننا في الشام – ويسمى بالتركية الشفتلي – من أجود الفواكه وأرخصها.

وكنا نذهب إلى الجزار، ومعنا الخضار والبصل، ليعد لنا (براما) من اللحم، نذهب به إلى الفرن، لينضجه لنا على نار هادئة، على أن نتسلّمه في ساعة محددة، وهي أكلة شهية جدا.

وكنا نذهب كل يوم في الصباح، وفي المساء غالبا، إلى منطقة ترمل، مشيا على أقدامنا، فهي قريبة جدا، ومن أراد دخول الحمامات – وهي معدنية- دخلها. ومن لم يرد جلس في الحديقة الفيحاء، يستمتع بهوائها وأزهارها المنسقة، وما فيها من أراجيح وألعاب للأطفال، وهي فسحة يومية مجانية رائعة.

وفي القرية مسجد نذهب إليه، ونؤدي فيه صلاة الجماعة، وأذكر هنا: أن صلاة الجماعة في المساجد التركية جميعا في المدن والقرى، لها مراسم تلتزم، ومصبوبة في قوالب لا يجوز لأحد أن يغير فيها شيئا، فبعد الأذان تصلي السنة القبْلية الراتبة: ركعتين أو أربعا، ثم تقام الصلاة، ويصلي الإمام، والناس خلفه صامتون لا يقرأون، سواء كانت صلاة جهرية أم سرية، كما هو رأي المذهب الحنفي، وهو مذهب الأتراك الملتزم، ثم بعد السلام، يقول الإمام والمصلون: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، ثم يقومون لأداء صلاة السنة البَعْدية، مؤخرين التسبيح والتحميد والتكبير، لما بعد النافلة، كما هو رأي الحنفية.

ثم يجلسون لختام الصلاة، وفي كل مسجد عدد من المسابح يوزعونها على المصلين، ليعدوا عليها التسبيحات الثلاثة وثلاثين، وكذلك التحميدات والتكبيرات، ثم يختمون المائة بـ(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحي ويميت وهو على كل شيء قدير)، يقولها الإمام بصوت مسموع، والناس يرددونها معه، ثم يقول الإمام: (سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب) ويدعو الله، ويدعو المصلون كل بما يحب، ثم يختم بقراءة عشر من القرآن الكريم. ويسلم بعضهم على بعض ثم ينصرفون، وهذا نظام صارم لا يجوز لأحد أن يخالفه، فيخرج بعد صلاة النافلة أو بعد ختم الصلاة، قبل قراءة القرآن، ناهيك بالخروج بعد صلاة الفريضة!

وأذكر أنه زارنا في هذه القرية الفقيه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، الذي نزل في فندق القرية لعدة أيام، وقد سعدنا به في جلسة علمية نافعة، وكان مع أهله رحمه الله.

زيارة بورصة:

ومن قرية (جوكشدرا) عزمنا الرحيل إلى مدينة بورصة بواسطة الحافلة (الباص) وبعد أكثر من ساعة وصلنا المدينة العريقة، التي كانت عاصمة العثمانيين قبل استنابول، ويقال: إنها في موضع (عمورية) التي وقع فيها الوقعة الشهيرة للخليفة "المعتصم" حين استغاثت به إحدى المسلمات، لما لطمت على خدها، فقالت: وامعتصماه: في القصة الشهيرة المعروفة.

ووصلنا إلى المدينة واستأجرنا فيها فندقا لمدة يومين على ما أذكر، وكان أهم ما في المدينة هو جبالها العالية الشاهقة، التي يوصل إليها بطريق هذا الباص الهوائي المسمى (التليفريك) فذهبنا إلى

محطة، وقطعنا التذاكر، وانتظرنا دورنا، فقد كان هناك زحام ملحوظ.

وركبنا التلفريك، الذي ينقلنا إلى محطة ثم يأخذنا تلفريك آخر إلى محطة أعلى، حتى نصل إلى الجبل المنشود، وفيه برودة ملحوظة، قد حسبنا حسابها، وتلفعنا ببعض الملابس المناسبة.

وفوق الجبل المنشود، توجد محلات وأسواق، وباعة لكثير من الأشياء، وأهمها: اللحم المعد للشواء، وأدوات الشي، والفواكه المختلفة، ولا سيما البطيخ الذي يسمى عندهم (الكربوز).

والأكل فوق الجبل له لذة خاصة، فأكلنا وشبعنا، وقلنا: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين، اللهم لك الحمد على ما أطعمت، ولك الحمد على ما سقيت.

ثم أخذنا (تليفريك) آخر، نطوف به، أو يطوف بنا، في أنحاء الجبل، ولا سيما في المناطق العليا منه، وبعد أن قضينا يوما كاملا، نزلنا إلى الأرض بالتلفريك أيضا، وذهبنا إلى الفندق لنقضي به ليلتنا.

وفي اليوم التالي، ذهبنا إلى (حمامات بورصة) المعدنية، التي يأتي إليها كثير من الناس للاستشفاء، وما دمنا موجودين في المدينة، فلنستفد منها.

وبعدها تجولنا في المدينة وما حولها، وخصوصا الجبال التي يشترى منها العسل الطبيعي، التي قال الله تعالى: (فيه شفاء للناس) النحل: وبتنا ليلتنا الثانية هناك، ثم عدنا إلى (يالوا) ومنها إلى استانبول.

محاضرة في استانبول:

وبعد العودة إلى استنابول، أراد إخواننا الأتراك: الشيخ أمين سراج وإخوانه: أن ينظموا لي محاضرة عن (الزكاة) في مكان نسيت اسمه، حضرها عدد جيد من المشتغلين بالعلم والفكر الإسلامي، وأظن أن الذي كان يقوم بالترجمة، هو الصديق د.علي أرسلان أيدن، على ما أذكر، فطول المدة ينسي.

وعقب المحاضرة وجهت إلى بعض الأسئلة، أجبت عنها، وانصرف الجميع بعد ذلك بسلام.

سعد سلامة:

وكان ممن سعدت به في هذه الصيفية: الأخ الحبيب سعد زين العابدين سلامة، ابن طنطا، ورفيقنا في السجن الحربي، وأحد رواة (النونية) وقد هاجر إلى ألمانيا وأقام فيها، وتزوج ألمانية، اعتنقت الإسلام، وحكى لنا: أنه ذهب بها إلى مصر لتزور أهله وتتعرف عليهم.

ومن اللطائف: أن الأخ – وهو شاب ظريف- أراد أن يضحك أهله، فحفظ امرأته جملة تقولها إذا سألوها عن شيء، فترد عليهم قائلة: أنا حمار كبير! فما إن سألوها عن شيء، حتى قالت لهم: أنا حمار كبير، فانفجروا بالضحك، وسألتهم: لماذا يضحكون، فعرفوها معنى الكلمة، وأن سعدا، ضحك عليها، حين أفهمها أن لهذه الكلمة معنى آخر، وهو لا يقصد إلا المزاح، وإشاعة جو من الفكاهة والمرح.

وقد حكى لنا الأخ سعد عن الأيام الشداد التي مرت به، وخصوصا بعد أن انتهت صلاحية جوازه، وكان في حاجة إلى تجديده من

السفارة، ولو ذهب إلى السفارة لأخذت منه الجواز، ولم ترده إليه، فكان سعد يكتب في صفحة التجديد في الجواز: جدد بمعرفتي! ويوقع: سعد سلامه! وتنقل بهذا الجواز في أنحاء أوربا وكل من رآه يعتقد أنه جدد!

إلى منتجع يكجك:

وفي يوم من الأيام جاءنا الأخ الصديق د. طه الجوادي بسيارته المرسيدس، قائلا: أريد أن أنقلكم إلى منتجع جميل، في البر الآسيوي، اسمه (يكجك) وفيه بيت للأخ مصطفى بلجه، ليس فيه أحد، يمكن أن تقضوا فيه يومين.

وركبنا الباخرة التي تنقل السيارات، إلى الشاطئ الآخر، ثم ذهبنا إلى يكجك، وتركنا الأخ طه، وبقينا فيها يومين، أو ثلاثة ثم عدنا إلى مقرنا إلى استانبول.

رحلة في البحر الأسود:

ومما اقترحه علينا الإخوة: أن نذهب في رحلة في (البحر الأسود) تستغرق يوما كاملا، حيث تذهب السفينة إلى قرب الحدود، وننزل في المحطة الأخيرة، لنتغدى ونصلي ثم نعود إلى الباخرة، لنبدأ رحلة العودة، وكانت رحلة بحرية مميزة، قضينا فيها يوما من أجمل الأيام وأمتعها.

إجازة ممتعة:

الحق أن هذه الإجازة كانت إجازة ممتعة حقا، ومفيدة حقا، استمتعنا بزينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، فقد تعانق عنصر المنفعة وعنصر الجمال في كل مكان نذهب إليه، من حيث توافر الحاجات المادية التي تتطلبها المعيشة بأثمان زهيدة، وتوافر الجمال الطبيعي في كل مكان.

وأنا امرؤ أعشق الجمال في كل شيء، وخصوصا جمال الطبيعة، الذي أراه بعين رأسي: مجسدا في الجبال الخضراء، والمياه الزرقاء، والحدائق الغناء، والجوامع الشامخة، والقلاع الشاهقة، والمتاحف الناطقة، فتطربني هذه المشاهد، كما يطرب المرء لسماع البلابل، وألحان العنادل، ولا غرو أن يطرب المؤمن للجمال يشاهده، أو يسمعه أو يحسه، فإن الله جميل يحب الجمال.

لقد أراد عبد الناصر أن يقهرنا وينكد علينا حياتنا، حين أغلق وطننا في وجهنا، فعوضنا الله جل جلاله بالسياحة في الأرض، والتعرف على أوطان المسلمين: مرة في لبنان، ومرة في الأردن، ومرة في استانبول، وهذا ضرب من العدل الإلهي لا يدركه إلا الأقلون: إذا تركت شيئا لله عوضك الله ما هو خير منه، من حيث لا نقصد، وربما من حيث لا ندري.

عودة إلى أضنه بالقطار:

وكل ما له بداية له نهاية، وكان لابد لهذه الإجازة، أن تبلغ نهايتها، ونودع إخواننا وأحباءنا، في استانبول، وقد أكدوا علينا أن نعود مرة أخرى، وأكدنا لهم: أننا حريصون على هذه العودة، فلم نشبع بعد من هذه البلاد الجميلة.

بل إن بعض الإخوة أغرانا أن نشتري لنا في استانبول منزلا أو شقة في مكان مناسب، نقضي فيه إجازتنا كل صيف، وإذا لم يقدر لنا المجيء في سنة ما، يمكن إجارة هذا البيت، وقالوا لنا: إن عددا من الدعاة والعلماء تملكوا هنا بيوتا،، منهم الداعية الكبير الشيخ محمد محمود الصواف وغيره، ووعدناهم بأن ننظر في هذا العرض، في ضوء ظروفنا وقدراتنا.

واقترح بعض الإخوة: أن نعود إلى أضنه بواسطة القطار الذي ينقلنا إلى أضنه مرة واحدة، دون أن ننزل منه، ونأخذ غرفة في الدرجة الأولى ننام فيها بالليل، والقطار يأخذ حوالي عشرين ساعة.

وراق لنا هذا الاقتراح، لنكتشف هذه الوسيلة، إلى جوار ما اكتشفنا من وسائل النقل الأخرى: الحافلات، والبواخر وسيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي).

وفي الوقت المحدد حملنا حقائبنا، أو قل: حملها إخواننا جزاهم الله خيرا، وذهبنا إلى محطة القطار، أسرتنا وأسرة الأخ الجماز، وقد وقف عدد من الإخوة يودعوننا، كما ودعناهم، وأعيننا تذرف، فقد توثقت روابط الأخوة في الله بيننا وبين هؤلاء الأحبة، الذين بذلوا من أنفسهم ومن أوقاتهم، ومن راحتهم، وربما أموالهم، من أجل معاونتنا على حسن الإقامة، وأن نحيا في جوارهم حياة طيبة، جزاهم الله عنا خير ما يجزى المؤمنين الصادقين المخلصين.

وقد وصلنا إلى أضنه بعد رحلة شعرنا بمشقتها، وقد أثر دخان القطار على ملابسنا وعلى أجسامنا، ولذا أسرعنا بالذهاب إلى الفندق لنبيت فيه، ونزيل عنا عناء السفر، وأثار هذه الرحلة، فاغتسلنا وبدلنا ثيابنا، وبتنا ليلة في أضنه، نستقل بعدها الطائرة إلى بيروت.

العودة إلى بيروت وبعدها إلى قطر:

عدنا بالطائرة من أضنه إلى بيروت، وانطلقنا من المطار إلى سوق الغرب لننزل في (فندق فاروق) الذي نزلنا فيه قبل أن نذهب إلى تركيا، فأقمنا فيه حوالي أسبوع، حتى يأتي موعد سفرنا إلى قطر.

وفي هذا الأسبوع فرصة للقاء إخواننا من الدعاة في لبنان، وأن ألقى الناشرين الإسلاميين الذين أتعامل معهم، ابتداء من المكتب الإسلامي، ودار الإرشاد، التي نشرت لي: الإيمان والحياة، والطبعة الثانية من كتابي (العبادة في الإسلام) وهي طبعة موسعة بحيث أصبح الكتاب ضعف ما كان في الطبعة الأولى.

وقد اتفقت مع (مؤسسة الرسالة) على نشر سلسلة (حتمية الحل الإسلامي) وهي سلسلة خطرت لي منذ صدر (الميثاق) في مصر، وفيه تركيز على ما سماه (حتمية الحل الاشتراكي).

فأردت إصدار هذه السلسلة، مستخدما نفس ألفاظها، مبينا أن الحل الحتمي، والحل المنطقي، والحل الطبيعي، والحل الشرعي، الذي يتحتم الرجوع إليه شرعا ووضعا، هو (الحل الإسلامي).

ودعاني الإخوة في بيروت لإلقاء بعض المحاضرات التي دعت إليها (الجماعة الإسلامية) في لبنان.

وما هي إلا أيام، حتى حان موعد العودة إلى الدوحة، وفي الموعد استقللنا طائرة الشرق الأوسط، وكانت هي الطائرة الوحيدة، التي تنقلنا إلى قطر، وعدنا بحمد الله تعالى إلى الدوحة، لنبدأ شوطا جديدا، لسنة دراسية جديدة، نسأل الله سبحانه أن تكون خيرا من سابقتها.

السنة الدراسية 1967م، 1968م.

ميلاد ابني محمد:

في هذه السنة، وفي منتصف شهر أكتوبر: ولد ابني محمد الذكر الأكبر من أبنائي، وكان لولادته فرحة عارمة، لا في قلب أسرتنا فقط، ولكن في الدوحة كلها، فقد كان الناس مهمومين بأمري، ويدعون لي أن يرزقني الله بإخوة لبناتي الأربع، ولقد استجاب الله الدعاء.

ولا أنكر أني —ووالدته- فرحنا بمقدمه، وسررنا له سرورا خاصا، بحكم الطبيعة البشرية، فكل الناس يحبون أن يكون لهم أولاد من الجنسين وخصوصا من الذكور، فهم الذين يخلدون اسم الأب، وبهم يضمن استمرار العائلة، وبدونهم تنقرض العائلة بعد جيل واحد، وهذا ما جعل الشاعر العربي يقول:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد!

على أن الأولاد جميعا – بنين وبنات – إنما هبات المولى عز وجل لعباده، كما قال في كتابه: (له ملك السماوات الأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير) الشورى: .

وأذكر أن أحد مشايخي الذين كنت أعتز بهم، وأكن لهم الكثير من مشاعر الحب والتقدير، قد نصحني بعد أن رزقت بابنتي الرابعة أسماء: أن أكتفي بذلك، وأقف عند هذا الحد، ولا داعي لتكليف أم العيال بالحمل والولادة؟ ومما قاله لي: يبدو يا شيخ يوسف أن

حظك في البنات، وهن خير وبركة، فارض بما قسمه الله لك، وادع الله أن يبارك لك فيما أعطاك، ورُب أنثى خير من عدد من الذكور.

ولم أشأ أن أعترض على شيخي، أدبا واحتراما، ولكني لم أقتنع بما قاله لي، ولاسيما قوله: "ارض بما قسمه الله لك"! فمن أين أعلم: أن الله قسم لي الإناث دون الذكور، ولا زال باب الرجاء في فضل الله مفتوحا، وأنا في الثلاثينات من العمر، وزوجتي في العشرينات؟ ولا زلنا قادرين على الإنجاب؟

هذا إلى أن الامتناع عن الإنجاب قصدا غير محمود في مثل سننا ووضعنا، وقد اختلف الفقهاء في حكم العزل عن الزوجة –وهو من أسباب عدم الحمل- فمنهم من أباحه بشروط، ومنهم من كرهه، ومنهم من حرمه، واعتبره من (الوأد الخفي).

إنما يقال للإنسان: ارض بما قسم الله لك، فيما أصبح أمرا ثابتا، و لا يمكن تغييره، كما إذا خلقه الله أسود اللون، فلا ينبغي له أن يتحسر على أنه لم يولد أبيض البشرة! وكذلك إذا كان قصير القامة، أو مصابا بعاهة دائمة مثل العمى، أو كان محدود الذكاء، فهذه الأشياء وأمثالها هي التي يجب على المرء أن يرضى بها، فهي التي قسمها الله له، ولا يعيش متمنيا ما لا يكون.

وقد ورد في أسباب نزول القرآن: أن النساء تمنين أن يكون لهن مثل ما للرجل في كل شيء وهذا مخالف لمقتضى الفطرة، فنزل قوله تعالى: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما) النساء: .

على كل حال، كانت هذه نصيحة شيخي رحمه الله، وقد قالها من باب الإشفاق علي، ولكن القدر خيب ظنه، ورزقت بعد محمد

بابنين آخرين، هما: عبد الرحمن، وأسامه، فكما تتابع البنات الأربع، تتابع الذكور الثلاثة، والحمد لله على ما أعطى، اللهم ما أصبح وأمسى بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.

ومما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته: العقيقة، وهي ذبيحة من الغنم تذبح تقربا إلى الله تعالى، وشكرا على نعمائه، يوسع المرء بها على أهله وأولاده، ويهدي منها لأقربائه وأصدقائه، أو يدعوهم للأكل منها، ويوزع جزءا منها على الفقراء والمساكين، ليشركهم في أفراحه ومسراته.

وبعض المذاهب الإسلامية ترى أن يذبح عن الابن الذكر شاتين، لأن الناس يفرحون به أكثر، فعليهم أن يدفعوا مقابل هذه الفرحة، فيما فيه خير للناس.

والحمد لله، كانت عقيقة محمد: أربع خراف، اجتمع عليها الأصدقاء والأحبة من المصريين والقطريين والفلسطينين وغيرهم ممن يقيمون في قطر، حتى قال بعضهم: لقد دعينا إلى عقائق كثيرة، ولكن لم نذق ألذ ولا أحلى من هذه العقيقة! قلت: إنما حلاّها الحب، أما سمعتم المثل القائل: بصلة المحب خروف، فماذا يكون خروف المحب؟!!

وأود أن أقرر حقيقة هنا، وهي: أني ـ رغم شوقي إلى الأبناء الذكور وفرحتي الغامرة بابني الأول – لم ينل ذلك من حبي لبناتي الأربع، ولم يتغير قلبي من ناحيتهن، ولم أسرف في تدليل ابني الأول، كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال، التي يفقد فيها الآباء والأمهات فيها قيمة العدل والمساواة بين الأولاد، لا سيما مع المولود الأول، أو الابن (الذكر) الأول، أو المولود الأخير، الذي يقولون عنه: آخر العنقود، سكر معقود!.

فأشهد الله تباركت أسماؤه: أني لا أحس بأي تفضيل لأحد من أولادي –ذكورا وإناثا- على أخيه أو أخته، وكثيرا ما سألني الصحفيون في حواراتهم: أي الأولاد أحب إليك أو أقرب إلى قلبك؟ فأقول لهم: كلهم حبيب إلى، قريب إلى قلبي، لا يوجد (أفعل تفضيل) بين بعضهم وبعض، وهذه حقيقة أعلنها صراحة وأشهد الله عليها.

ولكني أشهد هنا شهادة مهمة أيضا، وهي: أن البنات نالهن من اهتمامي أكثر ما نال الأبناء الذكور. وسبب ذلك: أن الذكور رزقت بهم، في فترة الانطلاق والانتشار في العالم، فلم أفرغ لهم كما فرغت لإخواتهم. وربما أدرك محمد بعض هذا الاهتمام في سنواته الأولى أكثر من أخويه.

فقد كنت آخذه إلى المدرسة معي في سيارتي، وكانت مدرسة أبي بكر بجوار المعهد الديني، وكنت أسمع له القرآن في ذهابي به، بل كنت آخذه عدة مرات في المساء ليشارك في ألعاب (الجمباز) في المدرسة، وكان جسمه رياضيا، واستعداده جيدا.

كما أعترف هنا بأمر آخر، وهو: أني خلال أسفاري، في بلاد العالم، وخصوصا أوربا وأمريكا والشرق الأقصى: كنت أحاول أن أعود حاملا الهدايا لزوجي وأولادي. وكان الذي يزعجني دائما: أن 90% من المحلات التجارية الكبرى، تخص البنات والنساء، فأشتري لهن ما شاء الله، ولا أكاد أجد ما يصلح للأبناء. وهو أمر كان يحز في نفسي كثيرا، ولا أجد له حلا. وكثيرا ما كنت أصارحهم بذلك، حتى لا أتهم بالتحيز للبنات، مع أن الآباء يتهمون عادة بأنهم أميل إلى الذكور منهم إلى البنات.

ولقد كانت طفولة محمد هادئة وسوية ومريحة بفضل الله تعالى، ولم يحدث فيها مما يزعج أو يقلق، بل مرت خفيفة لطيفة، كما تمر نسمات الصباح في أيام الربيع.

ولم يكن أخواته البنات يشعرن بغيرة منه، أو منافسة له، أو نحو ذلك، بل كن جميعا يحببنه ويتنافسن على حمله، وفي أسفارنا كانت كل واحدة تحرص على أن يكون لها حظ في حمل (ميمي) وهو اسم (الدلع) أو التدليل كما يقول المصريون، وكان محمد إذا سئل عن اسمه، يقول: أنا (ميمي ضاوي) أي محمد القرضاوي..

ومن الطرائف: أن إحدى صديقات الأسرة، كانوا ينادونها (تانت ميمي) فاتصلت مرة بالهاتف، ورد عليها محمد، وقالت له: قل لماما: تانت ميمي، فقال محمد لأمه: تانت محمد تطلبك، ظن أن كل (ميمي) اختصار لمحمد!

إجازة صيف 1968:

كنا حين يحل موعد الإجازة الصيفية، نهرع للفرار من قيظ قطر، بعد أن جربته في صيف سنة 1965، وجر علي ما جر من متاعب صحية، ووجدت الشفاء في جو لبنان المنعش الجميل، ولا سيما جو جبال لبنان.

وفي صيف هذه السنة 1968م بادرنا منذ أول الإجازة بالسفر إلى لبنان، لنقيم بها أياما، ثم نحزم أمتعتنا إلى استنابول التي أنسنا بجوها وبوسفورها وجبالها وخضرتها ونضرتها، كما استمتعنا بجوامعها وحدائقها وأسواقها ومتاحفها، وسعدنا أكثر بأهلها وسكانها.

ولذا صممنا أن نعود إليها مرة أخرى، وقد عرفنا الطريق إليها، وحفظنا مدخلها ومخرجها.

وأقمنا في سوق الغرب في فندق فاروق الذي ألفناه وألفنا، حتى نرتب السفر إلى تركيا، وحتى أتصل بدور النشر التي أتعامل معها، لنشر ما أعددته من كتب، وكان معي أصول كتاب (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟) سلمته لدار الإرشاد لنشره، وقد نشرت لي من قبل: الإيمان والحياة، والطبعة الثانية من كتابي (العبادة في الإسلام).

كما سلمت الجزء الأول من سلسلة (حتمية الحل الإسلامي) لمؤسسة (الرسالة) التي أنشأها صديقنا الأستاذ رضوان دعبول، الذي جاء حديثا من المملكة السعودية، وكان يعمل بها مدرسا للرياضيات، ولكنه آثر أن يستقيل، ويعمل في مجال النشر، وكنت من أوائل من تعامل معه قبل أن تتضخم مؤسسته، ويذيع صيتها، وتنشر الموسوعات الحديثية وغيرها، مثل: موسوعة سند الإمام أحمد، في 50 مجلدا و(تهذيب الكمال) في 35 مجلدا، وسير أعلام النبلاء في 25 مجلدا، وصحح معالمها السياحية في الإجازة الماضية، وفي الصباح أخذنا الحافلة السياحية، إلى أنقرة وبتنا بها ليلة، لنأخذ طريقنا في الصباح إلى استنانبول، ولم نخطئ كما أخطأنا في المرة الماضية، لننزل في البر الآسيوي، ولكنا نزلنا في البر الأوروبي، ونزلنا في فندق (كنت) في (أقصراي) بالقرب من (جامع بايزيد) وكانت تكفينا حجرتان: حجرة لنا، وحجرة للبنات.

ولكن تميزت هذه الزيارة عن زيارة العام الماضي: أن كان معنا ابننا محمد، وكان عمره نحو تسعة أشهر، فكانت أمه وأختاه الكبيرتان (إلهام وسهام) يتعاقبن على حمله.

وكان الأخ الحبيب د. مصطفى بلجه قد دعاني والأسرة، لنقيم في بيتهم الذي تملكه العائلة في منتجع (يكجك) الذي أقمنا فيه أياما في الصيف الماضي، وقد استجبت لدعوته، وقبلت ضيافته شاكرا ومقدرا ولكن لمدة شهر فقط، على أن نبدأ ذلك بعد عدة أيام.

ندوة إخوانية بحثية في استانبول:

وكنا قد اتفقنا –أنا وعدد من الإخوان المصريين خاصة- أن نلتقي في مدينة استانبول، لنتدارس بعض القضايا المهمة الخاصة بالدعوة، ونقدم فيها ورقات للبحث والمناقشة. وكان الغالب على هذه القضايا: الجانب الفكري وتأصيل المفاهيم. وخصوصا بعد أن دار جدل حام بين الإخوان بعد محنة 1965م، داخل السجون، وخارجها، وطار رذاذ منه إلى الخارج، وحدث التباس في عدد من القضايا، مثل قضية (الجاهلية) وقضية (الحاكمية) وقضية (التكفير) وغيرها.

وقد مرت بالجماعة ثلاث محن كبيرة في تاريخها: محنة عهد الملكية، ومحنتان أكبر منها وأقسى في عهد الثورة، كل محنة أكبر من أختها.

ومن حق الجماعة، بل من واجبها: أن تراجع نفسها، وتقوِّم مناهجها، على غرار ما تفعل وزارات التربية، والجامعات، والمؤسسات المختلفة، في ضرورة مراجعة فلسفتها ومناهجها وسياساتها كل مدة من الزمن، لعلها تجد خللا فتسده، أو نقصا فتكملة، أو عيبا فتصلحه، أو خطأ فتصححه، وإن جماعة مضى على تأسيسها أربعون عاما، لهي أجدر أن تراجع نفسها، وتقوم مسيرتها، طلبا للتصحيح والتصويب والتعديل والتكميل والتحسين،

والمؤمن دائما ينشد الأمثل والأحسن، كما قال تعالى في وصف المهتدين من أولي الألباب: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الزمر: .

وقد شاركت في هذه الندوة بورقتين، إحداهما حول (التقليد والتمذهب في الفقه) والأخرى حول (التصوف والصوفية) ومحاولة تحرير موقفنا من هذين الأمرين.

وكان المشاركون في هذه الندوة على ما أذكر: د.توفيق الشاوي، والأستاذ هارون المجددي، والأستاذ عبد البديع صقر، والشيخ أحمد العسال، ود. صلاح شاهين، وآخرين لم أعد أذكرهم لطول الزمن.

وكان لقاء خصبا ونافعا، نناقش فيه الموضوعات بكل حرية، بعيدا عن ضغط السلطان، وعن ضغط الجماهير أيضا، وكثيرا ما يكون ضغط العامة على الخاصة، أو ضغط الجماهير على أهل العلم والفكر: أشد خطرا من ضغط الحكومات.

ولذا كان التوجيه القرآني: (قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) سبأ: أي بعيدا عن تأثير العقل الجمعي، وهنا نحن في جوّ حر حرية تامة، لا ضغط علينا من الخارج، ومن الداخل، أي لا ضغط من الحكومة، ولا من الجماعة.

وكان الذي دفعنا إلى هذا اللقاء: شعورنا المشترك بأن الجانب الفكري في الجماعة، يجب أن ينمى وأن يؤصل، وأن ننتقل من سيحان (العاطفة) إلى انضباط (العلمية) وأن نساعد على أن تفرز الجماعة: أجيالا من (الخطباء).

وبعد لقائنا عدة أيام لا أذكر عددها، انصرفنا على أن نكرر هذه الندوة كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولكن المؤسف أننا لم نكررها، ربما لأن الظروف والأوضاع لم تساعدنا على ما نريد.

إلى منتجع يكجك:

بعد أن فرغنا من ندوتنا: أخذنا حقائبنا، لنذهب إلى (يكجك) في الجانب الآسيوي من تركيا، وهذا يقتضي أن نجتاز (البوسفور) بالباخرة، التي تنقلنا من شاطئ إلى شاطئ، أو من أوربا إلى آسيا، من مرسى (قاضي كوى) إلى مرسى (كراكوي).

وكان الذي تولى نقلنا الأخ الكريم الحبيب الدكتور طه الجوادي، الذي طالما وضع سيارته المرسيدس في خدمتنا، جزاه الله عنا خيرا.

وبعد ذلك عرفنا الطريق من (يكجك) إلى استانبول، وهو استئجار تاكسي، ليحملنا إلى (كركوي) ثم نأخذ الباخرة إلى البر الآخر، وهناك نكون في قلب استانبول، وفي المنطقة الحية منها، فأحيانا نمشي على أقدامنا، وأحيانا نستأجر سيارة.

وكنا ننزل في استانبول معظم الأيام، لنتنزه في حدائقها، أو نتجول في أسواقها، أن نصلي في مساجدها، أو نتفرج على متاحفها، وفي آخر النهار نعود إلى منزلنا في يكجك.

وفي أحد الأيام حدثت واقعة لا أنساها ولا تنساها أسرتي، وهي: ضياع ابنتي أسماء منا، ثم وجدانها.

فقد كنا في مرة من مرات نزولنا إلى استانبول، في إحدى الحدائق الشهيرة القريبة من جامع السلطان أحمد وجامع أيا صوفيا، وتسمى (جول هانا) ومعنى (جول): الزهر، و(هانا): خانة، أي مكان، بمعنى العبارة: حديقة الأزهار، وكانت الحديقة تحتوي أراجيح للعب الأطفال، وأدوات مختلفة للهوهم ولعبهم، وكان كثير من

الأتراك يذهبون إليها في إجازة نهاية الأسبوع ليقضوا يومهم في رحابها، ويتناولون طعامهم بها، ثم ينصرفون مساء اليوم عائدين إلى منازلهم.

قضينا نهارنا في الحديقة، ننعم بخضرتها، وتستمتع البنات باللعب والقفز والجري في الحديقة الرحبة تحت أعيننا ورقابتنا.

وبعد العصر، وبعد أن شبعت البنات لعبا وتزحلقا وركضا، قمنا لنأخذ طريقنا للعود إلى مقامنا في يكجك، ومضينا نمشي رويدا رويدا في الحديقة الواسعة، وقبل أن نصل إلى باب الحديقة، عرجنا على صنابير للماء العذب، فقلنا: نتزود بالشرب منها قبل العودة، ومرت دقائق معدودة في هذه التعريجة، ثم انطلقنا، لنكتشف أن ابنتنا الصغرى أسماء غير موجودة، أين أسماء؟ التفتنا يمينا وشمالا، وبحثنا عنها هنا وهناك، وظللت أركض ركض الحصان في أنحاء الحديقة، وكنت لا أزال بقوتي، فلم نجد لها أثرا، حاولنا أن نعلن عنها في ميكروفون الحديقة، ولكن كانت مشكلة اللغة، فوجدنا أحد العراقيين الذين يعرفون التركية، ليعلن عن طفلة عمرها كذا، وتلبس ثيابا لونها كذا.. ولم يرد علينا أحد.

يا للمأساة! أنأتي لنشم الهواء فتضيع ابنتنا وفلذة كبدنا؟ ما أقساه من شعور، وما أمره من إحساس! أخطفت البنت أم تاهت؟ وأين تاهت؟ وكيف نجدها؟ هل يمكن أن تضيع البنت منا ولا تعود؟ ياللهول! أنسافر بابنتنا وهي ملء السمع والبصر، ثم نعود بغيرها؟ والأدهى من ذلك والأمر: أننا لا نعرف مصيرها: أفي الأحياء أم في الأموات؟ لقد مر وقت عليّ وعلى أمها لا يعلم الله مدى صعوبته علينا، ومرارته في حلوقنا.

وقلنا: لم يبق إلا أن نبلغ الشرطة لنشركهم معنا في البحث عنها، وكان قسم الشرطة قريبا منا، فذهبنا إليه مشيا على أرجلنا، وأبلغناه

بالحادث، ورجوناهم أن يساعدونا في نكبتنا، وكان الأخ العراقي الذي يعرف التركية معنا لم يفارقنا، شهامة منه، وتقديرا لحاجتنا إليه، ليقوم بالترجمة نيابة عنا، وبالفعل أرسلوا إشارة إلى الأقسام المختلفة في المدينة، ليبلغوهم عن أي معلومات تتعلق بالطفلة المفقودة.

وعدت إلى أسرتي حيث بقيت منتظرة في الحديقة، وأخبرتهم بإبلاغنا للشرطة، ووعدهم بأنهم لن يدخروا وسعا في البحث، وسيخبروننا بأي جديد يحصلون عليه.

وبقينا وقتا ننتظر جوابا، وأمست قلوبنا معلقة بهذا الأمل، ونحن دائمو التضرع إلى الله، ندعوه دعاء المضطر أن يرد إلينا ابنتنا الحبيبة، وأن لا يردنا عن بابه خائبين، وبعد مرور ما يقرب من الساعتين، مرتا كأنهما دهر طويل، ذهبنا لنراجع القسم، فقال المسؤول: أبشروا البنت موجودة في قسم شهرمينا، وفي حالة طيبة، وقد أبلغناهم أن يحتفظوا بها، حتى نذهب إليها لتستلموها، وسجدت لله تعالى شكرا، وحمدا لله جل شأنه أن استجاب لدعائنا، ورحم ضعفنا، فالحمد لله رب العالمين، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه.

عدت لأبشر زوجتي وأولادي؛ أننا وجدنا الحبيبة أسماء، وأن علينا أن نذهب لأخذها من القسم، وبعد ذلك نعود إلى منزلنا في منتجع يكجك.

ووصلنا إلى قسم شهرمينا، وكان بعيدا كثيرا عن المكان الذي نحن فيه، ودخلنا القسم، فوجدنا (أسماء) يداعبها بعضهم، ويحاولون أن يهدئوا من روعها، ويطمئنوها حتى يأتي أهلها.

وكان الأخ العراقي معنا، ويترجم لنا، وقد فهمنا منه ماذا حدث. لقد كنا كلنا نمشي خارجين من الحديقة، ثم توقفنا هنيهة لشرب الماء، ولكن أسماء لم تنتبه لتوقفنا، وظلت تمشي منطلقة إلى الباب، حتى خرجت من الحديقة، وبمجرد خروجها من الحديقة أحست أنها تمشي وحدها، وأن أحدا ليس معها، فوقفت تبكي، فرآها أحد المارة تبكي، وكلمها فعرف أنها عربية ولا تحسن التركية، وكان الرجل طيبا، فخاف عليها أن تقع في يد شريرة، فأخذها في يده، وكان هو عائدا إلى منزله في شهرمينا، ومن هناك ذهب إلى قسم الشرطة ليسلمها إليهم، ويحكي لهم كيف وجدها، وكيف أخذها.

وبذلك ختمت هذه القصة الدرامية، التي أرهقتنا ساعات معدودة، ولكنها مرت بطيئة كأنها دهور.



السنة الدراسية 1968، 1969م

رجال الثورة لم يستفيدوا من درس النكبة:

كانت هزيمة يونيو 1967 كافية لأن يأخذ منها عبد الناصر درسا وعبرة، ليغير من خطه، ومن سياسته، ويتنازل عن كبريائه، ويتعاطف مع أبناء شعبه الذين ردوه إلى الحكم بعد أن تنحى عنه.

كان المظنون أن يتعلم الدكتاتور: أن الدائرة تدور، وأن الدنيا دول (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وقد ذهب نائبه وصديقه، وطويت صفحته، ولم تبك عليه السماء ولا الأرض، وهما لا تبكيان أبدا على الطغاة الظالمين، كما قال تعالى في فرعون وملئه: (كم تركوا في جنات وعيون. وزرع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) الدخان:.

وكانت لهجة عبد الناصر في أول الأمر توهم بنوع من التغير، ثم ما لبث أن غلب عليه طبعه، أو وسوس له شياطينه، فاستمر في نهجه الدكتاتوري، وتوجهه المجافي للإسلام ودعاته، وللحرية وطلابها، فقد كانت الناس يتوقعون: أن تطلق الحريات، ويفرج عن كل المعتقلين والمسجونين السياسيين. وأن تعود الحرية للصحافة، كما كانت قبل الثورة، ويسمح بتكوين الأحزاب السياسية، ويقلع عبد الناصر عن تنظيم الحزب الواحد، وأن يسود القانون، وأن يشعر الناس بأنهم عادوا أحرارا، كما خلقهم الله، وكما ولدتهم أمهاتهم.

ولكن للأسف لم يحدث ذلك، بل حدثت وقائع كثيرة وعجيبة، تدل على أن القوم لم يعوا الدرس، ولم يحسنوا قراءة ما وقع.
والمصريون يقولون:

أعلّمكْ ما علّمكْ والطبع فيكْ غالبْ!

والكلب ذيله ما ينعدل ولو علقت فيه قالب!

وكان أخطر ما حدث في هذه الفترة ما عرف باسم (مذبحة القضاء) فكأن عبد الناصر وجماعته لم يعوا من الدرس سطرا ولا حرفا. وكأنهم عمي لا يبصرون، أو صم لا يسمعون، مع أن الحدث هائل هائل، جدير أن يرى من كانت له عين، وأن يسمع من كانت له أذن. (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ق: .

مذبحة القضاء المروعة:

لم يكن عجبا أن تحدث (مذبحة القضاء) على يد الثورة، فالقوم لم يكونوا يبالون بشرع ولا قانون، ولا يطيقون أي أحد أو أي حاجز ـ من قانون أو أخلاق أو دين ـ يقف في طريقيهم.

ولهذا كان بينهم وبين القضاء ورجال القضاء جفوة، إن لم يكن صراع يخفى حينا ويظهر في بعض الأحيان.

ويروي الأستاذ محمد شوكت التوني: أن المشير (عبد الحكيم عامر) طلب مرة القبض على بعض الصحفيين، ولكن وزير العدل في ذلك الوقت، لم ينفذ هذا الطلب؛ فاتصل به المشير تليفونيا وسأل بلهجة شاذة قائلا: لماذا لم تقبض على الصحفيين؟ فأجاب الوزير: القانون يا فندم. فقال له المشير: قانون إيه؟ بلاش تخلف!

وفي يوم 23 يونيو 1966 أعلن شعرواي جمعة: أنه ضد تدخل النيابة في التحريات والتحقيقات، لأنه في كل الموضوعات التي

نحيلها إليها تنتهي بالبراءة. لأن النيابة ببساطة تسير الأمور فيها بالطرق القانونية! ولهذا ينبغي أن نحيل أمثال هذه الموضوعات إلى جهات ثورية للتحقيق فيها، مثل المخابرات العامة، والمخابرات العسكرية، والمباحث الجنائية، والعسكرية! بدلا من الدخول في دوامة القوانين التي تنتهي دائما بالبراءة.

وتبعا لهذا الاتجاه، كان لدى سعد زايد ـ محافظ القاهرة ـ (فلَقة) يحتفظ بها في مكتبه، وهو يقول: إنها وسيلته لحل المشكلات.

ومن دلائل إهدار القانون: ما يذكره الأستاذ جلال الحمامصي بقوله: وقد تكررت ظاهرة إغفال نشر بعض القوانين، أو التراخي في نشرها، أو إعطاء تاريخ للنشر مغاير للتاريخ الحقيقي، أو النشر في عدد رمزي من الوقائع المصرية لا تطبع منه إلا نسخ قليلة جدا.... وفي هذا مخاطرة بحقوق المواطنين، وإهدار لسيادة القانون، ومجافاة لروح بيان 30 مارس.

ويقول الدكتور أحمد شلبي معلقا:

وهكذا كان وضع القانون على الرف: مصدر المآسي التي عاناها شعبنا طيلة عشرين عاما، ولم يكن للمواطن ملاذ يلجأ إليه أو تشريع يعتمد عليه.

كل هذا مهد لوقوع مأساة القضاء، التي لم نر ولم نسمع بمثلها في أي بلد في العالم، مما يدل على الاستهانة المطلقة بحقوق الشعوب، وصيانة الحريات، كما يدل على أن القوم لم يأخذوا أي عبرة من النكبة أو النكسة كما سموها، وصدق الله العظيم إذ قال في مثل هؤلاء: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) الأنعام: .

وقد كتب المستشار محمد عبد السلام ـ النائب العام ـ عن مذبحة القضاء والتمهيد لها في كتابه (سنوات عصيبة) وكان مما قاله:

"المفروض أن المهمة الأولى لوزير العدل هي: تثبيت دعائم استقلال القضاء، وإشاعة روح الطمأنينة بين القضاة، ولكن وزير هذه الحقبة ـ السيد محمد أبو نصير ـ كان بعيدا كل البعد عن هذا الاتجاه، وكانت له سياسة مرسومة هدفها: هدم القضاء واحتواؤه سياسيا. وكان يعتبر النقد الذي يمسه حملة موجهة ضد الحكومة، بل يعطيها الشعار الذي كان شائعا وهو (ثورة مضادة)، ومن هنا يتجه عبد الناصر لمقاومتها والقضاء عليها.

"ووافق اتجاه الوزير هوى لدى حكومة عبد الناصر، التي لم تكن راضية عن اتجاهات القضاء والنيابة كما ذكرنا من قبل، ثم إن الوزير قرَّب إليه بعض العناصر التي كان بها جانب من الانحراف، فعمل هؤلاء ضد الكثرة الصالحة.

"وعُقدت الجمعية العمومية للقضاة في 28 مارس سنة 1968 لتجديد انتخاب ثلث الأعضاء، فأصدرت الجمعية بيانا تحدث عن وجوب سيادة القانون، واستقلال السلطة القضائية، والبعد بالقضاة عن كافة التنظيمات السياسية، كما تحدث عن وجوب تخصص القضاة وتفرغهم، وأن النيابة العامة جزء لا يتجزأ من القضاء، وجاء في البيان رد عما يقال عن الالتجاء للقضاء الشعبي في بعض القضايا.

"وقد واجه علي صبري هذا البيان بمقالات نشرتها جريدة (الجمهورية) تندد بالقضاة، وتطلب إشراكهم في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي، وتسخر من القاعدة التي اتفقت عليها الشرائع الدنيوية والسماوية، والتي ترى درء الحدود بالشبهات، وتفسر الشك لصالح المتهم، ثم طلب علي صبري: تعيين ثمانية من شبان الاتحاد الاشتراكي في وظائف معاوني نيابة دون مراعاة أسبقيتهم في

ترتيب التخرج، فلما اعترضتُ على ذلك أصدر قرارا جمهوريا بتعيينهم.

"وعندما جاء موعد انتخاب نادي القضاة سقط أتباع الوزير الذين كانوا يسمون (مرشحي الحكومة)، فجاء دور الانتقام ممثلا فيما سمي (مذبحة القضاء) في 31 أغسطس سنة 1969، وقضت هذه المذبحة بوقف العمل بقانون السلطة القضائية، وبحصانة القضاة كبيرهم وصغيرهم، وفُصل جميع أعضاء مجلس نادي القضاة، وعدد كبير من القضاة ورجال النيابة، ولتغطية هذا التصرف الشاذ صدر قرار بفصل جميع رجال القضاء، ثم أعيد منهم من لم يشترك في إغضاب الحكومة، وكانت هذه مأساة تُعد الأولى من نوعها، فهي من مبتكرات هذا العهد، وظل رجال القضاء المفصولون بعيدين عن وظائفهم حتى أعادتهم ثورة التصحيح، وأزالت الظلم عن المظلومين".

من ثمرات نكبة 1967م ميلاد الصحوة الإسلامية:

لقد كانت نكبة 1967 كارثة على مصر، وعلى سورية، وعلى فلسطين، وعلى الأردن، وعلى العالم العربي كله.

لقد كانت خسائرها المادية جسيمة، كما ذكرها عبد الناصر في أكثر من خطاب له، وكما أشرنا إليها من قبل.

ومع هذا، قدر الله تعالى أن يجعل من وراء هذه المصيبة خيرا كثيرا، والعرب يقولون: رب ضارة نافعة. والصوفية يقولون: كم من منحة في طي محنة. والله تعالى يقول: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) البقرة: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) النساء: .

ومن هذا الخير الذي جاءت به الكارثة: إيقاظ ضمير الأمة العام، لترجع إلى الله، وتقرع بابه، وتسأله التوبة، فلا يرد الناس إلى الله مثل الشدائد، فالإنسان تغره العافية والرخاء، فإذا تبدل رخاؤه إلى شدة، وعافيته إلى بلاء: ذكر الله تعالى وأناب إليه، كما يفعل ركاب السفينة، إذا جاءتها ريح عاصف، وجاءها الموج من كل مكان، وظن ركابها أنهم أحيط بهم، هنالك يدعون الله مخلصين له الدين.

وهذا ما حدث بعد 67، فقد حدثت يقظة دينية عامة، وأحس الجميع بفقرهم إلى الله، وتنادى الناس بضرورة التوبة إليه، والوقوف على بابه جل وعلا، وتجلى أثر ذلك في المساجد وفي البيوت، وفي الجامعات، وفي الجيش وفي غيرها.

ولم يستطع العلمانيون واللادينيون أن يقفوا في وجه هذه الموجة الإيمانية المكتسحة، والمهزوم لا يستطيع أن يقول: لا. وقد كسرتهم الهزيمة، فنكسوا على رؤوسهم وسكتوا، وانسحبوا.

بدأت هذه اليقظة صغيرة، ثم كبرت، محدودة ثم انتشرت، ضعيفة ثم قويت، مرتجلة ثم انتظمت.

وأول ما بدأ ظهورها وتجليها في شباب الجامعات، فالشباب المثقف هم أقرب الناس استجابة لهموم الأمة، ولدواعي الإيمان. بدأت في صورة دعوات لإقامة الصلوات، وحضور دروس دينية، وحلقات علمية في تفسير القرآن وفي السيرة النبوية.

ثم ما لبثت هذه الحلقات أن تحولت بمرور الزمن إلى ما عرف باسم (الجماعات الإسلامية) داخل الجامعات.

أستطيع أن أقول: إن هذه الجماعات الإسلامية التي ظهرت في الجامعات، لم تكن في أول أمرها مرتبطة بأي جماعة، ولم تنشئها أي جماعة، لا الإخوان ولا غيرهم. لقد كانت نشأة عفوية تلقائية،

من صنع الأحداث، وبترتيب قدري إلهي. وسرعان ما أصبح لهذه الجماعات: صوت مسموع، ولواء مرفوع.

وقلدت بعض الجامعات بعضا في ذلك (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وأظن جامعة القاهرة كانت هي السباقة. وكان من أسبق شبابها: طلاب كلية الطب خاصة، ثم الكليات الأخرى، فكان عبد المنعم أبو الفتوح، وعصام العريان، وإخوانهما هم الطليعة الأولى لمن سموا بعد ذلك: شباب الصحوة الإسلامية. ولعل من الغريب أن أقول: إن الأزهر ربما كان آخر الجامعات التي وصلتها الصحوة، وكان طلاب كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم في الأزهر أسبق من طلاب أصول الدين والشريعة، ولهذا أسباب قد نعرض لها في مقام آخر.

كانت مصر هي الرائدة والسباقة في هذا الميدان، فهي أول بلد انبلج منه فجر الصحوة الإسلامية المعاصرة. ثم انساب هذا الضوء وبزغ في سماوات بلاد أخرى، من بلاد العرب، ثم بلاد الإسلام، ثم في البلاد التي تسكنها أقليات إسلامية في الشرق والغرب، ثم إلى المهاجرين المسلمين في بلاد شتى.

ولا غرو أن تكون مصر هي الرائدة والسباقة، فهي سباقة في كل شيء، سباقة في الخير، وسباقة في الشر، كما قلت للإخوة في الجزائر يوما: إن مصر تصدر الخير، وتصدر الشر، تصدر الجد والهزل: أحسن قارئ للقرآن يظهر من مصر، وأحسن عالم ديني يظهر من مصر، وأحسن أديب يظهر من مصر، وأحسن طبيب يظهر من مصر، وكذلك أشهر راقصة تظهر من مصر، وأشهر فرعون يظهر من مصر!

ولذلك انطلقت الصحوة من مصر إلى غيرها، لتقوم لها سوق نافقة في كل مكان.

وهكذا ولدت الصحوة الإسلامية ولادة طبيعية، بلا قيصرية، ولا عملية جراحية، كما كان الحمل طبيعيا أيضا، لم يحتج إلى أطفال أنابيب ولا غير ذلك.

ومن هنا لا أجد معنى للذين يزعمون: أن الصحوة الإسلامية إنما نشأت بفعل فاعل، وصنع صانع، وأن الذي صنعها هو السادات، الذي أرخى العنان للإسلاميين ليضرب بهم الشيوعيين.

وقد رددنا على هذا الكلام المتهافت في كتابنا (الإسلام والعلمانية وجها لوجه) وبينا ما فيه من وهن وخلل، وأنه عار عن كل حجة. وإن صحوة الشعوب لا يصنعها غير الشعوب، ولو كان السادات صانعها لأمكنه أن يلغيها عندما رأى خطرها عليه.

عودة بعض الإخوة المعتقلين إلى قطر

لا أذكر تفصيلات ما حدث في هذه السنة، إلا أن بعض الإخوة الذين أفرج عنهم من معتقلات عبد الناصر، بدأوا يعودون إلى الدوحة، مثل الأخ عبد اللطيف زايد، والأخ الشيخ محمد المهدي البدري، والأخ أحمد المنيب حسين، فلم يضيقوا عليهم في الخروج كما هو المعتاد، نتيجة لما أحدثته نكبة يونيو (حزيران) 1967، من انفراج في الموقف الداخلي، وقد يأتي الشر أحيانا بالخير، وكم ينبثق النور من أعماق الظلام، وقد قال الشاعر: مصائب قوم عند قوم فوائد!

كما دعوت صهري –شقيق زوجتي- الأستاذ سامي عبد الجواد: أن يأتي إلى قطر، بعد خروجه من المعتقل، وقد وصل إليها في ديسمبر 1968م، ثم لحقت به أسرته، وعين في دار الكتب القطرية، التي كان مديرها في ذلك الوقت الأستاذ عبد البديع صقر

محاولة للحصول على الدكتوراه من جامعة البنجاب بلاهور

وأهم ما أذكره في هذه السنة: أن بعض الإخوة اقترح على أن في لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية، أراسل جامعة البنجاب وهي جامعة عريقة، وفيها قسم للدراسات الإسلامية، ورئيس الجامعة العلامة علاء الدين الصديقي، الذي كان رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية من قبل، حين حصلت بعض طالبات القسم – جميلة شوكت- على درجة الماجستير عن بحثها حول كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) قال المحبذون: فالجامعة تعرفك ولا تجهلك، ورئيسها يعرفك ولا ينكرك، وهو على صلة طيبة بالأستاذ العلامة أبي الأعلى المودودي، أمير الجماعة الإسلامية، الذي يكن له كل مودة وتقدير.

ورأى هؤلاء الإخوة أن من الخير أن أكتب للأستاذ أبي الأعلى المودودي، وأعرض عليه الأمر، طالبا مشورته بعد أن يكلم العلامة الصديقي.

وبادرت بكتابة رسالة إلى الإمام المودودي، شرحت له فيها الموقف، وانسداد الطرق في وجهي بالنسبة للدراسات العليا في مصر، ما دام الوضع الحالي باقيا، وانفتاح فرجة أمامي في جامعة البنجاب.. إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وسرعان ما أجابني الأستاذ المودودي: أنه كلم صديقه البروفسور الصديقي، وأنه يرحب كل الترحيب بكم، وهو يعرفكم جيدا، وكذلك أساتذة القسم الإسلامي في الجامعة، كلهم مرحبون ومتعاونون، ونصحني أن أسارع بالمجيء إلى لاهور، للتفاهم مع المختصين حول الخطوات التي يجب اتخاذها للوصول إلى الهدف.

وحمدت الله تعالى أن فتح لي هذا الباب، وعقدت النية على الذهاب إلى لاهور بمجرد انتهاء العام الدراسي، وكنا في أواخره.

وطويت صفحة السنة الدراسية في منتصف يونيو كالمعتاد، وبدأت أعد العدة للسفر إلى باكستان لأول مرة، وأرى هذا البلد الكبير الذي انفصل عن الهند الكبرى ليستقل بشعائره وشرائعه ومقوماته وخصائصه، دون أن يتعصب أحد ضده، وكانت باكستان في ذلك الوقت تعد أكبر دولة إسلامية في العالم، فقد كانت لا تزال تضم باكستان الغربية، وباكستان الشرقية، (التي انفصلت بعد ذلك وكونت جمهورية بنجلاديش

جواز سفر قطري

وكنت أسافر في ذلك الوقت بوثيقة قطرية تتجدد كل سنة، فذهبت إلى الشيخ خليفة بن حمد نائب حاكم قطر وولي العهد، لأطلب منه تجديد الوثيقة، فسألني: أين تسافر هذا العام؟ فأخبرته بأني مسافر إلى باكستان للحصول على الدكتوراه بعد أن أغلق أمامي باب الأزهر، فقال لي: كنت وعدتك أن نرقي الوثيقة القطرية إلى شيء أفضل، وهذا أوان ذلك، سآمر بإعطائك جواز سفر قطري كاملا، تأخذ به كل حقوق القطريين. وأصدر أمره إلى السيد علي بن أحمد الأنصاري مدير إدارة الجوازات والجنسية بتنفيذ ذلك فورا، وفعلا في الحال بدأ بالتنفيذ، وطلب مني بعض الصور، وصدر الجواز القطري لي ولزوجتي ولبناتي الأربع، وابني محمد، فلم يكن أبنائي عبد الرحمن وأسامة ولدا بعد، وهكذا عوضني الله تعالى بجواز قطري أجوب به أنحاء الأرض، بعد تعنت السلطات المصرية معي، ورفضها تجديد جواز سفري، لترغمني على العودة إلى

مصر ولم يكن معقولا أن أذهب برجلي طوعا واختيارا من الدار إلى النار

أيام في كراتشي

وقطعت التذكرة على الطائرة الباكستانية إلى كراتشي ثم إلى لاهور، ونزلت أولا في كراتشي، فوجدت جوها أشبه بجو الخليج في الحرارة والرطوبة، وقد استقبلني الإخوة في الجماعة الإسلامية بكراتشي، وهم الذين حجزوا لي الفندق، وكان فندقا متواضعا ،ولكنه يؤدي الغرض، وقد تعودنا العيش على ألوان الحياة بنعومتها وخشونتها، ووردها وشوكها، وأي مكان سيكون أفضل من السجن الحربي وأكثر رفاهية.

زرت الجماعة الإسلامية في مقرها، وكان أمير الجماعة في كراتشي ـ الأستاذ غلام محمد ـ غائبا، والتقيت بالموجودين من الجماعة، وألقيت كلمة في دار الجماعة، كما زرت بعض الشخصيات الإسلامية مثل الأستاذ إسحاق ظفر الأنصاري (والد الدكتور ظفر إسحاق)، كما سألت عن الشيخ محمد شفيع العثماني، مفتي كراتشي (والد صديقنا الشيخ محمد تقي العثماني) فوجدته خارج كراتشي.

وبعد يومين أو ثلاثة في كراتشي: امتطيت الطائرة إلى لاهور، ليستقبلني الإخوة أعضاء الجماعة الإسلامية، ومنهم الأستاذ رحمه إلهي الأمين العام للجماعة، مندوبا من الأستاذ المودودي معه الأخ الداعية الفاضل الشيخ خليل أحمد الحامدي مدير القسم العربي في الجماعة، والذي يتحدث العربية بطلاقة، وقد تعرفت عليه وتوثقت صلتي به من قبل.

أبى إخواننا في الجماعة الإسلامية إلا أن ينزلوني ضيفا عليهم، فاشترطت عليهم: أن تكون الضيافة لمدة ثلاثة أيام، ثم يدعوني وشأني.

وفي المساء لقيت الإمام المودودي في دار الجماعة، ورحب بي هو وإخوانه جميعا، ولا سيما نائبه الأستاذ طفيل محمد، ورتبوا لي عددا من اللقاءات بأعضاء الجماعة، وخصوصا جمعية الطلبة المسلمين، التي توجهها الجماعة، وزيارة بعض البلاد حول مدينة لاهور، وعقد بعض المؤتمرات الصحفية.

ورحبت بهذا كله، ولكني طلبت أن يرتبوا لي زيارة، لجامعة البنجاب، ومقابلة رئيسها وأساتذتها، حتى لا نضيع الأمر الذي جئت من أجله، وقالوا: هذا طبيعي ومنطقي بلا ريب

تكريم في لاهور:

والحقيقة أن الإخوة في الجماعة الإسلامية أكرموني غاية الإكرام، وفي كل يوم يعزمنا أحدهم على وليمة، يدعى إليها مولانا المودودي وكبار الجماعة، وكان بعض الإخوة يريد أن يأخذ لنا صورة تذكارية بهذه المناسبة، ولكن المودودي –كعلماء باكستان والهند عموما- يشددون في أمر الصور، فكان الأستاذ مودودي يقول لهم: خذوا بمذهب القرضاوي الذي رجحه في (الحلال والحرام).

والعجيب أني لم آخذ معي شيئا من هذه الصور، فليت أحدا من الإخوة الذين يقتنونها يتحفني بشيء منها، وله مني الشكر، ومن الله الأجر.

ومن فضل الله تعالى: أن أكثر من جهة في لاهور، أخذت تكرمني، وتحتفي بي، منها: جمعية علماء باكستان، ومنها: جامعة البنجاب، التي أقامت احتفالا كبيرا ودعت إليه جمعا غفيرا، وتحدث فيه عدد من الناس من الأساتذة والعلماء والدعاة، نسيت أسماؤهم لطول المدة.

وزرت قسم الدراسات الإسلامية في الجامعة، والتقيت أساتذته وتحدثت إليهم، كما تحدثوا إلي، ولقيت الطالبة التي أخذت (الماجستير) عن كتابي (الحلال والحرام) جميلة شوكت، وأظنها كانت حصلت على الدكتوراه وقتها.

لقاء رئيس الجامعة العلامة الصديقي :

ثم لقيت العلامة علاء الدين الصديقي، الذي أحسن استقبالي، وهش لي، وفتح صدره وجامعته لمساعدتي، وقال: نحن نضع كل إمكاننا في معاونتك، ثم شرح لي الوضع في الجامعة، ومن ناحية الدراسات العليا، وقال: نحن عندنا نوعان من الدكتوراه، الدكتوراه المعتادة ، وهي التي يقدم الدارس فيها أطروحته تحت إشراف أستاذ، حتى إذا أكملها، حددت له لجنة لمناقشتها، وفي النهاية يحصل على الدكتوراه بالدرجة التي يستحقها .

وهناك نوع آخر من الدكتوراه أعلى من الأولى، ويسمى: (دي لت) وهذه درجة لا تعطى على أطروحة أو رسالة معينة، ولكنها تعطى على مجموع إنتاج الباحث، يقدر ذلك عدد من كبار العلماء. وهذه لا تمنح إلا للقلائل الذين لهم عطاء علمي متميز .

قال: أما النوع الأول، فهو يسبب لنا – بالنسبة لك - مشكلة، لأننا لا نجد من يشرف عليك، من هيئة التدريس عندنا، وهم يعتبرون

أنفسهم في منزلة تلاميذك، ولذا أنا أقترح: أن تمنحك الجامعة الدكتوراه من النوع الآخر، وهو الأليق بك وبإنتاجك، وهذا يتطلب أن تقدم لنا عدة نسخ من كل ما كتبته، لنعرضه على عدد من كبار الأساتذة .

قلت له: إن كان ولا بد، فليكن على رأس هذا الإنتاج بحثي الكبير عن (فقه الزكاة) وقد تعبت فيه نحو عشر سنوات، ولكنه لم يطبع بعد .

قال: هذا أفضل، ويجب أن تبادر بطبعه، وتقدمه مع سائر كتبك، وكلما سارعت كان أجدر بإنهاء الأمر على ما تحب فإن الظروف قد تتغير .

قلت لهم: أمهلوني نحو خمسة أشهر أو ستة حتى يتم طبع الكتاب، وعلى الله التسهيل.

الإقامة في فندق السفراء:

وكنت قد استأذنت الجماعة الإسلامية بعد ضيافة ثلاثة الأيام: أن أنتقل إلى فندق مناسب أقضي فيه ما بقي لي من أيام في لاهور، وفعلا نزلت فندق (أمباسدور) أو فندق السفراء، وهو ليس بعيدا كثيرا عن مقر الجماعة، ولكنه يحتاج أن تركب (الركشا) وهي العجلة أو السيارة الصغيرة أم ثلاثة عجلات، وهي تسع شخصين يركبان في الخلف، ويقودها السائق، وكانت أجرتها رخيصة جدا.

ومن اللطائف في الأيام التي قضيتها في الفندق: أني بحثت عن (الجبنة) فلم أجد لها عند الباكستانيين أثرا، ولم أسمع لها عندهم خبرا، فهم لا يعرفون إلا اللبن الحليب، أو اللبن الرايب أو الزبادي

يتناولونه محلى بالسكر. وقلت للأخ خليل الحامدي ومساعده فيض الرحمان: ألا تعرف باكستان (الجبن) أبدا؟ قال الشيخ خليل: باكستان لا تعرف (الجبن) لكن تعرف الشجاعة! قلت له: إنما نبحث عن الجبن لنقضي عليه!

وأخيرا بعد البحث في بعض المحلات الكبيرة، وجدوا بعض الجبن الإفرنجي، لا الجبن الأبيض، وعرفت من هذا الاختلاف بين الشعوب في عاداتها ومأكولاتها، فرغم أن الشعوب الهندية شعوب زراعية، لا تعرف الجبن، على حين نجد الفرس والأتراك والعرب والأوروبين يتفننون في صناعة الأجبان بأشكال ومذاقات شتى.

نشاط متعدد تنظمه الجماعة:

قمت ببعض الأنشطة، وألقيت عددا من المحاضرات، مع الطلبة المسلمين وغيرهم، وذكرت للإخوة التلاقي بين أفكار الجماعة الإسلامية، وأفكار الإخوان المسلمين، حتى قلت لهم: إن الإخوان المسلمين هم الجماعة الإسلامية في الشرق العربي، والجماعة الإسلامية هم الإخوان المسلمون في شبه القارة الهندية.

وأجرت بعض الصحف وبعض المجلات حوارات معي، كانت إجاباتي فيها مسددة، كما نظم الإخوة مؤتمرا صحفيا لي: أجبت فيه عن عدد من التساؤلات، التي طرحت، وكان الإخوة مسرورين بنتائج ذلك كله.

وكانت باكستان الشرقية – وعاصمتها داكا - في ذلك الوقت في حالة من الاضطراب والغليان، وقال مولانا المودودي لي: ليتك تذهب إلى داكا، فهي تحتاج إلى مثلك في هذا الوقت، الذي يعمل دعاة الانفصال، مؤيدين من أعداء باكستان، وأعداء الإسلام.

قال المودودي: إنك ستجد باكستان الشرقية جنة الله في أرضه، وأن أنهارها أشبه بالبحار.

ولكن الإخوة العارفين في الجماعة قالوا: إن تكثيف الشيخ نشاطه الدعوي والسياسي في هذا الوقت قد يعكر على الموضوع الذي جاء من أجله، وهو الحصول على الدكتوراه، فربما شوش بعض المغرضين أو الخصوم على الشيخ ووضعوا العقبات في طريقه.

ولذا توقفت عن النشاط العام إلا قليلا، حتى ننتهي من تحقيق الهدف الذي جئت إلى لاهور أساسا من أجله، وسأظل أذكر تلك الأيام الجميلة التي قضيتها في لاهور (ما يقرب من ثلاثة أسابيع) ولقاءاتي بالعلامة الإمام المودودي وإخوانه ورفقاء دربه في الدعوة إلى الله، جزاهم الله عني خيرا.

وبعد أن لقيت رئيس الجامعة العلامة الصديقي، وغير باقتراحه المسار المعتاد للحصول على الدكتوراه، قررت السفر عائدا إلى قطر، ومنها إلى بيروت، سعيا إلى تقديم كتاب (فقه الزكاة) للمطبعة.

من قطر إلى بيروت:

وعدت إلى قطر، لأصطحب أسرتي، ومسودة بحثي عن (الزكاة)، لنسافر إلى لبنان، ومن مطار بيروت استقللنا سيارة لتوصلنا إلى (سوق الغرب) للإقامة المؤقتة في (فندق فاروق) الذي اعتدنا النزول به، حتى نستأجر بيتا مناسبا لنا.

وبعد أيام قليلة عرفنا أن عددا من إخواننا السوريين مثل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والأستاذ عدنان سعد الدين، قد أستأجروا منازل لهم

في قرية (قرنايل) وهي قريبة من قرية (حمانا) التي نزلنا بها صيف سنة 1965م، وأن بالقرب منهم منزلا ملائما لنا، وقد زرتهم، ورأيت المنزل وحديقته الجميلة، ووجدته في غاية المناسبة لنا، وخصوصا أننا نجاور الأخ أبا عامر عدنان سعد الدين، فهو الجار ذو القربى، وقد قال العرب من قديم: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

وانتقلت مع الأسرة من فندق فاروق إلى قرنايل، لنقيم بها ما بقي من الصيف، وهو حوالي شهرين، وننزل ما بين يوم وآخر إلى بيروت للقاء بعض الأحبة، وشراء بعض اللوازم، ومثل ذلك كله للاتفاق مع المطبعة ودار النشر على طبع الكتاب الذي اخترت له عنوان (فقه الزكاة: دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة) وكان الاتفاق مع الأستاذ عادل عاقل لمدير دار الإرشاد للنشر، على أن يقوم بنشر الكتاب وقد اتفق هو مع مطبعة (دار القلم) لتقوم بالطباعة.

وسلمت المطبعة قدرا مناسبا من الأصول لتبدأ الطباعة بسرعة ما أمكنها، فالزمن لا ينتظرنا، وجامعة البنجاب تستعجلنا، وكلما فرغوا من ملزمة وصححوها التصحيح الأولي، سلموا لي (البروفة) الأخيرة لأصححها وأعتمدها لتطبع بعد التصحيح.

وبدأنا العمل، ولكن الوقت كان قصيرا، فلم ننجز من طبع الكتاب أكثر من خمس عشرة ملزمة، والكتاب كبير سيصدر في مجلدين.. ولهذا اتفقت مع المطبعة أن ترسل إلي ما تنجزه من الملازم إلى الدوحة أثناء العام الدراسي، لأصححه وأرده على المطبعة، حتى لا نتعطل كثيرا.

بيد أن هذا الاتفاق لم ينفذ إلا في نطاق محدود، ولم يرسلوا إلي إلا عددا قليلا من الملازم، ومعتذرين بأعذار شتى من انقطاع التيار

الكهربائي، ومن إضراب العمال، وغير ذلك، ولم يتحقق ما رجوته أو ظننته من إمكان طباعة الكتاب في نحو ستة أشهر، فهذا كان ضربا من التمني، وما كل ما يتمنى المرء يدركه.

وكان لا بد أن نتدارك ذلك في الصيف القادم (سنة 1970م) لنعوض هذه الأيام التي ضاعت منا دون أن نحقق الإنجاز الموعود.

انقلابان عسكريان في الوطن العربي:

في سنة 1969م حدث انقلابان عسكريان في الوطن العربي، كلاهما كان في الجناح الأفريقي من العالم العربي، وكلاهما مجاور لمصر: أحدهما في الجنوب، والآخر في الغرب، أحدهما في بلد جمهوري، والآخر في بلد ملكي.

انقلاب النميري في السودان:

الانقلاب الأول: وقع في مايو في جمهورية السودان، والذي قام به الجيش بقيادة جعفر نميري، والذي أطاح بالحكم الديمقراطي الذي جاء بعد انقلاب عبود. ولا ندري ماذا يحمل هذا الانقلاب الجديد للسودان؟ وإن كنت قد أصبحت أتوجس شرا من الانقلابات العسكرية، التي أمست في أوطاننا عدوا للحرية، ونقمة على الشعوب، تعد بالديمقراطية ولا تفي بما وعدت، ولا يستطيع أحد أن يحاسبها، ترى هل يكون هذا الانقلاب الجديد مثل ما جربته شعوبنا من قبل: في مصر، وفي سورية، وفي العراق، أم سيكون وجها

آخر، يقلب النظام، ثم يرد الحكم إلى المدنيين، وإلى الشعب يختار لنفسه من يراه أهلا للولاية، ويتحمل مسؤولية من يختار؟!

انقلاب القذافي في ليبيا:

والانقلاب الثاني: ووقع في أول سبتمبر أو في الفاتح من سبتمبر في المملكة الليبية، فقد فوجئنا، ونحن في لبنان، في أول سبتمبر بما أذاعته وكالات الأنباء من انقلاب عسكري في ليبيا على الملك السنوسي، تقوده فئة من الشبان، ولا أدري هل ذكر اسم قائد الانقلاب في أول الأمر أم أجل بعض الوقت.

وكان الملك إدريس السنوسي رجلا صالحا في نفسه، ولكنه أحيط ببطانة سوء، انحرفت بالحكم، وأساءت إلى البلاد والعباد، فكان لا بد من تغيير، وكان التغيير في العالم العربي له صيغة واحدة، في كل الأقطار، هي صيغة الانقلاب العسكري، منذ سن هذه السنة حسني الزعيم في سوريا، وتبعه الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر في مصر، وعلى دربهم سار عبد الكريم قاسم في العراق.

وأذكر أننا تناقشنا عقب سماعنا بنبأ الانقلاب أو الثورة كما سميت بعد: هل تكون هذا الثورة خير أو رحمة للشعب الليبي، يطعم بها بعد جوع، ويأمن من خوف، ويعيش حرا سيدا في أرضه، أو تكون صورة كسائر الثورات التي فرح الناس بها في أول الأمر، وصفقوا بأيديهم، ورحبوا بها من أعماق قلوبهم، ثم ما لبثوا أن انقلب سرورهم غما، وفرحهم ترحا، وأمسوا يتمنون اليوم الذي تحررون من نيرها، وسوط عذابها، بعد أن جرعتهم كؤوس الذل، وأذاقتهم عذاب الهون، ومرغت أنوفهم في التراب، فباتوا يتمنون أن تعود

العهود البائدة، على ما كان فيها من فساد وانحراف، وأضحى يناسبهم قول الشاعر قديما:

دعوت على عمرو فمات فسرني بليت بأقوام، بكيت على عمرو!

وقلنا: لندع ذلك للأيام، فهي التي ستكشف الأصيل من الزائف، وتميز المحق من المبطل، ويبقى القانون الإلهي الذي لا يتخلف: (فما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) الرعد: .

السنة الدراسية1969م،1970م إذاعة قطر:

في سنة 1970م أنشئت لأول مرة محطة إذاعة في قطر تسمع صوت قطر من الدوحة لأهل قطر،وبلاد الخليج، وديار العرب، وأقطار العالم. وسمع الناس: هنا إذاعة قطر من الدوحة.

وكان هذا بداية الإعلام المسموع في قطر، وقد بدأت أباشر أول نشاطي الإعلامي فيها، عن طريق برنامج (نور وهداية) الذي كان يعده ويقدمه الإذاعي اللامع المعار من الأردن الأستاذ محمود الشاهد مراقب البرامج في الإذاعة، وكان البرنامج يقوم على الرد على رسائل القراء التي تتعلق بأمور الدين والحياة، يتلقاها الأستاذ الشاهد (أبو توفيق) ويهيئها لي ويعرضها علي، لأجيب عنها مسجلة لتذاع في حينها.

وكان البرنامج يقدم مرتين في الأسبوع، كل مرة ربع ساعة: مرة يوم الجمعة قبل الصلاة، ومرة يوم الإثنين مساء، ثم رأينا أن نجعله نصف ساعة يوم الجمعة، وأظنه كان يعاد يوم الإثنين في أول الأمر.

وكان لهذا البرنامج عشاقه ومتابعوه في قطر، وفي منطقة الخليج ومن حولها، ولا سيما البحرين والمنطقة الشرقية من السعودية.

وقد ظللت أقدم هذه البرنامج، حتى بعد أن أنشئ تليفزيون قطر، وأسند إليّ تقديم برنامج (هدي الإسلام) مساء كل جمعة، لم أنقطع عن برنامج الإذاعة. وقد كلف بتقديمه في السنوات الأخيرة المذيع المعروف الأستاذ زهير قدورة. ثم بعد أن كثرت أعبائي، وازدحمت أوقاتي: رأيت أن أعتذر عن برنامج (نور وهداية) بعد أن قمت به حوالي سبعة عشر عاما، مكتفيا ببرنامج (هَدْي الإسلام) في التليفزيون.

وكنت أقدم في الإذاعة برامج أخرى بمناسبات مختلفة، منها: (حديث الغروب) في شهر رمضان، كان يقدم قبل أذان المغرب، قدمته خمس سنوات، تحت عنوان: (في رحاب القرآن)، ثم (في رحاب السنة).

وكان لهذه الأحاديث قبول حسن عند الناس، وكان الكثيرون يحرصون على سماعها في كل مساء، ولكن من المؤسف: أني لم أحرص أن آخذ نسخا منها بعد تسجيلها، فلما طلبتها بعد ذلك، قالوا: إن كل أشرطة الإذاعة نقلت إلى مكان آخر، غير مرتبة ولا مصنفة، ومن الصعب استخراجها، وهكذا ضاعت عليّ (مائة وخمسون) حديثا، ليس عندي أي أصل لها، فقد كانت مرتجلة، ولم تكن مكتوبة، مثل كل أحاديثي في الإذاعة والتليفزيون.

ملاحظات الشيخ ابن محمود

ومما أذكره بالنسبة للإذاعة: أني وجدت الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية، والعالم البحاثة الكبير، يتتبع برنامجي في الإذاعة، ويستمع إليه. وفي زيارة له، قال لي: أريد أن أجلس معك جلسة خاصة، فقلت: على الرحب والسعة. قال: إني سمعت كثيرا من إجاباتك عن أسئلة السائلين، وهي موفقة إلى حد كبير، ولكن لي ملاحظة على أربع إجابات، أرجو أن تراجعها.

قلت: ليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم.

وتحدث معي في هذه المسائل الأربع، نسيت اثنتين منها، وأذكر اثنتين:

أولاهما: قضية تارك الصلاة. قال الشيخ: رأيتك متساهلا فيها، والأحاديث الصحيحة تكفر تارك الصلاة، وهو المشهور عن الإمام أحمد وبعض السلف.

قلت: يا فضيلة الشيخ، أنا لست متساهلا في أمر تارك الصلاة، وقد ذكرت حكمه في كتابي (العبادة في الإسلام) ولكني أتحرى وأتثبت في قضية التكفير.

وأنا مع جمهور الأئمة (أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم) في تفسيق تارك الصلاة، لا تكفيره، إذا كان تركها على سبيل الكسل، أما من تركها منكرا لفرضيتها، أو مستخفا بأمرها، فهو كافر ولا شك.

والأحاديث التي تكفر تارك الصلاة مؤوّلة، كما أول غيرها، حتى لا تتناقض مع أحاديث وآيات أخرى، حتى إن ابن حزم ـ وهو رجل ظاهري كما تعرف فضيلتك ـ لا يكفر تارك الصلاة، وابن

قدامة الحنبلي يقول: لم ينقل في بلد من بلدان المسلمين أنهم تركوا صلاة الجنازة على تارك للصلاة، أو لم يدفنوه في مقابر المسلمين.

على أن الحنابلة أنفسهم لا يحكمون عليه بالكفر إلا بعد أن يدعوه الإمام أو القاضي إلى الصلاة، فيرفض ويأبى.

والقضية الأخرى: قال الشيخ: إنك تقول: إن المطر ينزل من السحاب، وليس من السماء، والقرآن يخبرنا أن الله أنزل من السماء ماء. ونقل الشيخ كلاما عن ابن القيم في بعض كتبه حول نزول المطر من السماء.

قلت للشيخ: يا مولانا، ابن القيم على أعيننا ورؤوسنا، وهو حجة في الشرعيات، وليس حجة في العلوم الطبيعية والكونية، وكل علم يؤخذ من أهله، كما قال تعالى: (فاسأل به خبيرا) الفرقان: (ولا ينبئك مثل خبير) فاطر: .

والعلوم الطبيعية التي اقتبسها الغربيون منا ثم تفوقوا فيها اليوم، كما نرى، حتى أمسى الإنسان يطير في الهواء، ويغوص في الماء.. هذه العلوم تقول: إن المطر ينزل من السحاب، والسحاب يتكوّن من البخار الذي يتكون من ماء البحار والمحيطات، حتى إذا وصل إلى درجة معينة من البرودة سقط مطرا.

والقرآن يشير إلى أن أصل الماء كله من الأرض، كما قال تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها) النازعات: .

والعرب في شعرها الجاهلي أشارت إلى هذه الحقيقة الطبيعية، فقال شاعرهم أبو ذؤيب الهُذلي في وصف عن السحب:

شربن بماء البحر ثم ترفّعت   متى لحجٍ خضر لهن نئيج!

والنثيج: الصوت المرتفع. وهو صوت أمواج البحر، وهي تتلاطم.

وقال آخر في موقفه من ممدوحه:

كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه، لأنه من مائه!

وهذه حقيقة أصبحنا نشاهدها بأعيننا حين نركب الطائرات، فتعلو بنا فوق السحاب، فربما تكون الأرض ممطرة، ونحن نشاهد الشمس ساطعة مشرقة فوق السحاب، فإذا أردنا الهبوط اخترقنا السحاب لننزل إلى الأرض.

وأما قوله تعالى: (ونزلنا من السماء ماء طهورا) الفرقان: وأمثالها من الآيات، فلها تأويلان:

أحدهما: أن معنى من السماء: من جهة السماء.

وثانيهما: أن السماء يقصد بها السحاب، بناء على أن السماء عند العرب: كل ما علاك، وفيه جاء قوله تعالى: (فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر: هل يذهبن كيده ما يغيظ؟) الحج: فالمراد بالسماء هنا: السقف.

وسكت الشيخ رحمه الله، ويبدو لي كأنه لم يقتنع بما قلته. فهذه أفكار جديدة تصطدم بما استقر عنده من معلومات راسخة تلقاها عن مشايخه الثقات، وعن كتبه ومصادره التي يعتز بها.

وقد سبق للشيخ رحمه الله: أن أنكر صعود الإنسان إلى القمر، وقال: هذا من أخبار الآحاد، التي يمدح فيها الإنسان نفسه بما يزعم أنه أنجزه!!

قلت له: يا شيخنا، هذا ليس خبر واحد من الآحاد، إنما هو حدث تشارك فيه دول، وتتنافس عليه دول، ولو افترضنا أن الأمريكان يكذبون، فكيف يسلم لهم منافسوهم الروس وغيرهم؟

وهذا يدلنا على أن التكوين القديم لمشايخ العلم الديني في منطقة الخليج، كان ينقصه شيء مهم، وهو دراسة العلوم الكونية: من الفيزياء والكيمياء والأحياء (علم الحيوان وعلم النبات) والرياضيات، وكذلك الجغرافيا الفلكية والطبيعية وغيرها.

وهو ما تنبه إليه الأزهر من قديم، حيث درس ذلك شيوخنا، وشيوخ شيوخنا. وقد سموا هذه العلوم: العلوم الحديثة، وهي في الواقع علوم قديمة، وهي علوم المسلمين في الأصل، اقتبسها الغربيون منهم وطوروها، وأضافوا إليها، حتى بلغت في عصرنا مبلغا هائلا، وهو ما سموه الثورات العلمية: الذرة النووية، والثورة الفضائية، والثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات.



جنازة عبد الناصر

سلسلة حتمية الحل الإسلامي:

تبنى عبد الناصر في (ميثاقه) الشهير: (حتمية الحل الاشتراكي) وتنادى الناس، وتحدثت الألسنة، وكتبت الأقلام، في تمجيد الحل الاشتراكي، وأنه الحل السحري، الذي يملك (عصا موسى) و(خاتم سليمان) فيحل كل عقدة، ويسد كل ثغرة، ويطعم كل جائع، ويشغل كل عاطل، ويؤوي كل مشرد، ويكفل كل محتاج**!**

وعندما جربه الناس لم يجدوا شيئا من ذلك: لم يطعَموا به من جوع، ولم يأمنوا به من خوف، ولم يغتنوا به من فقر، ولم يُشفوا به من مرض.

لهذا رأيت أن أرد على فكرة (حتمية الحل الاشتراكي) بسلسلة من الكتب، أطلقت عليها: (حتمية الحل الإسلامي)، تظهر في أربعة أجزاء:

1- جزء يتحدث عن (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟).

2- وجزء يتحدث عن (الحل الإسلامي: فريضة وضرورة) أي فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

3- وجزء يتحدث عن (الرد على شبهات العلمانيين والمتغربين) وإبراز (بينات الحل الإسلامي).

4- وجزء أخير يتحدث عن (أعداء الحل الإسلامي) الذين يقفون في سبيله، ويعوقون طريقه.

وقد ظهر الجزءان الأول والثاني: في سنتي 1969 و1970 على ما أذكر، وتأخر الجزء الثالث بعض الوقت، أما الجزء الرابع فتأخر كثيرا، فلم يظهر إلا من عدة سنوات.

وكلمة (الحتمية) من (أكليشهات) الماركسيين، ولكني استخدمتها من باب (المشاكلة) كما يقول علماء البلاغة العربية، مثل قوله تعالى: (يخادعون الله وهو خادعهم) النساء: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) الشورى: .

السنة الدراسية1970م،1971م أيلول الأسود:

في أوائل شهر سبتمبر سنة 1970م، هزت العالم العربي مأساة هائلة لا ينساها التاريخ، وقعت تحت سمع العرب وبصرهم، في عاصمة عربية معروفة غير منكورة، هي (عمّان) عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية! إنها مأساة (أيلول الأسود) التي قتل فيها جمٌّ غفير من أبناء فلسطين في ثلاثة أيام، برصاص الجيش الأردني الباسل!! وهجماته العنترية على إخوانه الفلسطينيين، ومنهم من قتل في قلب منزله، وربما قتلت معه زوجته وأولاده، أو بعض أولاده، مثل صديقنا العالم الأزهري الشيخ عزت الشريف عليه رحمة الله.

صحيح أن أعضاء فتح قد تجاوزوا في تصرفاتهم، وارتكبوا بعض الأخطاء في حق المواطنين في عمان، وأصبحوا دولة داخل الدولة، ولم يعودوا يعبأون بسلطة ولا قانون، ولم تبادر القيادة المسؤولة بتأديب هؤلاء. ومثل هذا لا تصبر عليه دولة ترى لنفسها السيادة على أرضها.

ولكن ألم يكن ممكنا توسيط بعض القادة العرب لحل المشكلة، وإخماد النار؟ ثم لماذا الضرب بكل هذه القسوة وهذا الجبروت؟ إننا لم نستعمل هذه القسوة والوحشية مع الصهاينة الذين اغتصبوا أرضنا، وسفكوا دماءنا، وشردوا أهلنا، ودنّسوا مقدساتنا، فكيف نستعملها مع إخواننا، الذين هم منا ونحن منهم؟ أليس الشاعر العربي يقول:

أخاك أخاك**!** إن من لا أخا لـه   كساع إلى الهيجا بغير سلاح**!**

وإن ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه   وهل ينهض البازي بغير جناح؟

فكيف كسرنا سلاحنا، وكيف هضنا جناحنا؟ وكيف نقاوم بغير سلاح، أو نطير بغير جناح؟**!**

وإني لأعجب كل العجب من قسوتنا ـ نحن العرب ـ بعضنا على بعض، في حين وصف الله أصحاب رسوله بقوله: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) الفتح: .

كما وصف الله الجيل المرتقب لنصرة الإسلام عندما يمرق المارقون، ويرتد المرتدون، بقوله: (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) المائدة: .

وهذه إحدى العبر من هذه المأساة: أننا عند الخصومة ننسى كل الروابط التي تربطنا، ويتعامل بعضنا مع بعض بشراسة ووحشية لا نتعامل بها مع أشد الناس عداوة لنا.

وعبرة أخرى نأخذها من هذه المأساة، وهي: أن أية جماعة شعبية مسلحة لا يمكن أن تقاوم قوة الجيش النظامي المسلح، فقد كانت فتح تملك الرجال، وتملك السلاح، وكانت متمركزة في أسفل العمارات وفي أعلاها، وكانت مسنودة محليا، ومسنودة عربيا، بل مسنودة من قوى كبرى مثل روسيا، ومع هذا حين اصطدمت بقوة الجيش، لم تستطع الصمود أمامه، فهو يملك من المعدات الثقيلة، والإمكانات الكبيرة ما لا تملكه فتح. ولهذا تمكن من ضربها في مقاتلها، ومحاصرتها في مواقعها، والقضاء على قوتها، في وقت قصير.

وفي هذا عبرة للجماعات الشعبية، التي تفكر في الاستيلاء على السلطة بعمل عسكري، ضد قوات الدولة المسلحة، فهذا تفكير سطحي، وإغراق في الخيال، فإن الجيوش النظامية، والقوات المسلحة، بما تملك من أسلحة وعتاد وطاقات هائلة: قادرة على سحق مثل هذه المحاولات المحدودة القدرة، مهما يكن عند القائمين عليها ما لا يجحد من فضائل الشجاعة والبطولة وحب البذل في سبيل الله.

ولقد سجلت هذا في أكثر من كتاب لي، أحذر الإسلاميين من التورط في تفكير كهذا، فهو لا يحقق هدفا، إلا القتل والدمار، وما يشبه الانتحار.

وصفي التل:

جرت هذه المأساة في عهد حكومة وصفي التل، رئيس وزراء الأردن، الذي باء بوزرها، وحمل تبعتها.

وقد غلا مرجل الغضب بين الفلسطينيين خاصة، وبين العرب والمسلمين عامة، على وصفي التل، وانصبت عليه اللعنات من كل جانب، لأنه هو الذي تولى كِبْر هذا الأمر، وهو الذي أصدر الأوامر، ووجه النداء إلى وزير الدفاع وإلى الجيش.

حتى لو صدرت إليه الأوامر من الملك، فهو الذي يتولى التنفيذ، وكان يمكنه أن يرفض ويقدم استقالته، ولا يحمل عارها وشنارها عند الله وعند الناس أجمعين.

ولا عجب أن شهد شهر أيلول نفسه: الانتقام السريع من وصفي التل، وهو يشارك في مؤتمر القمة في القاهرة الذي دعا إليه عبد الناصر. فوجه شاب فلسطيني إلى صدره عدة رصاصات، فأردته قتيلا.

ميلاد ابني عبد الرحمن:

وفي الثامن عشر من هذا الشهر ـ سبتمبر 1970- ولد ابني ـ الذكر الثاني ـ عبد الرحمن. فمنذ ابنتي أسماء: آثرنا أن نختار لأولادنا أسماء تراثية، من أسماء الأنبياء أو أسماء الصحابة والسلف.

وقد جاء في الحديث الصحيح: "أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن". وكنت أوثر اسم (عبد الله) لأنه اسم أبي، وفي ذلك إحياء له. ولكني زوجتي فضلت اسم عبد الرحمن، فلم أحب أن أرفض رغبتها.

والمصريون يسمون كثيرا (عبد الله) وغيره مما عبّد لله، كعبد العزيز، وعبد الحميد، وعبد القادر، وعبد اللطيف، ونحوها، ويروون في ذلك حديثا يقول: "خير الأسماء ما حمّد وما عبّد" ومعنى "ما حمد" أي ما اشتق من الحمد، مثل محمد وأحمد ومحمود ونحوها.

ولكن الحديث لا أصل له، ولكن أسماء التعبيد لله مقيسة على اسم عبد الله وعبد الرحمن، وقد صح بهما الحديث. ولا يكاد يعرف من الصحابة من الأسماء المعبدة لله غير اسمَيْ عبد الله وعبد الرحمن.

كان عبد الرحمن يدلل في الأسرة، فيسمى (بودي) على طريقة المصريين، في اشتقاق اسم تدليل، من الاسم الأصلي، فمحمد: ميمي، وأسامة: سمسم، وسهام: سومة، إلى غير ذلك، وأعتقد أنه لا حرج شرعا في ذلك. وقد كان العرب يفعلون مثل ذلك، عن طريق تصغير الاسم تصغير (تمليح) كما يسمونه. فهم يطلقون على محمد: حُميد،و على عامر: عويمر، أو عمير. وعلى فاطمة: فطيمة.

وعندهم أيضا طريقة الترخيم في النداء، بحذف آخر الكلمة، فبدل أن يقال: يا صاحبي، يقول: يا صاح. وينادى فاطمة بقوله: فاطم، وزينب: زين.. وهكذا.

كان عبد الرحمن سليم الجسم، معافى في بدنه، ولكنه من صغره كان يشكو من التهاب اللوز باستمرار، حتى كدنا نجري له عملية لاستئصالها، لولا أن صديقنا الدكتور شوقي الصيرفي الطبيب الشهير في الأنف والأذن والحنجرة، نصحنا بأن لا نجريها، وطالبنا بالصبر عليه، حتى يكبر قليلا، وسيشفى منها بإذن الله، وقد كان.

كان لعبد الرحمن طُرف ونوادر في طفولته، وكان كلما وجد سيارة مفتوحة، سارع إليها وركبها، وقعد مقعد السائق، ثم يقول: تتركون السيارات مفتوحة، لكي أركبها، ثم تؤنبوني على ركوبها! وأنتم الذين تركتموها لي لأركبها!

وإذا نهرته أمه، أو لمسته بضربة خفيفة لغلطة ارتكبها، يقول: أي بيقولوا: بيحبوني. لو كان بيحبوني ما كانوا ضربوني!

وقد رأى بعض الأطفال يلبسون نظارات، فطلب أن يلبس نظارة مثلهم، فقلنا له: هؤلاء نظرهم ضعيف، ولا يحسنون النظر من غير النظارة. فإذا هو في يوم يتصنّع أنه لا يستطيع أن يرى. وهو لهذا يريد نظارة!

وظل وهو ابن خمس سنين يريد أن يذهب إلى المدرسة الخاصة، فقدمنا له في مدرسة قريبة منا، حتى قبل فيها، وذهبنا به إلى المدرسة أول يوم. وبعد ساعتين أو نحو ذلك، رأيناه عائدا إلى البيت، قلنا له: لماذا عدت الآن، ولم تنته الدراسة؟ قال: أنا طلبت الذهاب إلى المدرسة، وقد ذهبت إليها! يعني: أنه يريد الذهاب إلى المدرسة للفرجة فقط!

موت عبد الناصر:

وفي نفس هذا الشهر، وفي يوم 28 منه: أعلن نبأ هائل على العالم العربي. إنه موت عبد الناصر.

وفي هذه الليلة اتصل الأخ الأستاذ عبد البديع صقر بي، وقال: إن إذاعة القاهرة أوقفت كل برامجها، ولا تذيع إلا القرآن،

و(المارشات) العسكرية، وكذلك إذاعة (صوت العرب). ويبدو أن عبد الناصر مات، ويتوقع إذاعة الخبر بعد قليل.

ولم تمض إلا برهة قليلة، حتى سمع الناس صوت أنور السادات ينعي إلى الشعب المصري، وإلى الأمة العربية: رجلا من أعز الرجال، ومن أغلى الرجال!

الصوت الذي أعلن البيان الأول لثورة 23يوليو، أو لانقلاب 23يوليو، هو نفس الصوت الذي أذاع نبأ وفاة الرجل الذي فجر هذه الثورة.لا شماتة في الموت، وكلنا من هذه الكأس شاربون، وإلى هذا المصير ذاهبون. ولكننا ـ نحن الإخوان ـ بشر، يحكمنا ما يحكم البشر من عواطف ومشاعر. فقد مات الرجل الذي قهرنا وأذل كبرياءنا، وذقنا على يديه ألوان العذاب.. الرجل الذي سجن رجالنا، وسجن كل من يساعد أسرنا بعشرة قروش، حتى يموت أولادنا من الجوع، وتضطر نساؤنا إلى مد اليد، أو ما هو أكثر من ذلك، تحت قهر الحاجة، وعضة الجوع، والجوع كافر لا يرحم.. الرجل الذي علق المشانق لدعاتنا وعلمائنا: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وسيد قطب وغيرهم. والذي قتل أكثر من عشرين منا جهرة في ليمان طرة، وقتل آخرين خفية في أتون التعذيب.. وتحت لهيب السياط والكي بالنار، وغيرها من الآليات المستوردة من النازية والشيوعية.

الرجل الذي منعنا من حقنا في وظائف الدولة، ونحن أولى الناس بها، بمقتضى مؤهلاتنا، وتقدمنا في ترتيب الناجحين، وألجأنا إلى أن نطرق أبواب المدارس الخاصة، ليردنا من يردنا، ويقبلنا من يقبلنا على هون!

الرجل الذي سلط علينا أجهزة إعلامه ـ مقروءة ومسموعة ومرئية ـ لتفتري علينا الأكاذيب، وتتقول علينا الأقاويل، وتشوه وجه

دعوتنا، وترمي بالإفك رجالنا، ولا تمكننا من أن نقول كلمة في رد البهتان، وتفنيد الافتراء.

الرجل الذي أغلق دُورنا، وعطل مسيرتنا، وعوق دعوتنا، وجمد حركتنا، في حين أطلق الحرية للشيوعيين واللادينيين!

لقد مات الرجل المسؤول الأول عن ذلك كله، فمن حقنا أن نتنفس الصعداء، وأن نستبشر بموته، وأن نتوقع تغييرا من وراء ذلك يكون في صالحنا، وفي صالح وطننا وأمتنا. (فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا) الانشراح: 5،6.

هكذا كان موقفنا نحن الإخوان المسلمين الذين أصابنا ما أصابنا في عهد عبد الناصر، وكنا من ضحايا جبروت هذا النظام الشمولي الطاغوتي الذي قهرنا وقهر شعب مصر كله معنا.

ولكن جماهير شعبنا المصري وشعبنا العربي: حزنت على عبد الناصر، وبكت عليه، وخرجت جموعها بعشرات الألوف، ومئات الألوف، مودعة حزينة منتحبة.

خواطر حول الموت:

إن شعبنا المصري شعب عاطفي، تهزه المصائب، وتغلب عليه الأحزان، ويبكي على الموتى بحرارة وحرقة، ولهذا بكى عبد الناصر، الذي مات فجأة، ومات قبل سن الشيخوخة المعتاد، ولم تجد معه محاولة الأطباء، ولا أنواع الدواء، وقد اجتمع حوله من النطاسيين والخبراء أكبرهم قدرا، وأثقلهم وزنا، ولكن الداء إذا كان من السماء، بطل الدواء، وعز الشفاء. (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) المنافقون: .

هذه نهاية كل حي: أن يموت، وأن يوارى في حفرة، وأن يدع الأهل والولد، والأعوان والخلان، وأن يواجه وحده عمله في حفرته أو في قبره.

هذه نهاية الرسل والأنبياء، كما قال الله لرسوله: (إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصون) الزمر: وقال له: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) الأنبياء: .

وهذه نهاية الملوك والأمراء والأباطرة وغيرهم من أصحاب السلطان، وذوي الهيل والهيلمان، ممن ملكوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وممن كانت الجيوش الجرارة تحرسهم، والرجال الأقوياء تخدمهم، والشعوب رهن إشارتهم، وطوع إرادتهم، ثم أتاهم هازم اللذات، ومفرق الجماعات: الموت، ففارقوا هذا كله، ولم يغن عنهم هذا كله من الله شيئا! فارقوه مكرهين، وواجهوا مصيرهم منفردين. ولسان حالهم يقول: (ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه) الحاقة: .

أو يقول ما قاله أحد الملوك الكبار من المسلمين، وهو على فراش الموت: يا من لا يزول ملكه، ارحمن من زال ملكه!

طافت هذه الأفكار والأحاسيس بخاطري بعد موت عبد الناصر. وقلت في نفسي: لماذا لا يعتبر الناس بالموت؟ لماذا ينسى كل حي أنه ولد ليموت؟ لماذا ينسى المرء مَن شيعه من أقارب وأحبة وأصدقاء وواراهم التراب؟ لماذا ينسى الملوك والرؤساء أن الملك لو دام لمن قبلهم ما وصل إليهم؟ وأنه سينتقل منهم إلى من بعدهم؟

هذه خواطر واعظ أو داعية، لن تغير من الواقع شيئا. فالناس هم الناس، يدفنون الموتى بأيديهم، ثم يعودون من دفنهم، ليمارسوا حياتهم، وكأن شيئا لما يكن. ولعل هذه الغفلة عن مصيبة الموت من نعمة الله على الإنسان، حتى تعمر الأرض، وتستمر ساقية الحياة تدور ولا تتوقف. ولكن زيادة هذه الغفلة واستمرارها هو الخطر الذي لا يليق بأهل الإيمان.

موقف قطر وأهل الخليج:

كان وقع موت عبد الناصر شديدا على أهل قطر، وأهل الخليج عامة، فقد كانوا ـ بصفة عامة معجبين به، محبين له، فهو الزعيم الذي أشعرهم بوجودهم، أمام الاستعمار المتغطرس، وقد كانوا منسيين لا يحس بهم أحد، حتى ظهر (صوت العرب) من القاهرة يناديهم بصوت جهوري: أخي في عمان، أخي في دبي، أخي في قطر، أخي في البحرين. وكان صوت أحمد سعيد مدير صوت العرب، ورفقائه الأولين: محمد أبو الفتوح، ومحمد عروق، وسيد الغضبان وغيرهم: يحرك الساكن، ويثير الكامن، في هؤلاء العرب على ضفاف الخليج، الذي كان يسمى (الخليج الفارسي) فأصبح لسان الإعلام الجديد، يطلق عليه: (الخليج العربي). وقد تعلقت قلوب أهل الخليج أكثر بعبد الناصر، حين (أمّم) قناة السويس، وواجه التحدي الغربي، الذي تمثل في العدوان الثلاثي: (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) على مصر، وإعلان عبد الناصر من منبر الأزهر: سنقاتل، سنقاتل.

كما وقف عبد الناصر في وجه الغرب حين خرج من أسر احتكار السلاح، واشترى سلاحه من المعسكر الشرقي الشيوعي.. ثم تحدى

أمريكا في بناء السد العالي، معتمدا على روسيا، والاتحاد السوفيتي.

كل هذا حبب عبد الناصر إلى أهل الخليج، وخصوصا بعد تبنيه لدعوة (القومية العربية) التي صادفت هوى في قلوب كثير من العرب، بعد سقوط الخلافة، وضعف الرابطة الإسلامية.

فلا غرو أن يحزن أهل الخليج على فراق عبد الناصر، وإن كان وقع الموت على أهل قطر، وأهل الخليج عامة: خفيفا هينا، لا يزلزل الإنسان الخليجي، كما يزلزل الإنسان المصري. ولكنهم على أية حال تأثروا بموت عبد الناصر.

وجاء التوجيه في قطر إلى خطباء المساجد: أن يصلوا صلاة الجنازة ـ صلاة الغائب ـ على عبد الناصر، وفي جامع الشيوخ ـ الجامع الكبير ـ وقف المصلون جميعا خلف الإمام ليصلوا، ما عدا واحدا، رفض القيام والمشاركة في الصلاة، هو أخونا الكريم الشيخ مصطفى جبر رحمه الله، قال: أنا لا أصلي على ظالم وطاغية! وكان الشيخ مصطفى موظفا في وزارة التربية. فأمر وزيرها الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني رحمه الله، حين بلغه ذلك، بإيقافه عن العمل! وقد توسطنا له عند الوزير، فرفع عنه العقوبة.

تعزية في عبد الناصر:

ولم تكن في قطر سفارة لمصر ـ أو للجمهورية العربية المتحدة كما كانت تسمى، حتى بعد انفصال سورية ـ ولكن الجالية المصرية ومعهم بعض أهل قطر: أقامت حفل عزاء لعبد الناصر، تتقبل فيه تعزيات المعزين.

وقد قاطعه الإخوان عامة، إلا قليلا منهم، رأوا أن من واجب المجاملة أن يعزوا فيه، وقال بعضهم، وكان من المعتقلين الذين نالهم من الأذى والبلاء ما نالهم: إني أشفي غليلي بالعزاء فيه**!**

وكنت ممن قاطع هذا الحفل، ولكن أخوين كريمين، زاراني في بيتي، ورجواني أن أشارك في هذا العزاء، قالا: لما لك من وزن خاص في قطر، وتعزيتك ستكون لها معنى، وتدفع أذى كثيرا عن الإخوان الذين لم يشارك جمهورهم في هذا العزاء، فقد يصيبهم أذى كما أصاب أخانا مصطفى جبر، الذي رفض الصلاة على عبد الناصر. وما زالا يلحان عليّ، حتى استجبت لهما، وذهبت معهما، وأنا رجل أضعف أمام ضغط الإلحاح. وقد ذهبت والحفل يوشك أن ينفض، ولكن كان لحضوري اعتبار خاص قدره كل الموجودين.

كان الأخوان اللذان زاراني وألحّا علي في المشاركة، هما: الأخ الحاج محمد حلمي المنياوي، والأخ عبد الحميد طه من إخواننا القدامى في قطر، ويعمل رئيس منطقة تعليمية في قطر.

أما الحاج حلمي المنياوي، فهو أحد ضحايا عبد الناصر، فقد كان صاحب (دار الكتاب العربي) للطباعة والنشر في القاهرة، وهي إحدى الدور الرائدة التي كان لها دورها في نشر الكتب الإسلامية والعربية، والتي تطورت مبكرا تطورا كبيرا، وكان الحاج حلمي من أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان، وقد انتهت مؤسسته الكبيرة على يد عبد الناصر، واضطر الرجل أن يهاجر، ويعمل موظفا في مؤسسة (دار العلوم) للطباعة، التي يملكها آل عبد الغني في قطر. ولهذا لما جاءني الحاج حلمي مع الأخ عبد الحميد طه، وألح علي أن أذهب معهما للعزاء، وقال الحاج حلمي: إن في هذا رعاية لأمثالي الذين لا ظهر لهم، ولا تاريخ في قطر: صعب عليّ هذا

الرجل، الذي كان ملء السمع والبصر في مصر سنوات طويلة. وقيل من قبل: ارحموا عزيز قوم ذل!

ونقل خبر تعزيتي في عبد الناصر إلى الإخوة في الكويت وغيرها، مجردة عن دواعيها وملابساتها، فإذا بي أواجه حملة شعواء من الإخوان عليّ: أني عزيت في الطاغية الذي عذب الإخوان، وعطل دعوتهم، وعوق مسيرتهم، وفعل بهم الأفاعيل، وكان بعض الإخوة السطحيين المساكين يتقربون إلى الله تعالى بالتشنيع عليّ، والنَّيْل من عرضي، وكأني لست ممن ابتلوا بجحيم عبد الناصر، ولا ممن ذاقوا الويلات على يديه.

ولكن عيب الجماعات الكبيرة: أن فيها أناسا تغلب عليهم النزعة (الظاهرية) في قراءة الوقائع، وفي تحليل الأمور، فيحكمون على الأمور بظواهرها القريبة، دون النظر إلى آفاقها البعيدة، لا يعرفون ما يسميه الفقهاء: فقه المقاصد، ولا فقه المآلات. هذا الفقه الذي جعل الرسول يبقي على المنافقين، وهم يكيدون له، ويمكرون به، وقد أشار عليه المخلصون من أصحابه بقتلهم والاستراحة من شرهم. فكان رده: "أخشى أن يتحدث الناس: أن محمد يقتل أصحابه".

هذه الفئة في الإخوان وفي غيرها من الجماعات، التي لا تنظر إلا إلى مواضع أقدامها: عالية الصوت، قادرة على التشويش والتشويه، ولو إلى زمن، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل، سنة الله في خلقه: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) الأنبياء: .

وقفة لتقويم عبد الناصر وعهده:

لقد غيب الموت عبد الناصر، وطويت صفحته من دنيانا، ولقي ربه بما له وما عليه، وسيجزيه ربه بما يستحقه، يوم تبلى السرائر، إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولا يضيع عنده مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما. ومعنى الظلم: أن يحمل وزر غيره، ومعنى الهضم: أن يضيع أجر عمله.

ومن الناس من إذا مات ماتت خطاياه معه، فطوبى له. ومنهم من يموت ولا تموت ذنوبه، بل تبقى من بعده آثار ظلمه وعدوانه، وهو الذي قال الله تعالى في أمثاله: (ونكتب ما قدموا وآثارهم) يس: .

هل من حقنا أن نقف وقفة متأنية لتقويم عبد الناصر وعهده، وما فيه من حسنات وسيئات، وإنجازات وإخفاقات؟ هل كانت ثورة 23 يوليو خيرا أو شرا على المصريين والعرب؟

ربما توقف بعض أهل الدين من الناحية الشرعية، وقالوا: نحن أمرنا أن نذكر محاسن موتانا، وجاء في الحديث: "لا تذكروا هلكاكم إلا بخير" كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب الأموات، لسببين: الأول: أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وأمسوا عند رب عادل يحاسبهم.

والثاني: أن سب الأموات يؤذي الأحياء، ممن يهمه أمر الميت من أبناء وأقارب.

لهذا يتورع بعض المتدينين من الكلام عمن مات، وإن أصابه من ظلمه ما أصاب، ويكل أمره وجزاءه إلى من لا يخفى عليه خافية، ولا تضيع عنده مظلمة مظلوم، ولا حق مهضوم.

ولكن إذا كان السب ممنوعا، فإن النقد الحق مشروع، لا سيما من كان يتحمل مسؤولية عامة، فإن من حق الناس أن ينقدوا أعماله، ويثنوا على ما كان فيها من حق وخير، وينكروا ما كان فيها من باطل وشر. وهذا ما فعله المؤرخون المسلمون الأثبات في تقويم الخلفاء والأمراء، من بني أمية، وبني العباس وغيرهم. وقالوا: كان فلان عادلا، وكان علان ظالما، وأوسعوا الحجاج بن يوسف ذما وتجريحا.

فالتعديل والتجريح من أجل مصلحة الدين، ومصلحة الأمة: أمر مشروع. وعلى هذا مضت سنة أئمة الحديث في خير القرون ومن بعدهم: يقولون عن الموتى في كتبهم: هذا مغفل، وهذا كثير الغلط، وهذا مدلس، وهذا كذاب، وهذا أكذب الناس، ليحذروا الأمة أن تثق بهؤلاء، أو تأخذ عنهم الدين.

وسيظل من حق المظلوم: أن يصرخ شاكيا من ظالمه، حيا كان أو ميتا، ما دامت مظلمته قائمة، كما قال تعلى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما) النساء: .

فلسفتي في تجميع كل القوى:

وأنا لا أريد ـ بحق ـ أن أنكأ الجراح، ولا أن أنبش القبور، ولا أن أذكر بالماضي الأليم، ولا سيما في هذا الوقت التي تواجه الأمة فيه أخطارا جساما، وقد كاد لها أعداؤها كيدا، ومكروا بها مكرا كبّارا.

وقد عرفت من سيرة الإخوان ومن أخلاقهم: أنهم لا يحاولون أن يثأروا ممن ظلموهم، بل يدخرون ما أصابهم عند الله، الذي لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يظلم أحدا مثقال ذرة، وهو الذي سيأخذ لهم حقهم، ويجزيهم الجزاء الأوفى. وفي هذا ما سجله

تاريخهم في عهد الملكية، وعهد الثورة. وقد كان بوسعهم أن ينتقموا من ظالميهم الذين ساموهم سوء العذاب، بعد أن ترك كثير من هؤلاء مناصبهم، وزال سلطانهم، فأصبحوا بلا ظفر ولا ناب! ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ولم يفكروا فيه، وتركوا ذلك للقدر الأعلى، الذي ثأر لهم من خصومهم، فرأوا نهايتهم السوداء في حياتهم.

رأوا (حمزة البسيوني) وقد دخلت سيارته في سيارة أمامها في الليل، تحمل أسياخا من الحديد، حطمت سيارته وقطعت جسده تقطيعا.

ورأوا (شمس بدران) يدخل السجن معهم، ولكنه لم يكن متماسكا كما كانوا، بل كان ذليلا منهارا.

ومن هنا لا تعجبوا إذا دعوت إلى نسيان المظالم والمآسي الماضية، وحثثت على رصّ الصفوف، وتجميع القوى كلها، لمواجهة الخطر المحدق، ومقاومة العدو الشرس، قائلين: عفا الله عما سلف. ولهذا رحبت باجتماع القوميين والإسلاميين من العرب في صورة المؤتمر القومي الإسلامي، وكنت أحد الذين اشتركوا في إعداد الورقة التي تمثل الجانب الإسلامي، وحضرت أكثر من مرة دورات هذا المؤتمر في بيروت. ولا شك أن (الناصريين) في مصر وفي غيرها من العالم العربي: جزء أساسي من هذا المؤتمر.

ومع هذا لا يسعني ـ وأنا أتحدث عن هذا الجانب الهام من التاريخ في سيرتي ومسيرتي ـ أن أتجاهل ذلك، وأغض الطرف عنه، وسيلومني الكثيرون أني لم أقل رأيي، وقد وعدت قارئ هذه المذكرات في الجزء الثاني: أن أقول رأيي في عبد الناصر وعهده عندما يأتي الحديث عن وفاته. وكل من يتعرض للعمل العام لا بد أن يتعرض للنقد في حياته وبعد مماته.

الاختلاف الشديد في عبد الناصر:

ولا ريب أن الناس في رجل كعبد الناصر جد مختلفين، فله أنصار يرتفعون به إلى أعلى عليين، وله خصوم يهبطون به إلى أسفل سافلين. وبين مدح المغالين في المدح، وقدح المبالغين في القدح: تضيع الحقيقة.

ومما لا يخفى على ذي لب: أن عين المحب لا ترى عيبا فيمن تحب، ولا ترى غير المحاسن والمزايا، كما ورد: حبك الشيء يعمي ويصم! وعين الكاره والساخط لا ترى غير العيوب والسقطات. وهذا ما عبر عنه الإمام الشافعي من قديم بشعره الذي يحفظه الخاص والعام:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وهل يستطيع إنسان أن يتجرد من عواطف الحب والكره أو الرضا والسخط، وينظر إلى من يقومه نظرة (موضوعية) خالصة، بعيدة عن (الذاتية) تماما؟

لا يجرؤ بشر أن يدعي ذلك، وإن بلغ في تزكية النفس ما بلغ، فلا بد أن تغلبه بشريته، فيحاول ـ واعيا أم غير واع ـ أن يضخم بعض الهنات الصغيرة، أو يصغر بعض الحسنات الكبيرة، أو نحو ذلك.

ولقد توقفت فترة من الزمن في تقويم عبد الناصر، باعتباري ممن جرحتهم سهامه، وأصابهم ظلمه، ولا تزال آثار جراحه في جسده، وآثار مظالمه في نفسه، تأتيه في صورة كوابيس بالليل، وذكريات

أليمة في النهار، ومضايقات في أشكال شتى، منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه. ومن كان في مثل حالي ربما لا يتوقع منه أن يكون منصفا في تقويم الرجل.

ويهمني أن يعلم قارئي أني لا أدعي العصمة لنفسي، ولا أزعم أني فوق البشر الذين يتأثرون بمشاعر الحب والبغض، ولكني أرجو أن أسلك (النهج الوسط) الذي اخترته منهاجا لي في حياتي كلها، ورضيت به، وألقى الله عليه.

لقد رأيت من الناس من يجعل من عبد الناصر:ملاكا رحيما، وبطلا أسطوريا، وقائدا لا يشق له غبار، وسياسيا فاق السياسيين، ومصلحا بز المصلحين!

هو عندهم منقذ وطني، ومحرر سياسي، وزعيم عربي، ورائد إفريقي، وربما أضافوا إليه: وقائد إسلامي! فهو الذي دبر الثورة، وطرد الملك، وحرر مصر من الإقطاع، وحررها من الإنجليز، وهو داعية القومية العربية، والتحرر الإفريقي، وأحد أبطال كتلة عدم الانحياز، ومنشئ المؤتمر الإسلامي في مصر.

وزعم بعض المداحين: أنه سمع خطباء مصر الثلاثة (مصطفى كامل، وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر) فوجده أبرز الثلاثة على التأثير في الجماهير بلغته الشعبية السهلة! (أي بلغته العامية المبتذلة فاق الخطباء الذين تدرس خطبهم في كتب الأدب)!!

إلى آخر ما يروج من سلع المديح والإطراء والمبالغات في سوق النفاق، حتى سمى بعض الكتاب مصر في ذلك العهد (نفاقستان)!

وما تضخه أجهزة الإعلام بمختلف أدواتها وألوانها من مواد مقروءة أو مذاعة أو متلفزة، كلها مسخرة لتمجيد الزعيم، وأقوال الزعيم، وأعمال الزعيم، وأفكار الزعيم، وبطولات الزعيم، لا

تتوقف، ولا تتوانى، يوما ولا بعض يوم حتى مات! بل بعد أن مات إلى يوم 15 مايو 1971م يوم ضرب السادات (مراكز القوى) الناصرية ـ التي ظلت تحكم باسمه من بعده ـ ضربة قاضية، لم تقم لها بعدها قائمة.

هنا بدء المخبوء ينكشف، والمستور يظهر للعيان، والذي أخرسه الخوف يتكلم، والمخدوع بالدعاية والشعارات ينزع الغشاوة عن عينه ليرى، وبدأت الصحف (القومية المؤممة) تفيض بالمقالات والتحقيقات والتعليقات، وأصحاب الأعمدة اليومية يفيضون بما كتموه في صدورهم.

وظهرت كتب كثيرة تتحدث عن مظالم تلك الفترة، وعن مآسي تلك السنين، وعن الأموال التي هلكت، وعن الفرص التي ضاعت، وعن القباب الضخمة التي شيدت وليس تحتها شيخ، وعن الدعايات الهائلة التي ضللت الشعب، حتى جرى وراء السراب يظنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!!

ظهر كتاب توفيق الحكيم (عودة الوعي) وظهر كتاب جلال الحمامصي (حوار وراء الأسوار) وكتاب المستشار محمد عبد السلام (سنوات عصيبة) وكتاب سامي جوهر (الصامتون يتكلمون) وكتاب محمد عبد الرحيم عنبر (محاكمات جمال عبد الناصر) وكتابه (ويل لهؤلاء من محكمة التاريخ) وكتاب محمد شوكت التوني (قضية التعذيب الكبرى) و(محاكمات الدجوي) وكتاب (في معتقل أبي زعبل) لإلهام سيف النصر، وكتاب د. إبراهيم عبده (رسائل من نفاقستان) و(مذكرات عبد اللطيف البغدادي) وكتاب (كلمتي للتاريخ.. كنت رئيسا لمصر) للرئيس محمد نجيب، وكتاب صلاح الشاهد (ذكرياتي بين عهدين) وكتاب محمد أنور رياض (القابضون على الجمر) وكتاب عادل سليمان وعصام سليمان

(شهداء وقتلة في عهد الطغيان) ومصطفى أمين في كتبه: من (سنة أولى سجن) إلى (سنة تسعة سجن)، وكتاب (عبد الناصر) لأحمد أبو الفتح، وكتاب أنيس منصور (عبد الناصر المفترَى عليه والمُفترِي علينا) وما كتبه أحمد رائف (البوابة السوداء) و(سراديب الشيطان) وما كتبه الدكتور أحمد شلبي في الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامي عن حوليات عصر جمال عبد الناصر، الذي سماه: عصر المظالم والهزائم. وكتب لا أذكر أسماء مؤلفيها، مثل (أموال مصر وكيف ضاعت؟) وكتاب (الموتى يتكلمون).

وهذا غير ما كتبه الإخوان مثل زينب الغزالي (أيام من حياتي) ومثل جابر رزق (مذابح الإخوان في سجون ناصر) ود. علي جريشة في عدد من كتبه (في الزنزانة) و(دعاة لا بغاة) و(عندما يحكم الطغاة) وحسن عشماوي (الإخوان والثورة) واللواء عبد المنعم عبد الرؤوف في كتابه: (أجبرت فاروق على التنازل عن العرش) وعباس السيسي في كتابه (في قافلة الإخوان المسلمين) ومحمود عبد الحليم في كتاب (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) وعمر التلمساني (قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر) ومحمد حامد أبو النصر (سر الخلاف بين عبد الناصر والإخوان) وصلاح شادي (صفحات من التاريخ) وجابر الحاج (زلزال التآمر الناصري) وكتاب (25 عاما في جماعة مرورا بالغابة) لحسن دوح وكتاب (عندما غابت الشمس) لعبد الحليم خفاجى وغيرها.

وهناك أفلام عبرت عن هذا الحقبة المظلمة الظالمة، وإن لم تذكر الأسماء صراحة، مثل فيلم (البريء) وفيلم (الكرنك).

وإذا كنا رأينا من جعل من عبد الناصر (ملاكا رحيما) وأضفى عليه من الفضائل ما أضفى، وجعل تاريخه أبيض من الثلج، ولم

يحاسبه على خطيئة ولا خطأ واحد، لأنه لم يصدر منه شيء من ذلك، فهناك فريق آخر، على النقيض من هؤلاء، جعل من عبد الناصر: (شيطانا رجيما): يجرده من كل فضيلة، وينسب إليه كل رذيلة، ولا يضيف إلى رصيده حسنة واحدة، فثورته كانت وبالا على مصر والعرب، وعهده كان شرا وبلاء على المصريين والعرب والمسلمين. ويتمنى هؤلاء العودة إلى عهد الملكية البائدة، قائلين: إن عهد الملك فاروق ـ على ما كان به من فساد وانحراف ـ لم ترتكب فيه من المظالم والشرور ما ارتكب في عهد عبد الناصر.

حتى الحسنات الظاهرة في عهد عبد الناصر، مثل: (تأميم قناة السويس) التي صفقت لها مصر، وصفق لها العرب جميعا: ضنوا أن يحسبوها في ميزانه، وقالوا: إنه استعجل في أمر كان سيتم طبيعيا بعد ثلاثة عشر عاما، بدون أن يجازف بالدخول في حرب مع دول كبرى كبريطانيا وفرنسا، وأن يتيح فرصة لإسرائيل لتدخل معهم في حرب ضد مصر.

ونسي هؤلاء أن الشركة الاستعمارية العتيدة، كانت تخطط لاستمرار السيطرة على القناة، وربما لو تركهم حتى تنتهي المدة، ولم يفاجئهم بقرار التأميم، لكانوا أعدوا العدة لإفشال أي محاولة للاستيلاء على القناة.

وحتى بناء (السد العالي) ذكروا من آثاره السلبية ما ذكروا، وأنه (هدف عسكري) سهل لإسرائيل، يمكن أن تلجأ لضربه في ساعة البأس، عندما تحيط بها المخاطر في وقت ما، وفي هذا غرق مصر وهلاك الحرث والنسل.

ويأخذون عليه: أنه ضيع جهودا وأموالا في مغامرات فاشلة، في الكونغو، وفي اليمن، وفي غيرها. وأنه لم يدخل حربا إلا خسرها،

كما في سنة 1956م، وسنة 1967م. وقد استطاع إعلامه الذي برع في الكذب وقلب الحقائق: أن يجعل هزيمة سنة 1956 نصرا يحتفل به كل عام. مع أن البغدادي يقول في مذكراته: إنه قال له: نحن ضيعنا البلد. وإنه ليس أمام مجلس الثورة وأعضائه إلا أن ينتحروا جميعا. وطلب من زكريا محيي الدين، إحضار زجاجة من السم (سبانور البوتاسيوم) تكفي لعدد الأعضاء، وأكد كلامه بقوله: إني جاد فيما أقول!

وينقمون عليه: أنه قهر الشعب المصري، وأهان كرامته، وأذل كبرياءه، وحطم نفسيته، وقيد حريته، وكبله بالأغلال التي جعلته غير قادر على الحركة يمنة أو يسرة.

ويضيفون إلى مآثمه: أنه ألغى الحياة الديمقراطية من مصر، وهي من أوائل الديمقراطيات في الشرق، وفرض على الناس دكتاتورية الحزب الواحد، الذي اختلفت تسميته من: (هيئة التحرير) إلى (الاتحاد القومي) إلى (الاتحاد الاشتراكي) ولم يمسح لمعارض أن يكون له صوت يسمع، وإن كان من رفقائه في الثورة، ابتداء من رشاد مهنا، إلى محمد نجيب، إلى خالد محيي الدين، إلى عبد المنعم عبد الرؤوف، إلى آخرين. حتى خطيب ثورته والمتحدث الديني باسمه، لم يسلم من أذاه وبطشه، وهو الشيخ أحمد حسن الباقوري، فقد طوح به، وطرده من منصبه شر طرده، لا لشيء إلا لأن رجلا ذم في بيته عبد الناصر، وهو الأديب المحقق محمود شاكر، وقد قيل: إن الباقوري لم يكن حاضرا وقت الكلام عن عبد الناصر!

وقد ابتلى مصر بفكرة: أن يكون للعمال والفلاحين نصف مقاعد مجلس النواب، وهي بدعة لم تتخلص مصر منها إلى اليوم.

ويزيدون على ذلك: أنه أضر بالاقتصاد المصري، نتيجة سيطرة القطاع العام، الذي أخفق في إدارة مؤسساته، حتى أصبحت تخسر خسارات فادحة، بعد أن كانت تكسب مكاسب هائلة، يوم كانت ملك القطاع الخاص.

ولا ينسى هؤلاء أن يضعوا في ميزان سيئاته: الإساءة إلى الدين والشريعة، حين ألغى المحاكم الشرعية، وأساء إلى قضاتها بتلفيق تهم لهم لم يثبتها قضاء عادل، وأصدر قانون تطوير الأزهر: الذي يتاح فيه للكليات المدنية في جامعة الأزهر: أن تأخذ خيرة طلابه، وأن لا يبقى للكليات الأصلية الدينية (أصول الدين والشريعة واللغة العربية) غير المتردية النطيحة وما يعاف السبع أن يأكله. هذا مع أني رفضت هذا التفسير، ودافعت عن التطوير في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

كما سخر عبد الناصر من علماء الدين في خطبه، واتهمهم بأن أحدهم من أجل وليمة عند إقطاعي، يقدم فيها خروف أو ديك رومي: يبيع دينه، ويصدر فتواه في إقرار المظالم الواقعة على الفلاحين، وهضم حقوقهم، وأكل عرقهم.

هذا ما ذكره خصوم عبد الناصر عن شخصه، وعن عهده. وليس كل ما قالوه حقا، كما أنه ليس كله باطلا.

ثم إني أفرق تفريقا واضحا بين أمرين: أولهما: ما كان من (اجتهادات) قد تصيب، وقد تخطئ، وهو

مأجور على صوابه، ومعذور في خطئه، بل ربما كان مأجورا أجرا واحدا، إذا صحت نيته، وتحرى في اجتهاده، واستشار أهل

الذكر والخبرة، واستفرغ وسعه في الوصول إلى الحقيقة والرأي الأرشد.

وذلك مثل سياسته في إفريقيا وفي اليمن وفي غيرها، فأقصى ما يقال فيها: إنه سياسي فاشل. وفرق بين الفاشل والظالم! ولكن الفشل إذا تكرر واستمر يصبح كارثة على الوطن، وعلى الأمة. ففشل الفرد العادي وإخفاقه على نفسه، أما فشل الزعيم المستمر، ففيه خسارة الأمة وتأخرها، وضياع فرصها في النهوض والتقدم.

وثانيهما: ما كان من مظالم ومآثم متعمدة، كما حدث لمعارضي عبد الناصر عامة، وللإخوان المسلمين خاصة، فلا يستطيع مدافع أن يدافع عن عبد الناصر، في إيقاع هذه الكم الهائل من المظالم والمآثم: من شنق وتقتيل، وتشريد وتنكيل، وإيذاء وتعذيب، ومصادرة وتضييق، لجماعة كانت هي أول من ساند ثورة عبد الناصر، بل كانت هي أول من أوحى إليه بضرورة العمل الوطني داخل الجيش، كما اعترف عبد الناصر بنفسه في المذكرات التي كتبها الأستاذ حلمي سلام رئيس تحرير المصور بعنوان: (الثورة من المهد إلى المجد) وذلك أوائل ما قامت الثورة، وقال فيها: إن أول من لفت نظره إلى هذا العمل: هو الصاغ ذو الوجه الأحمر م. ل، يقصد: محمود لبيب أحد العسكريين الأحرار الذين عملوا مع عزيز باشا المصري، وكان وكيلا للإخوان في عهد المرشد الأول حسن البنا.

بعض الناس يهونون من الأهوال التي عاناها الإخوان، ولو ذاقوا معشار ما ذاقوا، لكان لهم رأي آخر، وقول آخر. وقد قيل: النار لا تحرق غير القابض عليها. وقال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

والقرآن يقرر مع كتب السماء: (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) المائدة: .

ويقول رسول الإسلام: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم".

ومن العجب أن يتحدث هؤلاء عن أهمية حقوق الإنسان، وحقوق الأفراد، وحق الحرية المقدس، وحق الفرد في أن يأمن على نفسه وأهله وماله وخصوصياته.. فإذا وصل إلى الإخوان: استثناهم من هذا كله، كأنما ليست لهم حقوق، وإذا وصل إلى عبد الناصر: استثناه من هذا كله، كأنما ليس عليه واجبات، وكأن من حقه أن يصادر ويعذب ويظلم ويبغي في الأرض بغير الحق. بلا حسيب ولا رقيب.

ولقد بينت في حديثي عن السجن الحربي في الجزء الماضي: مسؤولية عبد الناصر عن الجرائم الوحشية والاعتداءات الهمجية، التي وقعت في السجن الحربي، وأنه شهد بنفسه بعض وقائع التعذيب، وأنه لا يعقل أن يتم هذا الذي تناقله الناس في الآفاق دون علمه، وقد ذكرنا أن هيكل مؤرخ عبد الناصر اعترف بأنه كان يعلم، وعرضت عليه وقائع، فلا معنى لتبرئته بدعوى أنه يجهل ما يجري!

وحتى لو لم يعلم، فهو المسؤول الأول عن هذه الوحوش الآدمية، التي عينها في مناصبها لتنهش لحوم الناس، وتفترسهم، وهم مطمئنون إلى أنهم محميون، وأن ظهورهم مسنودة إلى جدار السلطان.

إن رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى: أخبرنا أن امرأة أدخلها الله النار، من أجل هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

هذا في حبس هرة، فكيف بمن حبس الألوف من الناس، وسقاهم كؤوس العذاب، وجرب فيهم ما استورده من أدوات التعذيب من عند الشيوعيين أو غيرهم، وسلط عليهم كلاب البشر، وكلاب الكلاب، وقد كانت الكلاب الحقيقية أرحم من الكلاب البشرية في كثير من الأحيان.

عبد الحكيم عامر أصبح هو الذي يحكم مصر حقيقة، وصار عبد الناصر (طرطورا) يملك ولا يحكم

إن شر ما فعله عبد الناصر في مصر: أنه أذل الإنسان المصري وقهره، وأحياه في خوف دائم: أن يدهمه زوّار منتصف الليل، أو زوار الفجر، من كلاب الصيد، فتتخطّفه، وتذهب به إلى مكان سحيق وراء الشمس، لا يستطيع أحد الوصول إليه، وقد أصبح المصريون يتجسس بعضهم على بعض، ويشك بعضهم في بعض، حتى أصبح الأخ يتجسس على أخيه، بل الابن على أبيه، وفقدت الأسرة الثقة بعضهم ببعض.

وقد اعترف الرئيس أنور السادات في كتابه (البحث عن الذات) بما زرعته الثورة من خوف ملأ صدور الناس، وشل إرادتهم، حين قال: انتهى مجلس الثورة في 22 يونيو سنة 1956م، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء. ولكن قبل أن ينتهي المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد.. هذا في رأيي أبشع ما

يمكن أن يصيب الإنسان! فالخوف يقتل الشخصية، ويشل الإرادة، ويمسخ تصرفات البشر!

وقال في حديث له في (الأهرام): لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصري: كان هو زرع الخوف. فبدلا من أن نبني الإنسان، أصبح همنا أن نخيفه، والخوف أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب. فقد كانت أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم: إن شاء

منح، وإن شاء منع. وكان المنع مصحوبا في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله، ثم فصل جميع

أهله من وظائفهم، مع اتخاذ إجراءات ضدهم!

وأحسب أن السادات شاهد من أهلها، فهو من صناع ثورة يوليو، ونائب عبد الناصر.

إن خسارة الإنسان المصري هي الخسارة الكبرى، وليس الإنسان المصري هم هؤلاء الذين يتجمعون في السرادقات في الاحتفالات المعدة، ويلقّنون هتافات يرددونها كالببغاوات: ناصر ناصر.

وأذكر أن عبد الناصر ذهب إلى إحدى المدن في أول الثورة، فهتف الناس باسم نجيب، فثار عليهم، وقال في حرقة بحرارة: إنما قمنا لنحرر الناس من عبادة الزعماء، والهتاف للأشخاص، أي يكون الهتاف للوطن. فلما أصبح بعد ذلك الهتاف باسمه أصبح مشروعا ومحمودا.

لقد أذل عبد الناصر الشعب المصري، كما أذل الحجاج بن يوسف: الشعب العراقي من قبل. وكان في ذلك خسارة معنوية لا تقدر بثمن، ولا تقاس بالمادة.

لقد أراد عبد الناصر: أن يدير مصر، كما يدير صاحب الدكان دكانه، أو صاحب المزرعة مزرعته. وقد قال مرة: أريد أن أضغط على زر، فتتحرك مصر كلها من أسوان إلى الإسكندرية**!** وأضغط على زر آخر فتسكن مصر كلها.

ولقد قال لي مرة أحد شيوخنا الفضلاء (الدكتور محمد يوسف موسى): إن هذا البلد سجن كبير، له باب واحد، وقفل واحد، ومفتاح واحد، في يد سجان واحد، هو عبد الناصر**!**

وإن كان هذا (السجان) قد غدا في فترة من الفترات (سجينا) لدى بعض مرؤوسيه، كما هو معروف في سيرة عبد الناصر: أن عبد الحكيم عامر صديقه قد أصبح هو الذي يحكم مصر حقيقة، سواء ما يتعلق بالجيش أم ما يتعلق بالشعب، وصار عبد الناصر (طرطورا) أو (ديكورا) صار كما قيل: يملك ولا يحكم**!**

جمال عبد الناصر ورئيس سوريا تشكيل اتحاد سوري مصري

وفي قضية (الوحدة العربية) جاءت الوحدة الاندماجية مع سوريا إلى عبد الناصر على طبق من ذهب، ورضي الشعب السوري أن يصهر مع الشعب المصري في بوتقة واحدة، وتنازل الرئيس السوري (شكري القوتلي) عن كرسي رئاسته، واكتفى بأن يكون (المواطن العربي الأول).

ولكن عبد الناصر، بسوء تصرفه، وغلبة الاستبداد عليه، وتركه الأمور في الإقليم الشمالي لـ (عامر) يتصرف فيها كيف يشاء، بدل أن يعين نائبا حقيقيا له من زعماء سورية أنفسهم.

لقد سلط عامر أجهزة المخابرات ـ أو المكتب الثاني كما يسميها السوريون ـ على الشعب السوري، وعبث عبد الحميد السراج وبطانته بحريات الشعب وحرماته ومقدراته، فلم يكن من الشعب السوري الذي قدم الوحدة ورضيها إلا أن يرفضها ويتخلص منها، فاختار نار الانفصال، ولا جنة الوحدة. وكان الضابط عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب عامر في سورية: أحد الذين قادوا حركة الانفصال!

هذا في قضية الوحدة العربية، فماذا فعل في عبد الناصر في قضية فلسطين؟

لقد انتهى مصير القضية إلى نكبة حزيران أو يونيو 1967م واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة في مصر والقنيطرة في سوريا. أي احتلت سيناء والجولان مع الضفة الغربية وغزة، بل اعترف عبد الناصر بلسانه في خطابه في 23 يوليو 1967م: أن الطريق كان مفتوحا أمام إسرائيل إلى القاهرة ودمشق.

لقد ظهر أن هناك أخطاء فادحة ارتكبت قبل هذه الحرب، وفي أثناء هذه الحرب، كتب عنها الكاتبون والمحللون السياسيون، والخبراء الاستراتيجيون. وقد سميت (حرب الأيام الستة) والواقع أن النتيجة حسمت بعد الساعات الست الأولى، بعد القضاء على طيران مصر، ومطارات مصر بضربة قاضية وسريعة، أبقت القوات البرية المصرية في سيناء مكشوفة بلا غطاء.

وكانت الروح المعنوية في غاية الوهن إلى حد الانهيار. إذ لم يسلح الجندي المصري بسلاح الإيمان الذي به يتخطى العقبات، ويصنع البطولات، ويقدم الغالي من التضحيات. كانوا يوزعون على الجنود صور المطربات والممثلات، بدل أن يوزعوا عليهم المصاحف. لم يسلح المقاتل المصري بعقيدة تشد أزره، بأنه يقف

في وجه عدو دنس المقدسات، واغتصب أرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، وأن هذا العدو خطر على ديننا ودنيانا وأوطاننا ومقدساتنا، وأن وقوفنا في وجهه جهاد في سبيل الله، وأن من قُتل منا فهو شهيد حي يزرق عند الله.

لم يقل له مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام الرجعيين، الذين يوظفون الدين في مثل هذه المعارك، والمطلوب منا: أن نوظف الدبابة والطائرة والبارجة، وندع الدين للعجائز وخطباء المساجد، أو رهبان الكنائس.

على حين كان العدو يسلح جنوده بعقيدة إيمانية، ورؤية توراتية، وأحلام تلمودية. ولهذا قلت: إنهم انتصروا علينا، لأنهم دخلوا المعركة ومعهم التوراة، ودخلناها وليس معنا القرآن، دخلوها يهودا يعتزون باليهودية، ولم ندخلها نحن مسلمين نعتز بالإسلام. دخلوا يهتفون باسم موسى، ولم نهتف باسم محمد. قالوا: الهيكل، ولم نقل: الأقصى. عظموا السبت، ولم نعظم الجمعة. كان الدين عندهم شرفا يباهون به، وكان الدين عندنا تهمة نبرأ منها!

لقد جردوا القضية من كل معنى ديني لها، في حين قال موسى ديان وزير الدفاع: إن جيش إسرائيل مهمته حماية المقدسات لا مجرد حماية المؤسسات.

حتى العلمانيون من الإسرائيليين أمثال بن جوريون، وظفوا الدين لخدمة قضيتهم.

ولهذا كان جنودنا فارغين من كل معنى روحي يدعوهم إلى الثبات والتضحية، فلما وقعت الواقعة، كان كل واحد منهم يقول: النجاة، النجاة. تركوا أسلحتهم ودباباتهم ومجنزراتهم دون أن يكلف أحدهم

نفسه أن يشعل فيها عود ثقاب، حتى لا يستفيد منها عدوه، ويأخذها غنيمة باردة، سالمة من كل سوء.

إن من المعروف أن الأسلحة لا تقاتل وحدها، ولكن تقاتل بأيدي رجالها الأبطال، واليد التي تستعمل السلاح إنما يحركها هدف سام، مرتبط برسالة عليا، يؤمن بها الجندي، ويضحي بالنفس والنفيس في سبيلها.

وقد انتهت المعركة بما سموه (النكسة)، ولكن أخطر من النكسة، هو تغيير السياسة العربية رأسا على عقب، واتخاذ فلسفة جديدة مناقضة للفلسفة القديمة تماما. فقد كانت فلسفة الأمة قائمة على أن إسرائيل اغتصبت أرض العرب بالعنف والإرهاب والدم والحديد والنار، وشردت أهلها ـ بعد أن أخرجتهم منها ـ في الشمال والجنوب والشرق والغرب، وأن وجود إسرائيل في أرض فلسطين، وأرض العرب المغتصبة: وجود باطل، وأن إزالة هذا الاغتصاب الظالم فريضة على الأمة، طال الزمن أم قصر، فإن مضي الزمن لا يجعل الباطل حقا، ولا يقلب الحرام حلالا.

وهذا ما كان عليه العرب قبل هذه النكبة أو النكسة، ولكن عبد الناصر تبنى فلسفة جديدة، تقوم على إزالة آثار العدوان! أي عدوان 1967م وكأن هذا العدوان الجديد أعطى الشرعية للعدوان القديم: عدوان 1948م. عبد الناصر هو المسؤول الأول عن تغيير السياسة العربية كلها في هذا المجال. فلم يكن أحد غيره يقدر على تغيير هدف الأمة التي أسلمت إليه القياد، ومنحته الثقة.

وهذا التنازل الكبير، بل الخطير، هو: أساس كل ما عانته الأمة بعد ذلك من تنازلات جر بعضها إلى بعض، من كامب ديفيد، فمدريد، فأوسلو، حتى حالة الاستسلام والتخاذل التي نشهدها اليوم. فهو الذي غير الاستراتيجية الأصلية ـ استراتيجية الجهاد والكفاح ـ إلى

استراتيجية التنازل والاستسلام. والأمة إذا بدأت طريق الانحدار، فلن يقفها حاجز ولا شيء، حتى يسعفها القدر بمن يردها إلى أصلها، ويشعل ما انطفأ من جذوتها.

هل كان عبد الناصر عميلا؟

ومما يسأل عنه هنا: هل كان عبد الناصر عميلا؟

ولقد اتهم بعض خصوم عبد الناصر بأنه كان عميلا لأمريكا، وكتب الصحفي المعروف محمد جلال كشك كتابا سماه (ثورة 23يوليو الأمريكية)! قال فيه كلاما كثيرا، وذكر فيه وقائع شتى.

وآخرون قالوا: إنه انتهى عميلا لروسيا، وللاتحاد السوفيتي، وكتبه بعضهم كتابا قال فيه: الروس قادمون!

بل سمعت من قال: إنه عميل لإسرائيل، وإنه التقى مع بعض اليهود عندما كان محاصرا في الفالوجا في حرب فلسطين، واتفق معهم اتفاقيات سرية، إذا وصل إلى الحكم!!

وأنا بصفتي عالما مسلما يحتكم إلى الشرع الذي يرى أن الأصل في الناس البراءة، وأن الإنسان لا يدان إلا ببينة، وأن الشك يفسر لصالح المتهم: أرفض هذه الاتهامات التي لا دليل عليها، وهذه الدعاوى العريضة التي تنقصها البينات، وقد جاء في الحديث: "لو أخذ الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر". وقال الشاعر:

والدعاوى ـ ما لم يقيموا عليها   بيّنات ـ أبناؤها أدعياء!

والاتصال بالأمريكان قبل الثورة أو بعدها: لا يثبت العمالة لهم.

فالعميل: من لا هدف له ولا رسالة يعمل من أجلها. ولكن هدفه ورسالته تتلخص في خدمة من يعمل لحسابه، وتحقيق أهدافه.

ولقد أيد الإخوان عبد الناصر عند قيامه بالثورة، وبعد قيامه بالثورة، وكانوا أول أعوانه، بل كانوا سنده الشعبي البارز، حتى دب الخلاف بين الطرفين، فلماذا لم يتهم في ذلك الوقت بأنه عميل أمريكي؟

هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

ومما يسأل عنا: هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

إن من المعروف أن عبد الناصر في فترة من تاريخه اصطدم بالماركسيين ـ الشيوعيين ـ وأدخلهم السجون، وإن لم يصبهم من التعذيب والتنكيل ما أصاب الإخوان.

ولكنه بعد ذلك، اصطلح مع الشيوعيين، وأطلق سراحهم، ولم يكتف بالإفراج عنهم، بل مكن لهم في أجهزة الإعلام والثقافة، فأصبحوا في وقت من الأوقات هم الذين يوجهون الفكر والثقافة في مصر.

فهل كان هذا لتغير في سياسة عبد الناصر أو لتغير في فكره؟

المفهوم: أن هذا كانت نتيجة لتغير في سياسة عبد الناصر، نظرا لارتباطه بالمعسكر الشرقي، وتحالفه مع الاتحاد السوفيتي في أكثر من مجال: في مجال التسليح، وفي بناء السد العالي، وفي مجال الخبراء العسكريين والفنيين، وغير ذلك. وقد ظل الروس يعملون

في مصر، ويؤثرون في سياستها، حتى جاء السادات، وقرر قراره الحاسم بإخراجها منها!!

وقد لام خروشوف عند افتتاحه مبنى السد العالي: عبد الناصر، أنه يدعو إلى الاشتراكية، ولكنه لا يمكن الاشتراكيين من إقامتها، ولا اشتراكية من غير اشتراكيين.

وكان لهذه الإشارة مغزاها وأثرها، فسرعان ما تغير الموقف من الاشتراكيين، وفسح المجال لهم، ليثبوا على مراكز الدولة، ولا سيما بعد ما تولى علي صبري رئاسة الوزارة، وأعلنوا التمهيد لمرحلة (التحول العظيم) يعنون: التحول إلى (الاشتراكية العلمية).

ومن قرأ (الميثاق) الذي يمثل فكر عبد الناصر: وجد فيه رشحات من الفكر الماركسي في مواضع شتى، ولكن لا نستطيع أن نصف الميثاق بأنه ماركسيّ تماما.

نجد أثر الماركسية في تقليص الجانب الإيماني والفكرة الغيبية والقيم الروحية، فلا تكاد تحسها وتشعر بها.

كما لا نجد أثرا لشريعة الإسلام الذي يدين به عبد الناصر، ويدين به شعب مصر. بل قال وهو يتحدث عن الأسرة: لا بد أن نسقط بقايا الأغلال التي تكبل الأسرة. والسياق يبين أنه يشير إلى التشريعات الإسلامية في الزواج والطلاق وغيرها.

هل كان عبد الناصر متدينا؟

ونسأل، ويسال معنا كثيرون: هل كان عبد الناصر متدينا؟

سأل الأديب يوسف القعيد: الأستاذ محمد حسنين هيكل: هل كان عبد الناصر متدينا؟ فأجاب هيكل: كان عبد الناصر متدينا.

ولكنه لم يدلل على تدينه بشيء، واكتفى بتقرير هذا الأمر، وكفى.

ولعله يقصد: أنه لم يكن ملحدا جاحدا للغيبيات من الألوهية والوحي والإيمان بالآخرة. ولا يقصد أنه كان متمسكا بشعائر الدين وفرائضه الحتمية، وأنه يخشى الله في أموره، ويضع الآخرة نصب عينيه، ويزن كل شيء بميزان الحلال والحرام عند الله، كما هو شأن المتدينين.

والحق: أن عبد الناصر لم يعرف بشرب الخمر، كما لم تعرف عنه علاقات نسائية محرمة، ولكنه لم يشتهر عنه إقامة الصلوات، التي فرضها الله على المسلمين خمس مرات في اليوم والليلة. لم يقل أحد ممن كتبوا عنه: إنه دخل عليه فوجده يقيم الصلاة، أو إنه دعا زواره يوما ليقيم معهم الصلاة، أو إنه في مجلس من المجالس التي كان يعقدها توقف مرة ليصلي وحده، أو مع زملائه.

ولم يحك مؤرخ عبد الناصر الملازم له ـ أعني الأستاذ هيكل ـ شيئا من ذلك، على كثرة ما حكى من تفصيلات حياته، في الحضر والسفر، والخلوة والجلوة.

حتى صلاة الجمعة لم يعرف أين كان يصليها عبد الناصر؟ ولقد حكم عبد الناصر ثمانية عشر عاما، كل سنة فيها 52 جمعة، فأين كان يصلي هذه الجمع؟

لقد كان للملك فاروق ـ ولأبيه الملك فؤاد قبله ـ إمام خاص، تعينه وزارة الأوقاف، ليصلي به في مسجده في قصره، في الجمع خاصة، وفي الصلوات الأخرى في بعض الأوقات. فمن إمام عبد الناصر؟ وهل له مسجد في منزله في منشية البكري؟ أو بجوار منزله؟!!

هناك جمع معروفة ومعلنة في مناسبات معينة، أو لزيارة بعض الضيوف، رآه الناس فيها مصليا للجمعة، ولكن ما عدا ذلك لم يعرف أين صلى عبد الناصر نحو 900 جمعة أمر الله الناس إذا سمعوا النداء: أن يستجيبوا لداعي الله، ويسعوا إلى ذكر الله ويذرو البيع.

كان الرئيس أنور السادات حريصا على أداء الشعائر، فلهذا قالوا عنه: الرئيس المؤمن.

وظهر هذا في سياسة كل منهما، فالسادات حين خاض معركة العاشر من رمضان 1393هـ - 6 أكتوبر 1973م، تجلى فيها أثر التدين في الضباط والجنود، وفي الشعارات، فقد كان شعار المعركة: الله أكبر. في حين كانت كلمة السر في حرب يونيو 1967 (برّ بحر جوّ). وللأسف لم ينتصروا في بر ولا بحر ولا جو.

ظهور كتاب فقه الزكاة:

في شتاء هذا العام، وفي شهر ديسمبر 1970م: فرغت المطبعة من كتابي (فقه الزكاة) وظهر إلى عالم النشر والتوزيع في مجلدين، والحق أني فرحت به كما يفرح الوالد بولده، وفلذة كبده، ولا سيما أنه ولادته لم تكن سهلة، فقد أخذت طباعته حوالي سنة ونصف، والحمد لله، قد تم على خير..

وبدأت أبعث بنسخ منه إلى كبار الشخصيات العلمية في قطر وبلاد الخليج من حولي، وبخاصة المملكة العربية السعودية، وإلى الهند وباكستان وغيرها.

ولقد استقبل الكتاب بحفاوة وتقدير كبيرين، وجاءتني رسائل من عدد من الشخصيات المرموقة التي أهديت الكتاب إليها، منهم الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن زيد المحمود، والشيخ علي ال، والشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والأستاذ محمد المبارك، والشيخ محمد الغزالي، وغيرهم ممن لا أذكره الآن.

وأثنى عليه الشيخ علي الطنطاوي في برنامجه في إذاعة السعودية، وفي برنامجه التليفزيوني (على مائدة الإفطار) في رمضان أكثر من مرة.

وقال عنه الأستاذ أبو الأعلى المودودي: إنه كتاب القرن (أي الرابع عشر الهجري) في الفقه الإسلامي. نقل ذلك عنه الأستاذ خليل أحمد الحامدي مدير القسم العربي بالجماعة الإسلامية بباكستان.

وكتب الأستاذ المبارك في مقدمة كتابه عن (الاقتصاد) في (نظام الإسلام) منوها به، ومنبها أهل العلم على قيمته، فقال:

"ومن الكتب الحديثة ما هو خاص بموضوع معين، ومن هذا النوع كتاب (فقه الزكاة) للأستاذ يوسف القرضاوي، وهو موسوعة فقهية في الزكاة استوعبت مسائلها القديمة والحديثة، وأحكامها النصية والاجتهادية على جميع المذاهب المعروفة المدونة، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة، مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وعرض لما حدث من قضايا ومسائل، مع نظرات تحليلية عميقة.. وهو بالجملة عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويعتبر حدثا هاما في التأليف الفقهي.. جزى الله مؤلفه خيرا".

وقال عنه الشيخ محمد الغزالي: لم يؤلف في الإسلام مثله في موضوعه. قال ذلك في كتابه: مائة سؤال عن الإسلام.

تأليف كتب للعلوم الشرعية وغيرها في قطر:

تحدثت من قبل عن تجربة تأليف كتب حديثة للعلوم الشرعية في قطر، كانت تمثل الريادة والطليعة في بلاد الخليج كلها. وكانت هذه الكتب في علوم التوحيد والفقه والبحوث الإسلامية.

وقد استقبلت هذه الكتب استقبالا حسنا في قطر وما حولها، واعتبرت تجديدا مطلوبا في مجالاتها بدل الكتب القديمة التي كانت ألغازا وعقدا بالنسبة للطلاب.

وهذا النجاح شجع المسؤولين في وزارة المعارف التي أصبح اسمها (وزارة التربية) لتبدأ شوطا أطول وأوسع في تأليف كتب حديثة في مناهج العلوم كلها: الدينية والاجتماعية والعلمية.

وشكلت لجان للتأليف في مختلف المقررات، يشرف عليها مفتشو كل مادة، ويشرف على جميع اللجان مدير المعارف الأستاذ كمال ناجي.

وقد شاركت في تأليف بضعة عشر كتابا من كتب العلوم الشرعية من الحديث والتفسير والآداب وغيرها، بإشراف فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار.

كما اشتركت أنا والأخ الأستاذ سليمان الستاوي في تأليف كتابين مهمين: أحدهما في مادة (المجتمع الإسلامي) لطلبة السنة الثانية الثانوية. والثاني (فلسفة الأخلاق) لطلبة السنة الثالثة الثانوية من المعهد الديني.

كما كلفت ـ أنا والأخوان الشيخ عليوة مصطفى والشيخ علي جماز ـ بتأليف كتاب من جزءين في علم التوحيد، لطلاب السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية للمعهد الديني. وقد قسمنا

موضوعات الكتاب علينا. فاخترت أن أكتب عن: الحاجة إلى العقيدة، وعن أدلة وجود الله تعالى، وعن الإيمان بالقدر، وعن اليهودية والنصرانية.

وقد لقي هذا الكتاب قبولا عاما لدى المهمتين بتدريس العقيدة، وطلب كثير من الإخوة بالسعودية والبحرين والإمارات: أن نرسل إليهم نسخا من الكتاب، ليدرسوه لطلابهم، أو على الأقل: ليقتبسوا منه.

كما ألفت وزارة التربية القطرية جملة وافرة من الكتب في المواد الاجتماعية كالجغرافيا والتاريخ، صححت فيها بعض المفاهيم الخاطئة، مثل تدريس الفتح العثماني للبلاد العربية على أنه (استعمار). ولم يكن المسلمون ينظرون إليه هذه النظرة. فقد قام العثمانيون بدور هام بعد سقوط الخلافة العباسية، وحموا البلاد العربية من الغزو الاستعماري الأوربي عدة قرون. وكان العرب يشاركون الأتراك في الحكم، ومنهم من وصل إلى مرتبة (الصدر الأعظم)، وإن لم يخل عهدهم من ظلم لا ريب فيه.

وكان المشرفون على التأليف يرجعون إلي في المشكلات العلمية التي لها علاقة بالدين، كما فعل مؤلفو كتب (الأحياء) عند عرضهم للنظريات المختلفة في نشأة الحياة والإنسان. ومنهم الأستاذ توفيق القيسي، وموقفهم من نظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون، فكلموا الأستاذ كمال ناجي، الذي كتب إلي يطلب رأيي حول الموضوع، فكتبت ردا في رسالة علمية مطولة، خلاصتها: أنه لا مانع من عرض فكرة دارون على أنها (مجرد رأي) لا يبلغ أن يكون نظرية. وفيه ثغرات وتدليسات كثيرة، اكتشفها من جاؤوا بعده، وبينوا أوجه الخلل والدخل فيما أعلنه من رأي. وقد رد كثير من علماء الغرب البيولوجيين أنفسهم على دارون، كما خالفه

تلاميذه أنفسهم بعد ذلك، وعدلوا في الفكرة بما أطلق عليه الدراوينية الحديثة، ولا سيما بعد ظهور قوانين الوراثة وثبوتها علميا بما لا يدع مجالا لأي ارتياب.

كما كتبت كتب بالعربية ردت على هذه النظرية من الوجهة العلمية، ومن الوجهة الإسلامية. وقد لخص ذلك علامة العرب الأستاذ عباس العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن الكريم).

وأعتقد أن الوزارة وتفتيش العلوم فيها: اقتنعوا برأيي هذا، وأخذوا به.

قضاء إجازة الصيف في لبنان:

وبعد انتهاء العام الدراسي، سافرت أنا والأسرة كالعادة إلى لبنان لقضاء الإجازة هناك، وقد زادت أسرتي بعبد الرحمن واحدا، فغدت الأسرة ثمانية أشخاص: أنا وزوجتي وبناتي الأربع، وأبنائي محمد وعبد الرحمن.

وفي لبنان استأجرنا منزلا مناسبا بسوق الغرب، وقد ألفناها وألفتنا. وإن كنت أنزل إلى بيروت مرة أو مرتين أو ثلاثا في كل أسبوع، لأتصل بدور النشر التي أتعامل معها: المكتب الإسلامي، ودار الإرشاد، ومؤسسة الرسالة، ودار العربية.

كما أزور المكتبات التي تبيع الكتب، لأشتري منها ما يهمني، وأصطحبه معي إلى قطر، فالمكتبات كالإنسان، تحتاج إلى زاد مستمر، حتى تحيا وتنمو.

وكذلك كان الإخوة في لبنان ينتهزون فرصة وجودي، فيرتبون لي بعض المحاضرات، لألقيها في بيروت أو في صيدا أو في

طرابلس. فأجدها فرصة طيبة لألتقي بالجمهور اللبناني الكريم. وبهذا تجمع الإجازة بين المتعة والمنفعة. وهذا هو التوازن المطلوب.

ظهور تليفزيون قطر:

بعد نجاح قطر في إذاعتها التي سمع العالم صوتها من الدوحة، كان لا بد أن تستكمل مسيرتها الإعلامية بـ (تليفزيون قطر) الذي أنشئ له مبنى خاص قريب من الإذاعة. وكان ذلك سنة .

وقد افتتح مبنى التليفزيون الجديد في شهر يوليو (تموز) وكنت أقضي إجازة الصيف في لبنان، وكان المسؤولون عن التليفزيون، وعن الإعلام عامة، يرون أن لا يظهر التليفزيون إلا وفيه برنامج ديني ينوّر المشاهدين فيما يتعلق بالدين، ويجيب عن تساؤلاتهم. فأرسلوا إلي في لبنان: أن سجل ست حلقات في أحد استوديوهات بيروت ـ نسيت اسمه ـ فسجلت هذه الحلقات بالثوب والغطرة، إذ لم أحمل الجبة والعمامة معي في ذلك الصيف، بل كنت ألبس (البذلة الإفرنجية) في الإجازة، وليس مناسبا لي أن أظهر بها على الشاشة. فسجلت هذه الحلقات الستة بالدشداشة، وأرسلت إلى الدوحة.

ولأول مرة أكتشف المعاناة في التسجيل للتليفزيون، فقد كان التسجيل للإذاعة في غاية السهولة واليسر. أما في التليفزيون، فقد عانيت ما عانيت في ترتيب الأضواء، وضبط الصورة، والاطمئنان على الصوت، و.. و.. وكان الاستديو غير مكيف، فكنت أتصبب عرقا، برغم أن لبسي خفيف، فقلت: الحمد لله أن

الجبة والعمامة لم تكونا معي. وكانت هذه الأحاديث: عبارة عن (دروس إسلامية) كل درس يعالج موضوعا معينا.

وبعد العودة إلى الدوحة لقيت مدير الإعلام، وهو الصحفي الإعلامي الكبير الأستاذ محمود الشريف، شقيق صديقنا الأستاذ كامل الشريف (وزير الإعلام في الأردن فيما بعد) فتعرفت عليه لأول مرة، وكان معه مدير التليفزيون: الأستاذ جواد مرقة، وتحدثنا حول البرنامج الديني والصورة التي ينبغي أن يقدم بها.

فاقترحت عليهم أن يكون البرنامج إجابة عن أسئلة المشاهدين، التي تأتي إلى البرنامج عن طريق رسائلهم المكتوبة، وأنا الذي أتلقاها من التليفزيون وأجيب عنها، دون الحاجة إلى محاور. واستحسن مدير الإعلام ومدير التليفزيون هذه الفكرة، وقالوا: يمكننا أن نأتي بمن يساعدك في تلقي الرسائل وترتيبها، ويمكن أن ندفع له مبلغا مقابل ذلك. واقترحت عليهم سكرتيري في المعهد الديني: الأستاذ يوسف السطري (الحمايدة). وقام بهذا الدور فترة ثم انقطع، وأصبحت أعده حتى الآن بلا مساعد.

واقترح الأستاذ محمود الشريف أن يطلق عليه (هدْي الإسلام) ورحبت بالتسمية، وقلنا: على بركة الله.

كان البرنامج في أول الأمر: ثلث ساعة، ثم وجد أن هذا الوقت لا يكفي للرد على الرسائل التي كانت تأتي بكثافة، فزيد إلى نصف ساعة، ثم زيد بعد سنوات إلى 45 دقيقة.

وكان لهذا البرنامج عشاقه ومريدوه ومتابعوه من قطر، ومن بلاد الخليج، وخصوصا: البحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية، وبعد أن تحول تليفزيون قطر إلى (قناة فضائية) أصبح

هذا البرنامج يشاهد في بلاد المغرب العربي وغيرها، وغدت تأتيني أسئلة شتى من هذه البلاد.

وفقد هذا البرنامج بريقه نسبيا بظهور (قناة الجزيرة) وبرنامج (الشريعة والحياة) بها، الذي أمسى يشاهده الملايين من أنحاء العالم، من كل من يعرف العربية.

كما قدمت للتليفزيون القطري: برامج رمضانية تحت عنوان (في رحاب القرآن) وبعضها تحت عنوان من (مشكاة النبوة). وقد استمرت سنين طويلة، ولم أنقطع عنها إلا منذ بضع سنوات، بعد أن تضاعفت علي الواجبات، وضاقت الأوقات. والله المستعان.

السنة الدراسية 1971، 1972م ميلاد ابني أسامة:

وفي 10 فبراير سنة 1972م ولد ابني أسامة، كان ميلاد أولادي السابقين كلهم في أواخر السنة الميلادية (3 في سبتمبر، و2 في أكتوبر، واحدة في ديسمبر)، أما أسامة فجاء على خلاف المألوف، وولد في الشهر الثاني من السنة.

لم يكن بينه وبين شقيقه عبد الرحمن إلا سنة وخمسة أشهر، ولذا كان عبد الرحمن يعتبره منافسا خطف منه اهتمام الأسرة، وكان أحيانا يمسه بأذى معين، ولكن أسامة دافع عن نفسه يوما، فعضه عضة قوية، ألزمته حده، وعرف أن هذا الصغير لا يؤكل لحمه، ولا يستهان أمره.

والحقيقة أن معاملتي للأولاد، وكذلك معاملة أمهم: كانت مثالية، فلم نكن ندلل الأولاد إلى حد الإفساد، ولا نشتد عليهم إلى حد القسوة،

والتربية السليمة في نظري هي ما كانت بين التدليل المميّع للشخصية، والقسوة المحطمة لها.

ولذا نشأ أولادي بحمد الله نشأة سوية، ليس فيها غيرة مفرطة، أو شعور بالظلم، أو إضمار حسد لأخ أو أخت، وما فضلنا ولدا على بنت، ولا واحدا على آخر لأي سبب.

ولقد رأينا الناس يدللون الطفل الأول أكثر مما يلزم فيفسدونه، ومثله: الذكر الأول، أو الطفل الأخير، الذي يسمونه (آخر العنقود) وهو في نظرهم (سكر معقود)، نحمد الله تعالى أننا لم نفعل ذلك أبدا، فطرة لا تكلفا، لم نحاب أي طفل على حساب الآخر، بل أشعر والله أني أحب الجميع حبا متساويا، وأعتقد أن والدتهم مثلي.

ولكن أسامة الطفل كان يدلل نفسه، ويفرض دلاله على الجميع، ويشعر أنه أصغر واحد في العائلة، كما يحس أنه آخر العنقود، فيبدوا أن الأم قد اكتفت بما آتاها الله من أولاد بلغوا سبعة: أربع بنات، وثلاثة بنين.

وكان أسامة يريد أن يكبر بسرعة، ليكون له حظ الكبراء، ولكن إذا كان الحظ مع صغر السن قال: أنا أصغركم سنا.

وكانت أمه تقول له: ادخل نم يا أسامه، فيقول لها: تريدين أن تستريحي منا.

وهكذا كانت له مناكفاته المحببة.

الحركة التصحيحية في قطر:

وفي 22 فبراير (شباط) 1972م حدث ما سمي في قطر: الحركة التصحيحية، التي بها انتقل الحكم من الشيخ أحمد بن علي بن عبد الله آل ثاني إلى الشيخ خليفة بن حمد بن عبد الله آل ثاني، ابن عم الأمير، وولي عهده ونائبه.

كان الشيخ أحمد أمير قطر: رجلا طيبا في نفسه، مهذبا رقيق الحاشية، جوادا كريما، يلقى من يزوره بهشاشة وبسطة وجه، ولكنه لم يكن متفرغا للحكم، وحمل أعبائه، وحل مشاكله، وكان كثير الأسفار والرحلات في مناطق شتى، وكان قد ترك هم الحكم لنائبه وولي عهده.

ولقد شاء قدر الله أن تحدث في أشهر محدودة عدة أحداث، وعدة أخطاء حسبت على الشيخ أحمد عجلت بنقل الحكم إلى الشيخ خليفة بدون دماء، وبإقرار شيوخ الأسرة الحاكمة، وكان الشيخ أحمد خارج البلاد، فظل خارج قطر، ولا سيما أنه صهر الشيخ راشد بن سعيد حاكم دبي الشهير، وزوج ابنته، وله قصر هناك، وأيد جمهور الشعب القطري هذا التحول، وأطلق عليه (الحركة التصحيحية) نظرا لأن الشيخ خليفة كان هو المفروض أن يكون هو الحاكم بعد الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، الذي تنازل لابنه الشيخ أحمد عن الحكم، فحرم الشيخ خليفة من حقه في تولي الحكم بعده، ولهذا اعتبروا هذه الحركة تصحيحا لهذا الخطأ.

والحق أننا لم نر ولم نسمع أي إيذاء لأولاد الشيخ أحمد أو قرابته وأوليائه، إلا ما أصاب ابنه الشيخ عبد العزيز من الخروج من

الوزارة، وكان وزيرا للصحة، وهذا طبيعي، وبخاصة ما قيل عنه: إنه كان يحضر لانقلاب يطيح بالشيخ خليفة.

وقد اعتقل بعض أتباع الشيخ أحمد فترة قليلة من الزمن مثل الأستاذ عبد البديع صقر، ولكنه لم يؤذ في معتقله ولم توجه إليه أي إهانة، ثم ما لبث أن أفرج عنه.

وقد اعتقل بعض الشباب التابعين للأستاذ عبد البديع، ولم يكن لهم في العير ولا النفير، فكلمت قائد الشرطة في ذلك الوقت في شأنهم، فأفرج عنهم فورا.

أرض وقرض من دولة قطر:

في يوم من شهر رمضان في هذه السنة 1392هـ، 1972م، وبعد درس من دروس العصر، سألني الشيخ خليفة أمير قطر: هل تملك بيتا في قطر؟ قلت له: يا طويل العمر، أنا أسكن على حساب قطر، قال: يعني بالإيجار؟ قلت: نعم، قال: ألا تحب أن يكون لك بيتا تملكه؟ قلت: بلى، ومن ذا الذي لا يحب ذلك؟ قال: وما يمنعك من ذلك؟ قلت: وأنا أضحك: المصريون يقولون في مثل هذه الحالة: العين بصيرة، واليد قصيرة. الأرض وحدها بمبلغ، فضلا عن البناء والتأثيث.

قال: سآمر لك بأرض وقرض، يساعدك على البناء.

وبعد درس اليوم التالي، قال الشيخ خليفة: وجدنا لك مكانا مناسبا جدا، في شارع السد، وسآمر عبد الرحمن بو حميد مدير إدارة التسجيل العقاري، يتصل بك، ويريك المكان، ويرتب كل شيء.

وقد تم كل شيء فعلا بسرعة، كما قال الشيخ، وتسلمت الأرض، وتسلمت القرض، الذي يعطى لكبار الموظفين القطرين، ويقسط على عشرين سنة، ولكنه لم يكن كافيا، (كان نحو 35 ألف ريال) ولم تكن البنوك الإسلامية قد نشأت بعد في قطر، حتى أدخل معها في مرابحة تسدد على عدة سنوات، كما يحدث الآن، ولذا لجأت إلى البنك –بنك قطر الوطني- ليقرضني مبلغ ثلاثمائة ألف ريال قطري، وقال البنك: عليك فوائد مقدارها كذا وكذا، فقلت لهم: ألا يمكن الاستثناء من هذه الفوائد؟ قالوا: هذا غير ممكن؟ قلت: حتى لو جاءكم أمر من الأمير؟ قالوا: الأمير يملك أن يتصرف في هذا بأي طريقة ، وقد يتحملها هو.

قابلت الأمير، وقلت له: تعلم أني أحرم الفوائد، فأرجو أن تعفيني من هذا الأمر، قال: سآمر البنك أن لا يطالبك بأية فوائد.

وكانت هذه المنحة تأكيدا لجنسيتي القطرية التي اكتسبتها بجوازي القطري.

واتفقت مع صديقنا الأخ سالم حسن الأنصاري – ولديه شركة مقاولات - أن يقوم ببناء البيت، وقد كانت المباني في ذلك الوقت تتكلف كثيرا جدا، ومواد البناء باهظة الثمن، ولذا بنى البيت بطريقة لم تعجبني في النهاية، ولم يكن هذا البيت الذي أتوق إليه، لهذا آثرت أن أؤجره ولا أسكنه، ورجح ذلك: أن علي قرضين: قرضا طويل الأجل، وقرضا قصير الأجل، وإجارة البيت تساعد في قضاء هذا الدين، ولا سيما أن راتبي كان محدودا، وقد جمد عند حد معين لعدة سنين، وذلك قبل أن تنشأ جامعة قطر، وأنضم إليها.



ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا:

في أوائل سنة 1972م وصلتني دعوة من ليبيا، للمشاركة في (ندوة للتشريع الإسلامي) دعي إليها عدد من كبار العلماء من مصر وغيرها من أنحاء العالم الإسلامي، لمساعدة اللجنة العليا التي أنشئت بقرار من العقيد القذافي قائد الثورة الليبية، برئاسة المستشار علي علي منصور، وكانت مهمة هذه اللجنة: تنقية القوانين الوضعية في ليبيا من كل ما يخالف الشريعة الإسلامية.

والمفروض أن هذه مرحلة تتبعها مرحلة أخرى تقوم على استنباط تشريعات وقوانين إسلامية، مؤسسة على اجتهاد إسلامي معاصر، وهذه تحتاج إلى وقت وإلى إعداد، وإلى علماء يجمعون بين الأصالة والمعاصرة.

ومن المعروف: أن القوانين الوضعية لا تخالف الشريعة الإسلامية مخالفة صريحة، إلا في القانون الجنائي، الذي لا يعترف بخصوصية العقوبات الإسلامية التي تتمثل في الحدود، مثل حد السرقة، وحد الزنى، وحد القذف، وحد قطاع الطرق، وحد شرب الخمر، وإن كان هناك رأي قوي يرى أن عقوبة حد شرب الخمر عقوبة تعزيرية، منوطة إلى الإمام أو القاضي.

كما تخالف القوانين الوضعية: الشريعة الإسلامية في تحريم الفوائد الربوية، وتحريم المعاملات التي تشمل على غرر فاحش.

وأهم من ذلك: هو أن المنطلق الذي تنبعث منه القوانين الوضعية، غير المنطلق الذي تنبعث منه الأحكام الشرعية، فمنطلق القوانين: اعتبارات بشرية محضة، أما منطلق الأحكام الشرعية، فهو وحي الله المتمثل في القرآن والسنة، وهذا لا يحجر على المسلمين أن يجتهدوا لأنفسهم فيما لا نص فيه، عن طريق القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح أو غيرها. ويمكنهم أن يقتبسوا من غيرهم ما يرونه أصلح لهم، وأليق بجلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم.

وفرق بين أن يصدر التشريع بناء على قرار حاكم أو مجلس، وأن يصدر بناء على أمر الله تعالى به في كتابه وعلى سنة رسوله، وعلى ما اقتضته قواعد الشريعة ومقاصدها.

المهم أني تلقيت الدعوة، وعرضتها على المسؤولين في وزارة التربية والتعليم، فسمحوا لي بإجابة الدعوة، لا سيما أن ليبيا هي التي ستتكفل بتذكرة الطائرة، ونفقات الإقامة، ولن تتكلف قطر شيئا.

وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من قوقعة قطر، -في أثناء العام الدراسي- إلى العالم من حولي، وتعتبر الخطوة الأولى للانطلاق الكبير بعد ذلك.

كانت بطاقة الدعوة الليبية، تشتمل على عدة موضوعات، طلبت إلي الكتابة في أحدها، وهو الموضوع الأول: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.

واستخرت الله، وبدأت في الكتابة في الموضوع، وأرسلته إليهم، فلقي القبول من اللجنة المشرفة، وفي شهر مايو من هذه السنة 1972م توكلت على الله، وسافرت إلى ليبيا عن طريق بيروت.

وكانت الندوة مقامة تحت إشراف (كلية الدراسات العربية والإسلامية) في مدينة البيضاء، وهذه الكلية كانت تسمى قديما: الجامعة السنوسية، وكانت تضم عدة كليات فاختصرت في كلية واحدة، وحذف عنوانها، حتى لا يبقى للسنوسيين ذكر ولا آثر.

وهذا ما يؤخذ على الأنظمة الانقلابية: إنها تريد أن تلغي التاريخ قبلها، كما تريد أن يبدأ التاريخ بها، والإنصاف يقتضي أن تذكر محاسن من قبلك، ليذكر محاسنك من يأتي بعدك، ولكن هذا شأن الإنسان من قديم.

وقد ضمت هذه الكلية إلى الجامعة الليبية، وهي الجامعة الوحيدة في البلاد، فأصبحت إحدى كلياتها، وكان مدير الجامعة صديقنا الكبير الأستاذ عمر التومي الشيباني، وعميد الكلية فضيلة الشيخ إبراهيم.

ذهبت من بيروت إلى بني غازي، وبت في أحد الفنادق بها، وفي الصباح نزلت إلى المطعم لتناول الفطور، فجاءني الندل (الجرسون) وكان مصريا، فسألني: ماذا نقدم لك؟ قلت: أول شيء الفول المدمس، فقال: ألا تطلب شيئا بدل الفول؟ وقلت له: ولم؟ ألا يوجد عندكم فول؟ قال: يوجد عندنا، ولكنهم يعيروننا بأننا شعب الفول! قلت: يا عجبا! وهل أكل الفول معرة أو جرم حتى نعير به؟ وما الفرق بين من يفطر على الفول أو على الحمص أو على الحلبة أو على البيض ونحوه؟ يا بني، لا تعبأ بهذه الترهات، واعتز بنفسك، فالفول من الطيبات التي رزقها الله للناس، دعني من هذا كله، وائتني بطبق الفول، ولا مانع من أن تخلطه بالحمص أو بالبيض المسلوق، ربنا يديمه علينا.

وسافرت إلى مدينة البيضاء بالسيارة، حتى وصلت إليها، وقد حضر معظم المدعوين، ثم اكتمل عددهم يوم الافتتاح، وكان القذافي غائبا عن البلد، فناب عنه أحد قادة الثورة، نسيت اسمه.

وبدأت جلسات الندوة بعد ذلك، وقد شارك فيها عدد من العلماء المرموقين، من أبرزهم:

الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ الخفيف، والدكتور محمد بيصار، والشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور حسين حامد حسان وغيرهم ممن لا يحضرني اسمه الآن، كما شارك عدد من العلماء الذين يعملون في ليبيا مثل: دكتور عبد العزيز عامر، ودكتور عبد الجواد محمد، وبعض رجال الاقتصاد الليبيين.

وكانت هذه أول مرة ألقى فيها العلامة أبو زهرة، والعلامة الخفيف، وجها لوجه، أما الشيخ الزرقا فقد سعدت بلقائه قبل ذلك، حين كان يعمل أول خبير للموسوعة الفقهية في الكويت.

وكان نجم الندوة –دون منازع- هو الشيخ أبو زهرة، الذي كان يعلق على المتكلمين، ويتدفق كالسيل العرم، وهو يتكلم، أذن له أم لم يؤذن، فلا يملك أحد أن يمنعه، ومن يمنع السيل من التدفق، أو النجم من التألق؟

وقد ألقيت بحثي، وكان كل بحث يمنح ربع ساعة لإلقائه، لتكون هناك فسحة مناسبة للمناقشة، ولكن بحثي كان طويلا، فقلت لهم: إني قطعت إلى هنا أطول مسافة قطعها أحد المدعوين، وبحثي طويل، فينبغي أن تعطوني فرصة مناسبة لطول المسافة التي قطعتها! وضحك الجميع، وقابلوا اقتراحي بالقبول، وأخذت نصف ساعة في عرض الموضوع، وعلق الأستاذ الزرقا على البحث، فقال: كان القرضاوي موفقا في تحريره، كما كان موفقا في تمريره.

والحمد لله لقي البحث القبول من الحضور.

كانت هذه الرحلة فرصة للتعرف على العلامة أبي زهرة، الذين طالما قرأت له، واشتقت إلى لقائه ولكن لم يتح لي للأسف أن ألقاه وجها لوجه.فقد كنت قبل التخرج مشغولا بالدراسة والدعوة، وبعد التخرج شغلت بالاعتقال، ثم بهمّ لقمة العيش. ولم تكن لأبي زهرة وأمثاله فرصة ليظهر ويلقى تلاميذه ومحبيه فيها. لهذا قرت عيني بلقاء الشيخ الجليل. والحقيقة أن الشيخ – رحمه الله – فرح بلقائي، وأثنى على كتابي (فقه الزكاة) و قد استشرته في النزول إلى مصر في صيف هذا العام، فأنا منذ سنة 1964م لم أنزل مصر، فقال: انتظر حتى أستشف لك الوضع، وأخبرك بالموقف، ولا ضرورة لاستعجال النزول هذه السنة. وهو ما ركنت إليه.

أبو زهرة يفجر في الندوة قنبلة فقهية:

وفي هذه الندوة فجر الشيخ أبو زهرة قنبلة فقهية، هيجت عليه أعضاء المؤتمر، حينما فاجأهم برأيه الجديد.

وقصة ذلك: أن الشيخ رحمه الله وقف في المؤتمر، وقال: إني كتمت رأيا فقهيا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بحت به للدكتور عبد العزيز عامر، واستشهد به قائلا: أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز؟ قال: بلى. وآن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني: لماذا كتمت ما لديك من علم، ولم تبينه للناس؟

هذا الرأي يتعلق بقضية (الرجم) للمحصن، في حد الزنى، فرأى أن الرجم كان شريعة يهودية، أقرها الرسول في أول الأمر، ثم نسخت بحد الجلد في سورة النور.

قال الشيخ، ولي على ذلك أدلة ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى قال في سورة النساء: (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) الآية: والرجم عقوبة لا تتنصف، فثبت أن العذاب في الآية هو المذكور في سورة النور: (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) النور: 2.

والثاني: ما رواه البخاري في جامعه الصحيح عن عبد الله بن أوفى: أنه سئل عن الرجم؟ هل كان بعد سورة النور أو قبلها؟ فقال: لا أدري.

فمن المحتمل جدا أن تكون عقوبة الرجم قبل نزول آية النور التي نسختها.

الثالث: أن الحديث الذي اعتمدوا عليه، وقالوا: إنه كان قرآنا ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه: أمر لا يقره العقل، لماذا تنسخ التلاوة والحكم باق؟ وما قيل: إنه كان في صحيفته فجاءت الداجن وأكلتها: لا يقبله منطق.

وما إن انتهى الشيخ من كلامه حتى ثار عليه أغلب الحضور، وقام من قام منهم، ورد عليه بما هو مذكور في كتب الفقه حول هذه الأدلة. ولكن الشيخ ثبت على رأيه.

وقد لقيته بعد انفضاض الجلسة، وقلت له: يا مولانا، عندي رأي قريب من رأيك، ولكنه أدنى إلى القبول منه. قال: وما هو؟

قلت: جاء في الحديث الصحيح: "البكر بالبكر: جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب: جلد مائة، ورجم بالحجارة".

قال: وماذا تأخذ من هذا الحديث؟ قلت: تعلم فضيلتك أن الحنفية قالوا في الشطر الأول من الحديث: الحد هو الجلد، أما التغريب أو

النفي، فهو سياسة وتعزير، موكول إلى رأي الإمام، ولكنه ليس لازما في كل حال.

وعلى هذا فثبت ما جاءت به الروايات من الرجم في العهد النبوي، فقد رجم يهوديين، ورجم ماعزا، ورجم الغامدية، وبعث أحد أصحابه في قضية امرأة العسيف، وقال له: اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها. وكذلك ما روي أن عمر رجم من بعده، وأن عليا رجم كذلك.

ولكن الشيخ لم يوافق على رأيي هذا، وقال لي: يا يوسف، هل معقول أن محمد بن عبد الله الرحمة المهداة، يرمي الناس بالحجارة حتى الموت؟ هذه شريعة يهودية، وهي أليق بقساوة اليهود.

وكان رأي الشيخ الزرقا مع الجمهور، ولكنه يخالف الجمهور في تعريف (المحصن) فعندهم: أن المحصن من حصل له الزواج، وإن فارقته زوجه بطلاق أو وفاة، وبات في واقع الحال لا زوجة له، وعند الزرقا: المحصن: من له زوجة بالفعل. وهذا رأي الشيخ رشيد رضا ذكره في تفسير المنار.

توقفت طويلا عند قول الشيخ أبي زهرة عن رأيه: أنه كتمه في نفسه عشرين عاما، لماذا كتمه، ولم يعلنه في درس أو محاضرة أو كتاب أو مقالة؟ لقد فعل ذلك خشية هياج العامة عليه، وتوجيه سهام التشهير والتجريح إليه، كما حدث له في هذه الندوة.

وقلت في نفسي: كم من آراء واجتهادات جديدة وجريئة تبقى حبيسة في صدور أصحابها، حتى تموت معهم، ولم يسمع بها أحد، ولم ينقلها أحد عنهم!!.

ولذلك حين تحدثت عن معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، جعلت منها: أن نفسح صدورنا للمخطئ في اجتهاده، فبهذا يحيا الاجتهاد

ويزدهر، والمجتهد بشر غير معصوم، فمن حقه – بل الواجب عليه - أن يجتهد ويتحرى ويستفرغ وسعه، ولا يلزمه أن يكون الصواب معه دائما، وما دامت صدورنا تضيق بالرأي المخالف للجمهور، فلن ينمو الاجتهاد، ولن يؤتي ثمراته.

على أن ما يحسبه بعض الناس خطأ، قد يكن هو الصواب بعينه، وخصوصا إذا تغير المكان والزمان.

ويبدو أن هذه الحملة الهائجة المائجة التي واجهها الشيخ أبو زهرة، جعلته يصمت عن إبداء رأيه، فلم يسجله مكتوبا بعد ذلك. وربما لأن الشيخ الكبير لم يعمر بعد ذلك طويلا، فقد وافته المنية بعد أشهر، عليه رحمه الله ورضوانه.

وقد رأيت الشيخ نسب هذا الرأي في كتابه (العقوبة) إلى الخوارج، واستدل لهم بما ذكره في ندوة ليبيا، وأعتقد أن ذلك كان أسبق من الندوة.

لقاء القذافي:

بعد أن انتهت الندوة، قالوا لنا: أنتم مطلوبون للقاء القذافي قائد الثورة في مدينة طرابلس، فاستعدوا للذهاب إلى بني غازي، ومن هناك، ستأخذنا طائرة خاصة إلى العاصمة طرابلس، وقد وصلنا في حوالي العاشرة مساء، ثم نقلنا إلى مقر مجلس الثورة، لننتظر نحو نصف ساعة، حتى حضر العقيد، ومعه اثنان من القادة، أحدهما يجلس عن يمينه، وهو عبد السلام جلود نائبه، والثاني: لا نعرفه.

وكان يصحبه بعض المدنيين، منهم الأستاذ إبراهيم الغويل المحامي، ومنهم صحفي يساري، اسمه: صادق نيهوم، كان كأنه المتحدث باسمه، وهو علماني جريء طويل اللسان.

وقد أثار القذافي موضوعات شتى، كان من أهمها كلام حول أمرين خطيرين: (السنة) وإن لم يفصح تماما عن أفكاره حولها، ولكن أوحت عباراته وتعليقاته، بأن لديه شكوكا وشبهات حول ثبوت السنة، وحول حجيتها.

والثاني حول (الردة) ولماذا يقتل المرتد؟ وتكلم العلماء يدافعون عن حد الردة، وعقوبة المرتد، وأثار الصادق نيهوم سؤالين: هل الردة موقف عقلي أو هي جريمة ضد الجماعة؟ وأجاب هو عن سؤاله فقال: إن الردة موقف عقلي، إنسان اقتنع بدين، ثم تغيره فكره وتحول اقتناعه، فلم يعد يؤمن به، فلماذا يعاقب؟

قلت له: إن الردة ليست مجرد موقف عقلي، إنها تغيير للولاء من أمة إلى أخرى، هل يباح للإنسان أن يغير ولاءه لوطنه إلى أعداء وطنه بدعوى أنه حر في ولائه؟ إن أحدا لا يقبل منه ذلك، ويعتبر كل الناس ذلك منه خيانة وطنية، يعاقب عليها بالإعدام، والردة هي تغيير الولاء من أمة الإسلام إلى أعدائها، فهو بردته أصبح عدوا لأمته، مواليا لأعدائها.

وتطرق الحديث إلى العلماء ودور العلماء، وعزلة العلماء عن المشاركة في توجيه المجتمع، وتحدث الإخوة المشايخ: أن العلماء لا يتأخرون عن القيام بواجبهم، إذا فتح الباب لهم، وأتيح لهم أن يبينوا للناس شرع الله.

وقلت في ذلك: إن العلماء مستعدون أن يكونوا خدما لمن يخدم الشريعة.

وهنا قال الشيخ أبو زهرة: إننا لسنا خدما لأحد كأننا من كان.

قلت: يا مولانا، إننا خدم لمن يخدم الشريعة، فخدمتنا في الحقيقة إنما هي للشريعة.

قال: نحن سادة ولسنا خدما!

وقد طالت الجلسة إلى ما يقرب من الثانية مساء.. ثم انفضت، وانصرف العقيد وصحبه، ولكن قبل انصرافه فوجئت بالعضو الذي كان عن يمين القذافي، يقبل عليّ ويصافحني بحرارة، ويقول: أنا المقدم بشير هوادي عضو مجلس الثورة، وأنا من قراء كتبك ومن المعجبين بك، وقال: عندي كذا وكذا من كتبك، قلت له: اسمح لي أن أبعث إليك ببقية الكتب. قال: أكون شاكرا وممتنا، ويكون هذا فضلا منك.

وقد بقينا بعدها يومين في طرابلس لقيت أثناءها الأخ الفاضل الحاج أحمد حلمي عبد المجيد، أحد قادة الإخوان، ونائب عثمان أحمد عثمان، وممثله في ليبيا، التي لشركة عثمان فيها مشروعات كبرى.

ذكرت للحاج حلمي ما قاله بشير هوادي، فشجعني على إرسال الكتب إليه، ولكنه أضاف: هناك رجل آخر مهم في مجلس الثورة، هو من قرائك ومحبيك أيضا، هو المقدم مصطفى الخروبي فحبذا أن ترسل إليه هو الآخر مجموعة كتبك. وقد فعلت ذلك، بمجرد رجوعي إلى قطر. أما بشير هواري، فبعد عدة سنوات اختلف مع القذافي وأطيح به، وأما الخروبي (اللواء مصطفى الخروبي) فلا زال أحد القيادات المهمة في ليبيا، ولا تزال بيني وبينه مودة، حتى إنه زار قطر، منذ سنوات، ولم أكن موجودا، فأرسل إلي باقة ورد إلى منزلي. وحين زرت ليبيا في العام الماضي،

(2002م) أرسل إلي بهدية في الفندق الذي أنزل فيه.

والعجيب أني سألت الإخوة في ذلك الوقت (1972) عن كتبي، فوجدتها ممنوعة من دخول ليبيا!

العودة إلى قطر عن طريق بيروت:

وآن لي بعد هذه الأيام الحافلة، أن أعود إلى قطر، فامتطينا الطائرة من طرابلس إلى بيروت، وقد بت فيها عند الأخ الصديق زهير الشاويش، الذي رأى البحث الذي قدمته للندوة في ليبيا، فطلب مني أن يتولى نشره، وصدرت الطبعة الأولى منه عن المكتب الإسلامي في بيروت، وبعد أن نزلت إلى مصر سنة 1973م، نشرته مع عدد من الكتب في مصر، وقد نقحته وأضفت إليه، في طبعات لاحقة، كما أفعل في كثير من كتبي، وهو شأن كل مؤلف، يستدرك على نفسه، فيزيد ويحذف، ويهذب ويعدل، طلبا للكمال الممكن، ما وجد إليه سبيلا.

سفر الأولاد إلى مصر:

وعدت إلى قطر، لأواجه امتحانات آخر العام، وأستعد للإجازة الصيفية التي دنا موعدها، وبعد البحث والتشاور: وجدت أن الوقت غدا مناسبا لسفر الأولاد وحدهم هذا العام، بعد انقطاع ثماني سنوات عن السفر إلى مصر، وبعض أولادي لم يروا مصر قط، مثل أبنائي الذكور: محمد وعبد الرحمن وأسامه، وبناتي لم يرين مصر إلا صغيرات جدا، لذا لا يعرفن عنها شيئا، فإذا كانت ظروفي حتى الآن لا تسمح بالسفر، فليسافر الأولاد على بركة الله.

وقد سافرت والأسرة إلى بيروت، وبقينا فيها أياما في فندق شبلي بسوق الغرب، ثم ودعتهم في مطار بيروت ليصلوا إلى القاهرة بسلام.

وبقيت وحدي في لبنان، متنقلا بين جبالها في الشمال والجنوب، فقد ذهبت فترة إلى منطقة (الضِّنّية) بالقرب من طرابلس، ولكن للأسف رأيت المناطق الإسلامية غير معنيّ بها، مثل المناطق المسيحية والدرزية.

السفر مع الأخ سامي وأهله إلى سورية:

وفي هذا الوقت جاء صهري –شقيق زوجتي- الأخ سامي عبد الجواد من الدوحة في إجازة، ليقضي أياما قليلة في لبنان، ثم ينطلق لزيارة سورية لزيارة مصايفها، وزيارة الأخ الصديق أبي البراء سليمان الستاوي في منزله في حلب، وهو متزوج منها وأصهاره هناك.

وكانت فرصة: أن أجدد عهدي بسورية، بعد عشرين عاما من زيارتي الأولى لها (سنة 1952م) ولكن بقيت مشكلة، فالمفروض أن مثلي ممنوع من دخول سورية، كما أن كتبي ممنوعة من دخولها.

ومع هذا قررت أن أجازف بالدخول، عن طريق السيارات بالبر، وهم في البر لا يدققون في جوازات الداخلين في الصيف كثيرا، تشجيعا للسياحة.

ارتديت البذلة الافرنجية في سفري لسورية

وفعلا، ركبنا السيارة أنا وصهري وزوجته وابنه الصغير أيمن، ولا أذكر هل كان معنا أحد آخر أولا؟ وكنت ألبس البذلة الإفرنجية، فهي الأنسب لي في هذه الظروف. وعند الدخول إلى سورية قدمنا الجوازات مجموعة، وكانت عدة سيارات داخلة معنا، فنظروا في الجوازات نظرة سطحية، وبخاصة أن جوازي قطري، وليس بين سورية وقطر أي حساسية في العلاقات، وختموا الجوازات بسهولة وسرعة، وردوها إلينا.

وحمدت الله أن لم تحدث مشكلة في الدخول، فهل يحدث شيء بعد الدخول؟ الواقع أني لا أنوي القيام بأي نشاط من أي نوع، فإنما جئت سائحا أتمتع بهواء سورية فقط، ولم أجئ داعية ولا مدرسا، ومن كان كذلك لم يلفت نظر أحد وهذا ما كان.

يا سبحان الله! منذ عشرين سنة دخلت سورية التي كانت تحكم حكما عسكريا، واضطررت أن أتخفى في تعاملي مع الناس تحت اسم (عبد الله المصري) واليوم أدخلها تحت ستار (سائح عربي) وحتى اليوم (2003) وأنا أكتب هذه المذكرات لم يتح لي دخول سورية بوصفي عالما وداعية مسلما؟!

بعد دخول سورية، ذهبنا أول ما ذهبنا إلى منطقة جميلة بالقرب من دمشق تسمى (العين الخضراء) ، استأجرنا فيها حجرتين، وبقينا فيها، نمتع أعيننا وحواسنا كلها بماء العين الدافق البارد، والخضرة حولها، وبالوجوه الحسنة التي تزور المكان، كما قال الشاعر قديما، وكانت أياما جميلة، مرت كما يمر النسيم الناعم، ثم ودعناها لنسير إلى عاصمة الأمويين (دمشق) أو (جلق) كما سميت من قبل.

ورأينا نهر (بردى) وتذكرت قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرقُّ   ودمع لا يكفكف يا دمشق!

وقوله في مقام آخر:

آمنت بالله، واستثنيت جنة   دمشق روح وجنات وريحان!

صلاح الدين الأيوبي

وبعدها مررنا على مصايف دمشق، حتى انتهينا إلى (الزبداني) وبقينا فيه فترة، وأذكر أننا لم نبت هناك،، ولكن عدنا إلى دمشق، لنزور تحفتها المعمارية الرائعة، (الجامع الأموي) وما فيه من فخامة وروعة في أعمدته وسقوفه وجدرانه، وساحاته وحجراته، من جميل الفسيفساء وزخارف البناء. وكم كانت حسرتي وحزني، وأنا أتجول في هذا الجامع العظيم، الذي شهد عظمة الأمويين واتساع الدولة الإسلامية في عهدهم، التي وصلت الصين شرقا والأندلس غربا، حتى رأيناها في وقت واحد، تحارب في جهات أربع في أنحاء العالم، يقود جيوشها أربعة من قوادها الكبار: مسلمة بن عبد الملك في الصين، وقتيبة بن مسلم في سمرقند، ومحمد بن القاسم في الهند، وموسى بن نصير ومعه طارق بن زياد في الأندلس أو أسبانيا.

أين الخلفاء والأمراء العظام الذين كانوا يؤمون الناس في محراب هذا المسجد، أو يعتلوا منبره ليخطبوهم؟ وحكام هذا البلد اليوم لا علاقة لهم بالمسجد ولا بالصلاة؟

وتذكرت هنا قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته عن دمشق:

مررت بالمسجد المحزون أسأله: هل في المصلى أو المحراب مروان؟

كما زرنا قبر صلاح الدين الأيوبي، الذي زاره القائد الفرنسي (غورو) أثناء الحرب العالمية الأولى، وقال له بشماته بعد انتصارهم على الأتراك:

ها قد عدنا يا صلاح الدين!

بقينا يومين أو ثلاثة في دمشق، في أحد الفنادق هناك، واشترينا بعض الأشياء من (سوق الحمدية) منها بعض التحف، ومنها بعض المفارش وكسوة لطقم عندنا، واستضافنا آل دعبول، في منزلهم هناك، ولم يكن الأخ رضوان أبو مروان موجودا، حيث لا تسمح الظروف بدخوله. وهنا تذكرت الكثيرين من أبناء دمشق الذين لا يستطيعون دخولها: العالم الداعية الأديب الأستاذ عصام العطار، والعالم الداعية الدكتور محمد الهواري، والعالم المؤلف الداعية الدكتور محمد أديب الصالح، والعالم المحدث الشيخ محمد الصباغ، والعالم المحقق الناشر الشيخ زهير الشاويش، وكثيرين.

ثم عقدنا العزم على الذهاب إلى حلب، مرورا بحمص وحماة، مستأجرين سيارة تاكسي لتوصيلنا، وعند مرورنا بحمص ترحمنا على علامة سوريا، الفقيه الداعية، ابن حمص: الشيخ مصطفى السباعي عليه رحمة الله. وتذكرت الأيام الطيبة التي قضيتها مع

الإخوة في حمص سنة 1952م. وتذكرت الإخوة من علماء حمص، المحرومين من العودة إليها، مثل الشيخ محمد علي مشعل وغيره.

وعند مرورنا بحماة تذكرت عالمها ومرشدها الكبير رجل التقى والورع الشيخ محمد الحامد رحمه الله، وتذكرت عالمها المعاصر، الداعية الثائر الشيخ سعيد حوى، وتذكرت إخواننا الحمويين الذين يعملون في قطر وغيرها، ولا يستطيعون العودة إلى بلدهم الحبيب: مصطفى الصيرفي، وعدنان سعد الدين، ونعسان عرواني، وغيرهم.

وعند حماة توقفنا قليلا للاستراحة والصلاة، وشراء بعض الحلوى الحموية الشهيرة (الشعيبيات).

وانتهينا إلى حلب (الشهباء) لننزل ضيوفا على الأخ الصديق سليمان الستاوي، وقد رحب بنا هو وأهله وأحباؤه، وأكرموا وفادتنا غاية الإكرام، وقابلنا أقارب الأستاذ عادل كنعان، وإن كان هو لا ينزل إلى سورية، ككل إخواننا الذين لا يأمنون لحزب البعث، وإن لم يؤخذ عليهم أي جرم، ولكن الأنظمة الشمولية القاهرة لا تفرق بين بريء ومسيء.

وتذكرت إخواننا الكرام من علماء سوريا ودعاتها الذين غادروها من سنين، ولم يعودوا إليها: العالم المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والعالم الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا، والعالم الشاعر الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والعالم السياسي الدكتور معروف الدواليبي، والعالم الداعية أبو الفتح البيانوني، وشقيقه الأستاذ علي البيانوني. وآخرين كثيرين لا يتسع المقام لذكرهم.

وبعد يومين أو ثلاثة أيام قضيناها في حلب، زرنا فيها قلعتها الشهيرة وسجنها الرهيب، وتجولنا في أنحاء حلب، فهي مدينة عريقة، لها تاريخ ولها عبقها الخاص، وهي مدينة سيف الدولة الحمداني، وأبي فراس الشاعر الفارس، وأبي الطيب المتنبي، وغيرهم من العلماء والأدباء والفلاسفة.

ومن حلب انطلقنا إلى منطقة (اصطياف) قريبة من الحدود التركية أظن أن اسمها (شطب) وبقينا فيها مدة لا أذكرها ثم انتقلنا إلى مصيف على البحر اسمه (عين البسيط).

ثم انطلقنا من هذه المنطقة إلى اللاذقية، ليستضيفنا شقيق الأخ الصديق الأديب الباحث الأستاذ هاني طايع، الذي لا يستطيع أيضا النزول إلى سورية.

ومن اللاذقية ودعت الأخ سامي وأهله، ليستكمل إجازته في سورية، وسافرت أنا إلى لبنان عن طريق طرطوس، ونزلت بفندق شبلي في سوق الغرب.

إلى تركيا مع الشيخ عبد المعز:

وبعد رجوعي إلى لبنان، حضر فضيلة الأخ الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار إلى بيروت في طريقه إلى تركيا، فسأل عني، ولقيته، وأخبرني أنه مسافر إلى تركيا، وبريد أن أكون معه، وبخاصة أنني ذهبت مرتين تركية، وأصبحت خبيرا بمداخلها ومخارجها، وجوامعها ومتاحفها وأسواقها.

وسافرنا من بيروت استانبول مرة واحدة، عن طريق الطيران التركي، وكان مع الشيخ ابناه محمد وعبد الستار.

وفي هذه الزيارة جددت العهد بزيارة المناطق التي زرتها من قبل سنتي 1967، 1968م، فزرتها مرة أخرى مع الشيخ عبد المعز.

وسافرنا إلى (يالوا) وإلى (بورصة) وركبنا التلفريك، واستمتعنا بجبل بورصة، وأكلنا اللحم المشوي، وحلينا بالبطيخ، على العادة في تلك الزيارة.

وفي عودتنا حدثت لنا حادثة، لولا لطف الله تعالى بنا لكنا هلكنا، فقد كان في الطريق مطر مستمر، تسبب في انزلاق (الباص) الذي نركبه، وكاد ينقلب بنا، لولا أنه اتجه نحو الجبل، ومن شدة الصدمة وقع الناس في داخل الباص، واصطدم بعضهم وجرح بعضهم، سقطت الأمتعة التي كان يحملها بعض الناس، وخصوصا (الكربوز) وهو البطيخ، (والفاوون) وهو الشمام، (الشفتلي) الخوخ والدراق، فقد تدحرجت هذه الأشياء، ونزلت من الحافلة، وهي تجري وتركض بسرعة في الطريق النازل من أعلى إلى أسفل. وسقطت إحدى النساء من الحافلة، واصطدمت بالأرض، وسالت منها الدماء، ونقلتها إحدى السيارات إلى أقرب مستشفى، ولا ندري ماذا فعل الله بها.

وتعطلت السيارة، ووقفنا حتى جئ لنا بسيارة أخرى، وقلنا: الحمد لله، لو اتجهت الحافلة (الباص) نحو الوادي، لكان في ذلك هلاك محقق، والعجيب أن أحدا لا يعرف عنا شيئا، فلله الفضل والمنة، ففي كل قدر لطف. وقد قال ابن عطاء: من ظن انفكاك لطفه تعالى عن قدره، فذلك لقصور نظره: (إن ربي لطيف كما يشاء إنه هو العليم الحكيم) يوسف: .

ثم عدنا إلى لبنان مرة أخرى، وقد أوشكت الإجازة أن تنتهي، وقرب موعد وصول الأولاد من القاهرة إلى بيروت.

وبعد أيام قليلة عادت زوجتي وأولادي، بعد أن عاشوا هذه الإجازة في مصر، واستمتعوا بجو مصر، ونيل مصر، وعبق مصر، وإن قالوا: إن عدم وجودك معنا جعلنا نشعر دائما أن هناك فراغا لا يسده أحد، قلت: أرجو الله ألا يحدث ذلك في المستقبل.

ومن لبنان عدنا إلى قطر –أنا والعائلة- نستقبل عاما دراسيا جديدا، نسأل الله أن يكون خيرا من سابقة، وأن يمدنا فيه بعونه، ويحرسنا بعينه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

السنة الدراسية 1972م، 1973م

استقبلنا العام الدراسي الجديد بهمة ونشاط، بعد عودة أولادي من مصر، وبعد سفري إلى سورية وتركية في الصيف.

عودة للبحث عن الدكتوراه في الأزهر:

بعد موت عبد الناصر، وتولي أنور السادات، وإزاحة مراكز القوى، التي كانت امتدادا لحكم عبد الناصر، والإفراج عن المعتقلين، وإعلان سيادة القانون، تنفست مصر الصعداء، وأحس الناس أن الغُلّ الذي كان يطوق أعناقهم قد فك عنهم.

وفي هذا الجو الذي هبت فيه نسمات الحرية، التي طالما حرمها أهل مصر: بدأت أفكر في العودة إلى الأصل، لأخذ الدكتوراه من الأزهر، ومن كلية (أصول الدين) التي سجلت فيها أطروحتي عن: (الزكاة وأثرها في حل المشاكل الإجتماعية).

ولكن كان أمامي عقبات، منها: أن أقصى مدة يسمح فيها لطالب الدراسات العليا بتقديم رسالته، هي: ست سنوات، وقد مضى حوالي ضعف هذه المدة، فهل يمكن الاستثناء؟

والعقبة الأخرى: أن بحثي عن الزكاة قد نشر، وشرط قبول الأطروحة: أن لا تكون منشورة.

وكان من فضل الله ورحمته: أن وجدنا قانون أقصى مدة للتقديم قد عدل في عهد وزارة الشيخ عبد الحليم محمود للأوقاف وشؤون الأزهر من ست سنوات إلى اثنى عشر عاما. وهذا لم نكن نعلمه.

ولكن حتى هذا القانون لا يسمح لي بالتقديم، فقد مضى اثنا عشر عاما أو أكثر على التقدم بأطروحتي لكلية أصول الدين.

ولكن المفاجأة الغريبة التي لم أكن أتوقعها قط: أني وجدت مجلس الكلية لم يعتمد الموضوع الذي تقدمت به إلا بعد سنة من تقديمه إلى الكلية، وهذا أمر لو عرفته في حينه لغضبت أشد الغضب، وأنحيت باللائمة على من أخره كل هذا الوقت.

ولكن كان لله حكمة لا نعلمها في هذا التأخير، وكما يقول المثل: كل تأخيره فيها خيرة، فقد أتاح لي هذا التأخير أن أجد بصورة قانونية فرصة للتقدم من جديد إلى الكلية لتعيين مشرف جديد على رسالتي، واستجابت الكلية بسرعة، وعينت أحد شيوخنا الفضلاء مشرفا هو الشيخ الدكتور عبد الواحد عثمان أستاذ التفسير المساعد بالكلية.

وكان الذي يركض وراء ذلك كله، ويحرك العجلة إلى الأمام، ويحل المشكلات المعقدة، هو الأخ الحبيب، والصديق الصدوق، الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر، الذي كان يعمل مدرسا مساعدا

بالكلية، ولم يأل جهدا في تتبع الأمور، وتسهيل كل صعوبة تعترض الطريق.

بقي موضوع الرسالة التي يشترط أن لا تكون منشورة قبل وقد نشرت بحثي الأصلي، ومن حسن الحظ: أن البحث الذي نشرته كان بعنوان (فقه الزكاة) والبحث الذي سجلته في الكلية كان بعنوان (الزكاة، وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية).

لهذا صممت بحثا جديدا، استقيته من ثلاثة مصادر:

1. من كتابي (فقه الزكاة) .
2. ومن كتابي (مشكلة الفقر).
3. ومن بحوث جديدة لم تنشر من قبل.

وأكملت الرسالة المطلوبة من ناحية البحث، ثم من ناحية الطباعة على الآلة الكاتبة، وهي تحتاج إلى وقت غير قليل، حتى يسر الله طباعتها ومراجعتها، وفهرستها، ثم إرسالها إلى القاهرة لتسلم إلى الكلية، لتعين لجنة المناقشة، وترسلها إلى الأعضاء، حتى يمكن مناقشتها في إجازة الصيف إن شاء الله.

والحمد لله، تم إرسالها إلى القاهرة مع حماتي رحمها الله، وتسلمها الشيخ حسن عيسى، وسلمها في الحال إلى الكلية، لتتخذ إجراءات تعيين لجنة المناقشة، وقد عينت برئاسة شيخنا العلامة الشيخ محمد علي السايس عضو مجمع البحوث الإسلامية، وعميد كلية أصول الدين من قبل، وعضوية أستاذنا الدكتور عوض الله حجازي عميد كلية أصول الدين الحالي، والمشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عثمان، وأبلغت بذلك وأنا في قطر.

إنشاء كليتي التربية في قطر:

وفي هذه الأثناء كانت كليتا التربية للبنين والبنات على وشك الإنشاء في قطر، نواة لجامعتها المنشودة، وقد أخذ المشروع وقتا كافيا في الدراسات والمناقشات والتهيئة والإعداد، وعقدت اجتماعات شاركت في بعضها، وشارك فيها عدد من الأكاديمين والتربويين، منهم الأستاذ الدكتور محمد الشبيني، ومنهم صديقنا الدكتور يوسف عبد المعطي، الذي يعمل من زمن في الكويت، ومنهم من قطر: الدكتور كمال ناجي، والدكتور أحمد رجب عبد المجيد، والأستاذ عبد الله تركي، وآخرون.

وقد وقع الاختيار على المربي الكبير الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم عميد كلية التربية بجامعة الأزهر، ليكون عميدا للكلية، أو قل: للكليتين، وكان الذي رشحه لذلك هو الدكتور كمال ناجي مدير المعارف في قطر، بناء على تزكية من الدكتور عبد العزيز كامل، الذي يعرفه معرفة جيدة.

ورأى الجميع أن هذه فرصة لتحسين وضعي المادي والأدبي، وإن كنت لم أحصل على الدكتوراه بعد، وبخاصة أن الكلية سيكون فيها قسم للدراسات الإسلامية، وكلمت الشيخ خليفة في الأمر، فأصدر قراره فورا بتعييني في الكلية رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية بدرجة أستاذ مساعد (أستاذ مشارك في مصطلح بعض الجامعات) هذا مع بقائي مديرا للمعهد الديني، إلى جوار عملي الجديد، وكان رقم وظيفتي في الكلية هو (6) بعد التعاقد مع الدكتور كاظم وأربعة آخرين معه.

تعليقات (دار الاعتصام) على كتاب (الحلال والحرام):

في سنة 1972 أرسل إلي الأخ أسعد السيد، وقد خرج من السجن، يخبرني أنه يريد أن يبدأ عملا مستقلا في الطباعة والنشر، وقد كان قبل ذلك يعمل موظفا في إحدى دور النشر. وأنه يريد أن يستهل عمله بنشر كتاب ذي قيمة مرغوب فيه، وأنه اختار كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) ليكون باكورة هذا العمل، وبخاصة أن الكتاب مفقود في السوق المصرية منذ طبعته مكتبة دار العروبة من عدة سنين.

وكان كتاب (الحلال والحرام) قد طبع أول طبعة في مطبعة عيسى الحلبي، وثاني طبعة في المكتب الإسلامي في بيروت، وقد طبع على نفقة الشيخ فهد بن علي آل ثاني، الذي قام بتوزيعه احتسابا لوجه الله ولنفع المسلمين. ثم ظل المكتب الإسلامي بطبعة بعد ذلك، وأحسبه طبع منه خمس طبعات خلال الفترة الماضية، غير الطبعة الأولى والثالثة، وطلب الأخ أسعد أن يطبعه الطبعة الثامنة، واستجبت للأخ الكريم وأعطيته إذنا بالنشر.

ولكني فوجئت بعد بضعة أشهر بالكتاب أرسله إلي الأخ أسعد مطبوعا، وقد أخرجته (دار الاعتصام) التي تنسب إلى إخواننا في الجمعية الشرعية، وأنهم علقوا على عدة مواطن في الكتاب، معترضين عليها، ووضعوا هذه التعليقات في صلب الكتاب دون أن يستأذنوني فيها.

وما أن رأيت هذه التعليقات وقرأتها بسرعة، حتى غلا الدم في عروقي، وثار ثائري، كيف يفعلون هذا دون إذن مني؟ ثم إني لم أعط الكتاب للاعتصام، وإنما أعطيته لأسعد.

ولكن لأن أسعد لم يكن أنشأ داره بعد (دار الأنصار)، اضطر إلى أن يبحث عن دار تتبنى نشر الكتاب، فكانت (دار الاعتصام) التي لم يرُقْها اتجاه الكتاب إلى التيسير، فردت عليه في جملة موضوعات.

أرسلت برقية عاجلة إلى الأخ أسعد، أقول له: أوقف توزيع الكتاب، حتى أكتب ردا على تعليق الاعتصام، وسأكتبه في أيام إن شاء الله.

وبدأت أكتب الرد، وطبعته على الآلة الكاتبة، وأرسلته بأقصى سرعة ممكنة، وأرسله أخونا أسعد ليجمع، وقد جمع فعلا، ولكن الكتاب قد نزل إلى الأسواق، ووزع هنا وهناك، ولم يعد إلى الاستدراك سبيل، وأرسل إليّ أخونا سعد يخبرني بذلك آسفا.

ولكني حملت التبعة لأسعد، وكان جزاء ذلك أن سحبت الكتاب منه، ومن الاعتصام بالتالي.

وعندما نزلت مصر في صيف 1973، واتفقت مع الأخ الفاضل الحاج وهبة حسن وهبة على أن أنشر سائر كتبي، التي نشرت في بيروت طيلة الأعوام التسعة الماضية التي لم أنزل فيها مصر، مثل: الإيمان والحياة، العبادة في الإسلام، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام؟، الناس والحق، عالم وطاغية، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟، الحل الإسلامي فريضة وضرورة، فقه الزكاة، درس النكبة الثانية، شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان. وعلى رأس هذه الكتب: الحلال والحرام. وطلبت من الأخ وهبة: أن ينشر تعليق الاعتصام وردي عليه.ز وتركت له التعليق والرد، وبعد فترة مررت عليه، فقال لي: إن هذا التعليق والرد عليه، سيأخذ أكثر من ثلاث ملازم، وهذه عبء على الكتاب، ستغلي ثمنه على القارئ المسلم، دون ضرورة إلى ذلك، فالأمور التي علقوا عليها واضحة في الكتاب، وسوف تبلبل القارئ بالتعليق

والرد عليه، واستجبت لرغبته، ولم ينشر الرد إلى الآن، وهو عندي، وأرجو أن تتاح لي طبعة خاصة، تضم ردودا على من نقدوا الكتاب، والله المستعان.

السفر إلى القاهرة:

وانتهى العام الدراسي، وكان لا بد من السفر إلى القاهرة، بعد غياب تسع سنوات كنت أقضي الإجازة فيها بين لبنان والأردن وتركيا، وقد استقرت الأمور، وأمن الناس من خوف، في عهد الرئيس السادات، وأفرج عن المعتقلين، بل أغلقت المعتقلات، وأعلن عن سيادة القانون، وتنفس الناس الصعداء، واستقبلوا لأول مرة: أنسام الحرية، لتنعش أرواحهم، التي طالما شعرت بالاختناق في العهد الغابر.

لهذا عدت وأنا مطمئن غير قلق، آمن غير خائف، وهذا ما شعرت به منذ وطئت قدماي مطار القاهرة، فلم يسألني أحد: لماذا تغيبت عن مصر طوال هذه المدة؟ ولم يرسل إلى أحد من المباحث العامة لأقابله، كما كان يفعل أحمد راسخ من قبل.

وعشت فترة إجازة الصيف في أمان واطمئنان، والحمد لله، سافرت إلى قريتي صفط تراب، لأزور الأهل والأقارب، وسافرت إلى طنطا، لأزور خالتي التي حوكمت من أجلي، وسافرت إلى المحلة الكبرى، لأزور فيها إخواني وأحبابي القدامى.

وكانت شقتي القديمة في شبرا باقية كما هي، وكان يسكن فيها أصهاري، ونزلت بها، وجددنا الصلة بجيراننا، الذين كدنا ننساهم، وقد لاحظت أني أول ما نزلت القاهرة – وسط البلد- أشبه بالناسي

للأماكن والاتجاهات، وكأنها أمست مختلطة علي، ولكن سرعان ما استعدت الخارطة، واستردت ذاكرتي ما غاب عنها.

مناقشة الدكتوراه في 23 يوليو:

وسرعان ما أبلغت بتعيين موعد المناقشة لرسالة الدكتوراه، وذلك يوم 23 يوليو، وكان الفضل في هذا التعجيل يرجع إلى سعي الأخ الصادق الأستاذ عبد العظيم الديب، الذي كان يعرف الشيخ السايس رئيس اللجنة، فزاره في بيته، وأعطاه فكرة كافية عني، وعرفه بأن وقتي في القاهرة محدود، وأن السرعة من صالحي، فقرأ الشيخ الرسالة بسرعة، وحدد مع العضوين الآخرين يوم 23 يوليو للمناقشة.

وتوكلت على الله، وذهبت إلى قاعة المناقشة في اليوم الموعود، فوجدت قاعة الشيخ محمد عبده شبه ممتلئة، رغم أن اليوم يوم إجازة، لأنه يوم عيد الثورة، وكذلك تتم المناقشة في عطلة الصيف، ومع هذا كان الحضور كبيرا، ولبست الروب الأسود المعتاد في مثل هذه المناسبة، وكان المفروض أن أعد بيانا مكتوبا لألقائه، ولكني أعتمدت على قدرتي في الخطابة والارتجال، فارتجلت بيانا شفهيا أعددته في نفسي، لخصت فيه الرسالة، وما انتهت إليه من نتائج، وقد لاقى البيان استحسان الحاضرين.

وتكلم فضيلة رئيس اللجنة الشيخ محمد السايس رحمه الله، ففاجأ الحاضرين بما ليس معتادا في هذه المناسبات، أثنى ثناء عاطر على مقدم الرسالة، ودوره في خدمة العلم والإسلام، وأن الله تعالى كتب له المحبة والقبول عند الناس، كما قال تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) مريم: .

وقال ال فيما قاله: إن الأستاذ القرضاوي فعل كذا وكذا، فقال الشيخ الدكتور عوض الله حجازي مداعبا: يا مولانا، هو لم يصر أستاذا بعد! فقال: بل هو أستاذ ونص!!

وقد سألني بعض أسئلة أجبت عنها، وكان منها: لماذا لم تتحدث عن زكاة العقارات والمصانع، وعن زكاة الأسهم والسندات، وعن زكاة الأموال الحديثة التي لم يكن يعرفها الناس من قبل؟ فقلت له: يا مولانا، لقد أجبرني مشرفي من قبل أن أحذف هذه الفصول من رسالتي، وإلا رفض الإشراف عليها، فاضطررت أن أحذفها تنفيذا لرغبة مشرفي؟

وسألني الدكتور عوض الله بعض أسئلة أجبته عنها.

ولم يوجه المشرف أي سؤال إلي.

وانتهت المناقشة، بقيام اللجنة لصلاة المغرب، ثم للتداول، وأخيرا عادت فأعلنت نجاح الطالب بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى في الحديث وعلومه.

وقد علمت أن اللجنة ترددت: لأي القسمين تنسبني: لقسم التفسير وعلوم القرآن، أم لقسم الحديث وعلومه؟ وذلك أني حين انتسبت إلى الدراسات العليا، كانت الشعبة التي تقدمت إليها تشمل القسمين معا: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، ولكنهم وجدوا أن العمل الحديثي في الرسالة أوسع بكثير من العمل التفسيري، فنسبوني إلى الحديث.

وكان من حضور المناقشة أستاذنا وشيخنا البهي الخولي، الذي قال لي: إن هذا لم يكن يوم مناقشة، إنه كان عرس القرضاوي، إنه كان يوم احتفال بك في الأزهر! قلت له: هذا بعض ثمار غرسكم يا أستاذ، قال: بل هو ثمرة جدك واجتهادك ،ومن زرع حصد.

وكان صهري الأخ سامي عبد الجواد يصور الحفل تصويرا سينمائيا، فلم تكن كاميرات الفيديو قد ظهرت بعد.

وكان هذا المهرجان فرصة لأرى فيه كثيرا من الأقارب والأحبة الذين انقطعت عنهم من سنين، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

لك الحمد مولانا على كل نعمة ومن جملة النعماء قولي: لك الحمد!

التعرف على الدكتور كاظم:

بعد انتهاء المناقشة كان علي أن أسعى لاستخراج ورقة من جامعة الأزهر بحصولي على الدكتوراه، فإن الشهادة الأصلية لا تستخرج إلا بعد مدة، وهذا جعلني أتردد على مدير الجامعة وكان في حينها الأستاذ الدكتور بدوي عبد اللطيف، استاذ التاريخ، الذي كان قد سمع عني، فاستقبلني بحفاوة، ورحب بي، وتحدثنا في أمور الجامعة. وآمال الناس فيها.. وحدثته في السنة التأهيلية وأهميتها في تكوين من ينسب إلى الأزهر، وما يجب أن يكون عليه، فقال لي: ليتك تكتب لي هذا الكلام، أو خلاصته في بضع صفحات لأستفيد به، ففعلت ذلك وذهبت إليه بعد يومين أو ثلاثة، فوجدت عنده أستاذا قدم لي نفسه، وقال: أنا سآتي عندكم إلى قطر في العام القادم قلت له: من حضرتك؟ قال: أنا الدكتور محمد إبراهيم كاظم عميد تربية الأزهر، وقد اخترت عميدا لكليتكم الناشئة.

وسرعان ما أنس كلانا بالآخر، كأنما تعارفنا من قديم، وقال لي: إذا لم يكن لديك مانع، فتعال نترافق في بعض المشاوير معا.

وركبت معه سيارته، وذهب بي إلى مكتبه في كلية التربية بجامعة الأزهر في مدينة نصر، وأخذ منه بعض الأوراق، ثم ذهبت معه لزيارة وزير الأزهر فضيلة الشيخ عبد العزيز عيسى، وكان الشيخ يعرفني، فرحب بي كثيرا.

بعد ذلك استأذنت من الدكتور كاظم في الانصراف، على أن نلتقي كلما سنحت الفرصة، لأحدثه عن قطر وأوضاعها، ليستكمل فكرته النظرية عنها.

وبعد أن استخرجت الورقة المؤقتة، بحصولي على الدكتوراه، أصبحت قادرا على التحرك إلى حيث أريد.

السفر إلى مصيف الإسكندرية:

وهنا طلب الأولاد مني أن أكافئهم بالذهاب إلى مصيف الإسكندرية، ليستمتعوا بنسيم البحر، ويأخذوا قسطا من الراحة والاستجمام، وليستنشقوا الهواء الطبيعي بدل الهواء الصناعي الذي يوفره (التكييف) في قطر.

وقلت لهم: من حقكم –ومن حقي معكم – أن تستمتعوا بشاطئ الإسكندرية، واستأجرنا شقة جميلة في حي (ميامي) قريبة جدا من البحر، وتراه بوضوح، وقد استأجرناها لمدة شهر، فقضيناه في جو من الهدوء والمرح، نأكل ونشرب، ونلهو ونلعب، وقد اشترينا شمسية وبعض الكراسي، لنستخدمها على الشاطئ، وفي المساء نمشي على الكرنيش لنأكل الذرة المشوية أو البطاطا المشوية، أو الترمس ونحوه.

ولم يكن أحد يعرف أني في الإسكندرية، فقد خبأت نفسي عن إخواني وأصدقائي، ولم أخبر أحدا منهم بمقدمي إلى عروس البحر الأبيض المتوسط، ثم خطر لنا أن نسأل عن صديقنا الدكتور عبد العزيز بغاغو زميلنا في قطر، وهو من سكان الإسكندرية، وحين عرف بوجودنا أبى إلا أن يدعونا إلى غدوة سمك، يوم الجمعة القادم في منزله، وقد دعا الواعظ البليغ والخطيب الشهير الشيخ محمود عيد، خطيب جامع السلام في الإسكندرية على الغداء معه، وذهبت يوم الجمعة لأصلي مع الشيخ محمود، ودخلت مستخفيا قابعا في ركن قصي من المسجد، حتى لا ألفت نظر أحد، كما أني لا ألبس الجبة والعمامة، ولكن لا أدري كيف عرف الشيخ محمود أني موجود بالمسجد، فإذا هو يعلن في الخطبة الثانية عن وجودي، ويدعوني لإلقاء كلمة بعد الصلاة، وهناك اجتمع الناس وعرفوا أني مقيم بالإسكندرية، وأني مقيم بالعمارة رقم كذا في شارع إسكندر إبراهيم.. فلم أعد بعدها أملك نفسي، فقد دعيت إلى عدة محاضرات، وإلى عدة لقاءات، وإلى عدة دعوات: غداء وعشاء.. وانتهت الأيام التي كنت أشعر فيها بالإجازة بعيدا عن هموم الدعوة، ومزاحمة الناس، وهذه هي ضريبة الدعوة، وضريبة الشهرة، لكن المهم أن يعمل المرء العمل، ويتقبله الله منه، فإنه تعالى قال في كتابه: (إنما يتقبل من المتقين) المائدة: وقضينا شهرنا في الإسكندرية وما أسرع ما انقضى، ثم عدنا إلى القاهرة، لنتهيأ للعودة إلى قطر.

السنة الدراسية 1973، 1974م كليتا التربية في قطر:

بعد قضاء الإجازة الصيفية في مصر، التي كانت إجازة غير عادية، رأيت فيها مصر بعد انقطاع تسع سنوات، ورأيت الأهل

والأقارب والأحبة، بعد أن فرقت الأيام بيني وبينهم، وحصلت على الدكتوراه، التي كنت نسيت في وقت من الأوقات أن أنالها من مصر، وقضيت أوطارا كثيرة في هذه الفترة القصيرة، بعد هذا كله كان لا بد من العودة إلى قطر، لمباشرة عملي الجديد في كليتي التربية.

رأى المسؤولون في قطر: أن يبدأوا عملهم الجامعي بإنشاء كليتي التربية بأقسامها المختلفة: العلمية والأدبية، وبهذا تكون الكلية كأنما هي نواة لجامعة مكتملة.

ففي الأقسام العلمية تجد: قسم الفيزياء، وقسم الكيمياء، وقسم الحيوان، وقسم النبات، وقسم الجولوجيا، وعلوم البحار، وقسم الرياضيات.

وفي الأقسام الأدبية: نجد قسم الدراسات الإسلامية، وقسم اللغة العربية وقسم اللغة الإنجليزية، وقسم الجغرافيا، وقسم التاريخ، وقسم الاجتماع، وقسم علم النفس، وأقسام التربية المختلفة.

ونظرا لأن دولة قطر دولة محافظة، ولا يوجد فيها اختلاط في التعليم بين البنين والبنات، فمدارس البنات كلها مؤنثة من التدريس إلى الإدارة إلى التوجيه، كلها يقوم بها المرأة، حتى الرئاسة العامة لتوجيه البنات تقوم عليها امرأة.

ومن هنا كان التفكير من أول الأمر: أن تنشأ الدراسة الجامعية بكليتين: إحداها للطلاب، والأخرى للطالبات.

ولم يكن الوقت يسعف بانتظار بناء خاص يشاد لهذه الغاية، فرئي الاستفادة من مدرستين ابتدائيتين جديدتين أنشئتا في مدينة خليفة الشمالية للبنين والبنات فحوّلتا، لتكونا كليتين للبنين والبنات، وهما متقاربتان في المسافة، فيسهل التنقل بينهما للمدرسين، إذ كان

معظم المدرسين من الرجال، وكانت توجد بعض الدكتورات، مثل الدكتورة كوثر عبد الرسول أستاذ الجغرافيا، والدكتورة صفاء الأعسر أستاذ علم النفس، وزوجة الدكتور كاظم عميد الكلية، والدكتورة زينب في الفيزياء.

وكان الدكتور كاظم عميد الكلية ـ أو قل: عميد الكليتين ـ يحسن اختيار الرجال، فاختار عددا من الأساتذة الأقوياء الأمناء في التخصصات العلمية والأدبية، مثل الدكتور محمد فتحي سعود في الأحياء، والدكتور كمال البتانوني، والدكتور حسين أبو ليله في الفيزياء، والدكتور عمر عبد الرحمن في الكيمياء، والدكتور ماهر حسن فهمي، والدكتور عبد العزيز مطر في اللغة العربية، وغير هؤلاء ممن قامت على كواهلهم جامعة قطر.

وكان معي في قسم الدراسات الإسلامية مدرس واحد هو: الدكتور أحمد يونس سكر رحمه الله، وهو متخصص في الفقه، وفي كل سنة تنمو الكلية، وينضم إلينا أساتذة جدد، من أمثال الدكتور جابر عبد الحميد في علم النفس، والدكتور عبد العزيز بيومي في علم النبات، والدكتور محمد نصار، والدكتور عبد العظيم الديب في الدراسات الإسلامية، ولم تزل الكلية تنمو رويدا رويدا، حتى صدر القرار الأميري بأن تصبح جامعة مكتملة، تشمل أربع كليات: كلية للشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وكلية للعلوم، بالإضافة إلى كلية التربية.

ماذا كنت أدرس؟

كنت في السنوات الأولى أدرس لجميع طلاب الكلية وطالباتها: الثقافة الإسلامية، كما أدرس لطلاب الأدبي العام وطالباته: فقه السيرة النبوية.

كما كنت أدرس للطلاب المتخصصين والطالبات المتخصصات في الدراسات الإسلامية: معظم المواد، كنت أدرس لهم التفسير والحديث والعقيدة، والفقه وأصول الفقه.

حتى أشرفت على الدفعة الأولى من طالبات قسم الدراسات الإسلامية مقرر (التربية العملية): في السنة الثالثة، والسنة الرابعة. فلم يكن أساتذة التربية قد اكتملوا بحيث يسدون في تخصص التدريس، فكلفوني أن أنهض بعبء الإشراف على الطالبات، وفعلت ذلك، فكنت أزور معهن مدارس البنات، وأكلف إحداهن بتحضير درس نموذجي، لتلقيه في الفصل وتناقشها زميلاتها بعد ذلك، لتعرف نقاط القوة، ونقاط الضعف في درسها.

ولقد أفادتني بالفعل دراستي القديمة في إجازة التدريس، فقد درسنا هناك أصول التربية، وطرق التدريس العامة، وطرق التدريس الخاصة، والتربية العملية، وأذكر أني حصلت فيها على 50 من 50 في السنة الأولى، وفي السنة الثانية.

تفوق الطالبات:

ولقد لاحظت –كما لا حظ غيري من الأساتذة- تفوق الطالبات على الطلاب، وكان هذا شائعا في جميع الأقسام العلمية والأدبية، كما

كان ظاهرا بوضوح عندنا في الدراسات الإسلامية، والعجيب أني وجدت هذا موجودا ومعترفا به في كل أقطار الخليج.

ترى ما السر في هذا؟ وأين ما يقال عن تفوق الرجل على المرأة في الذكاء؟ وأن مخ الرجل أثقل وزنا من مخ المرأة، إلى آخر ما يقوله البيولوجيون في هذا المجال؟

وأود أن أذكر بحكم ملاحظتي وتجربتي: أن هناك أسبابا ثلاثة رصدتها، ورأيتها وراء تفوق الطالبة القطرية في الجامعة.

الأول: أن جميع الطالبات المتفوقات يدخلن جامعة قطر، حيث لا يتاح لهن الابتعاث على الخارج، كما هو الشأن في كثير من الطلبة المتفوقين في الثانوية، حين يذهبون على نفقة الدولة في بعثات خارجية، إلى البلاد العربية، وإلى أوروبا، وربما إلى أمريكا، أما البنات فلا تسمح ظروفهن الاجتماعية بمثل هذا الابتعاث.

والثاني: أن الطالبات أكثر استقرارا في الجامعة من الطلاب، فالطالبة تأتي من الصباح، وتبقى في الكلية، ولا تغادرها حتى تنتهي دراستها، أما الطالب فمعه سيارته، يحضر المحاضرة، ويركب سيارته، ويمضي هنا وهناك، فهو في الجامعة ساعة المحاضرة فقط، كما أنهن في بيوتهن أكثر لزوما للبيت وقرارا فيه من الأولاد، وهذا مما يساعد على المراجعة والمذاكرة.

والثالث: أن البنات أكثر حرصا على الدراسة، والتنافس بينهن أشد، وحب التفوق على الأخريات أقوى وأشد، وهذا عامل نفسي مهم في دفعهن إلى المزيد من الاجتهاد والتحصيل.

حرب العاشر من رمضان:

وكان من أهم ما حدث في هذا العام وفي شهر رمضان المبارك: ما فاجأنا وفاجأ العالم كله من حدث اهتزت له القلوب طربا، وابتسمت له الثغور فرحا، ولهجت به الألسنة ثناء، وسجدت الجباه من أجله لله شكرا.

إنه الحدث الذي عوضنا عما فوجئنا به من قبل في الخامس من حزيران (يونيو) 1967م، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به – إلى اليوم- القدس والضفة والقطاع والجولان، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، هو: حرب العاشر من رمضان، وأنا أحب دائما أسميها دائما: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر، لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبت نسماتها على الجنود والصائمين والمصلين كان له أثره في تحقيق النصر، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء، أما أكتوبر، فليس له أي إيحاء أو دخل في هذا النصر.

لا زلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر في مسجد الشيخ خليفة، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلني، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقف، للاتصال بي من هنا وهناك، مهنئة بما وقع، شاكرة لله تعالى، الذي صدق وعده، وأعز جنده، وهزم الظالمين وحده.

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين، كما خدع كثيرون أيام نكبة

5 يونيو 67م، فقد كانت القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس، وتخدرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات، والحقيقة أن طائراتنا هي التي ضربت في مدرجاتها، ولم تطر حتى تسقط، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلما، وأنه واقع وليس من نسج الخيال.

ألا ما أحلى مذاق النصر، وخصوصا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل! وللأسف طالت هزائم الأمة في معارك شتى، وذرفت الدموع كثيرا على هزائمها، حيث لم تغن الدموع، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن، وأن تضحك بعد طول بكاء.

لقد عبر الجيش المصري القناة، صنع قناطر أو جسورا للعبور عليها، مكونة من أجزاء، تركب في الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسرا فوق الماء تعبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها من سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدريب عليها منذ شهور، في تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصري خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب، ولهذا حفظ السر، ولم يبح به أحد.

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح، اقتحمت القوات المصرية: ما عرف باسم خط بارليف، الذي أقامته إسرائيل، ليكون حاجزا ترابيا بعد الحاجز المائي، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة.

وكان كل شيء، معدا بجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شيء مرتجل، وقام كل سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان والمدرعات، وسلاح الطيران، كل قام بم هيئ له، وما كلف به.

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيا وروحيا، لما يمد به الجنود من نفحات، وما يعطيهم من شحنة روحية، وكان أكتوبر مناسبا، من حيث المناخ، وليس فيه حرارة الصيف، ولا برد الشتاء.

وكان الوقت مناسبا من ناحية أخرى: أنه يوم الغفران ، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد، لنفاجئهم بضرتنا، كما فاجأونا بضربتهم في يونيو 67م.

ولا يقال: كيف نباغتهم ولا ننذرهم؟ فمثل هذه الحرب لا تحتاج إلى إنذار ولا إبلاغ، لأنها حرب دفاع للمحتل، وهي مستمرة معه لم تتوقف.

وأهم من هذا كله: الروح المعنوية التي كان يحملها المقاتل المصري: إنها روح الإيمان؛ الإيمان بالله تعالى، وأنه ينصر من نصره، والإيمان بأننا أصحاب الحق، والحق لا بد أن ينتصر، والباطل لا بد أن يزهق (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

وفرق كبير بين هذه الحرب وحرب يونيو 67، فقد كان العنصر الإيماني والروحي مغيبا عنها تماما، لذلك لم يحالفها النصر.

كانت كلمة السر في حرب 67: بر بحر جو، ولكن الواقع يقول: إنهم لم ينتصروا في بر ولا بحر ولا جو، ولم يكن الذنب ذنب الجيش وجنوده، ولكن ذنب القادة الذين جروهم إلى حرب لم

يخططوا لها، ولم يعدوا لها العدة، ولم يأخذوا لها الحذر، كما أمر الله.

لقد ترك الجنود أسلحتهم، وتركوا دباباتهم ومصفحاتهم، لم يحاولوا أن يشعلوا فيها النار بعد أن تركوها، حتى لا يغنمها العدو ويستفيد منها؛ لأن هم كل واحد منهم كان هو النجاة بنفسه، واللياذ بالفرار.

لقد اعتمدوا على الآلات، فلم تغن عنهم الآلات، واتكلوا على السلاح فلم ينجدهم السلاح، لأن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يحركها إيمان بهدف، وإيمان برسالة، وهذا لم يعبأ به الجنود.

يقول أبو الطيب:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا   إذا لم يكن فوق الكرم كرام!

ويقول الطغراني في لاميته:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره   وليس يعمل إلا في يدي بطل!

ماذا تجدي خيل بغير خيال، وفرس بغير فارس، وسيف صارم بغير بطل؟!

فلا عجب أن كانت الهزيمة الثقيلة المذلة في 67، فهذه نتيجة منطقية لمقدمتها، كما قال العرب: إنك لا تجني من الشوك العنب،

وصدق الله إذ يقول: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) الأعراف:.

سئل الرئيس حسني مبارك، عندما كان نائبا للرئيس السادات في

1975/9/27م، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس 67 في الإعداد لقتال 6 اكتوبر؟ قال: باختصار.. في 67.. لا تخطيط.. لا إعداد .. لا تدريب.. لا تنسيق بين العمل السياسي، والعسكري.

وأهم من ذلك: أننا لم نزود جنودنا بالإيمان، في حين تجتهد إسرائيل أن تزود جيشها بتعاليم التوراة، وتوجيهات التلمود، ونصائح الحاخامات.

وكان من ثمرات محنة 67: أنها أيقظت في الناس المعنى الديني، والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحرص على إقامة الصلاة، وقام وعاظ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة (الله أكبر).

إن الجندي المصري في 73 هو نفسه في 67 من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يقاد من داخله، لا من خارجه، ولا يقود الناس في بلادنا شيء مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان.

وهذا ما لم تفهمه قيادة 67، فقد عزفوا على منظومة القومية، ومنظومة الاشتراكية، ومنظومة الثورية، فلم تحرك ساكنا، أو تنبه غافلا في الجندي المصري، أو الجندي العربي عموما.

ولكنك إذا حركته بـ(لا إله إلا الله والله اكبر) إذا رفعت أمامه المصحف، إذا قلت: يا ريح الجنة هبي، إذا ذكرته بالله ورسوله، وذكرته بالأبطال العظام: خالد وأبي عبيدة وسعد وطارق وصلاح الدين وقطز وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار، فقد خاطبت جوانيته، ودخلت في أعماقه، وأوقدت جذوته، وحركت حوافزه، وبعثت عزيمته، وهنا لا يقف أمامه شيء، إنه يصنع البطولات، ويتخطى المستحيلات، لأنه باسم الله يتحرك، وباسم الله يمضي، وعلى الله يتوكل: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم).

مؤتمر الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد في بيروت:

في هذه السنة الدراسية (73-74م):

دعت الجامعة اللبنانية في بيروت إلى مؤتمر كبير، يدور حول موضوع أساسي ومهم هو: (الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد). وكان يشتمل على عدة محاور علمية وأدبية ودينية وفلسفية واقتصادية واجتماعية، ودعت للمشاركة فيه عددا من كبار الباحثين والمفكرين، وممثلين عن الجامعات العربية في الوطن العربي.

وكانت كلية التربية في قطر ممن دعي إلى هذا المؤتمر، وكنت قد قرأت الدعوة، ووجدت من عناصر البحث: الفقه الإسلامي، فأعددت بحثا عن (الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد).

وكانت الكلية قد رشحت لهذا المؤتمر الزميل الكريم والصديق العزيز الدكتور ماهر حسن فهمي رئيس قسم اللغة العربية، وأستاذ الأدب العربي، وقد أعد هو الآخر بحثا حول تخصصه في (الأدب

العربي)، وكان الدكتور ماهر من خيرة من عرفت من أساتذة الأدب العربي، وسعدت بزمالته زمنا طويلا في رحاب جامعة قطر، حتى أحيل على التقاعد، ثم توفي في حادث سيارة رحمه الله.

وقد فوجئ الدكتور كاظم عميد الكلية بأني أعددت بحثا للمؤتمر، وكأنه أحرج بأنه لم يرشحني، فقلت له: لا عليك، فإني أستطيع أن أذهب على حسابي، قال: بل تذهب على حساب الجامعة، ويذهب د. ماهر على حساب الدولة.

وسافرت أنا والدكتور ماهر، وحضرنا المؤتمر الذي استمر عدة أيام، وكان مؤتمرا حافلا بالشخصيات العلمية الفكرية، وبالبحوث الأصيلة والمجددة، وبالحوارات الحية.

وكان أول ما نوقش في المؤتمر هو: عنوان المؤتمر ذاته، وهل حضارتنا عربية أم إسلامية؟ ودار نقاش طويل يحتد حينا، ويخف حينا حول هوية الحضارة.

وكان الرأي الذي تبنيته وأعلنته: أن حضارتنا عربية وإسلامية معا، فهي عربية بحكم أن آثارها مكتوبة باللغة العربية، وأن أهم عنصر في تأسيسها وإقامتها كان هو العنصر العربي، حتى إن مؤرخا مثل (غوستاف لوبون) المفكر الفرنسي المعروف، حين أرخ لهذه الحضارة آثر أن يسمي كتابه (حضارة العرب) مع أنه في الواقع والغالب يتحدث عن حضارة المسلمين.

وهي كذلك حضارة إسلامية، بحكم الدوافع والبواعث والفلسفة التي دفعت إلى إنشائها وإعلائها، فهي بواعث إسلامية لأهداف إسلامية، منبثقة عن تصور إسلامي ونظرة إسلامية للإنسان والعالم والدين والدنيا.

وهي إسلامية كذلك بحكم العناصر التي شاركت فيها، فلم يكن العرب وحدهم، هم الذين صنعوا هذه الحضارة، بل شاركهم فرس وأفغان وهنود وروم ومصريون وأتراك وأفارقة، ومن أجناس شتى.

وهي إسلامية أيضا بحكم الرقعة التي قامت فيها الحضارة، فقد وسعت العالم الإسلامي كله، بما فيه بلاد العرب والعجم، فنجد معالم الحضارة الإسلامية في سمرقند، كما نجدها في الهند، كما نجدها في استانبول، مثلما نجدها في دمشق وبغداد والقاهرة والمغرب.

وكان المحور الثاني الذي أخذ حظا من النقاش، هو: الأصالة والتجديد، وما المراد بهما؟ ولم يكن مصطلح (الأصالة والمعاصرة) قد شاع في ذلك الوقت، كما عرف بعد ذلك.

وكان الاتجاه العام للمؤتمر أن الأصالة والتجديد لا يتقابلان، حتى نقول: بين الأصالة والتجديد، فكأننا مخيرون بينهما، مع أن كلا منهما مطلوب، فنحن نريد تجديدا في ظل الأصالة.

والواقع أننا بقينا تلك الأيام في جو علمي وفكري حي، وكانت أياما خصبة ومثمرة، وقد ألقيت فيها بحثي عن الفقه بين الأصالة والتجديد وبينت أوجه التجديد الذي ينبغي أن تدخل في الفقه من ناحية الشكل، ومن ناحية الموضوع، وقد نشرت البحث بعد ذلك في رسالة خاصة تحمل هذا العنوان نفسه.

ثم عدنا إلى الدوحة، وإن كنت لم أحصل من الجامعة على ثمن التذكرة، كما وعد د.كاظم، ولكن ما كسبته من المؤتمر كان أغلى وأعظم من ذلك.

الإفراج عن الأستاذ الهضيبي بعفو صحي:

أفرج السادات عن المعتقلين السياسيين، وكانوا ـ كلهم أو جلهم ـ من الإخوان، وأغلق أبواب المعتقلات، وحسب ذلك في سجل حسناته ومنجزاته بلا شك.

ولكنه لم يقف هذا الموقف من المسجونين، الذين حكمت عليهم محاكم الشعب بمدد، منها ما طال ومنها ما قصر، منها ما كان حكمه عشر سنوات، أو خمسة عشر عاما، وقد أنهى المدة وخرج. ومنها ما كان محكوما عليه بعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة (أشغال شاقة مؤبدة). وكان المفروض أن يفرج عن هؤلاء في مناسبات كثيرة، لأنه قضى نصف المدة أو ثلاثة أرباع المدة، كما يفرج عن المجرمين العاديين، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل ربما أنهى بعضهم مدة العقوبة، وخرج من السجن إلى المعتقل.

هؤلاء المحكوم عليهم تركهم السادات في سجونهم في الواحات أو في غيرهم، برغم ما يعلم: من هو القاضي الذي حكم عليهم، وما قيمة حكمه في ميزان العدالة. وهو جمال سالم.

فقد قال عنه السادات: كان جمال سالم ـ رحمه الله ـ حاد المزاج، عصبيا إلى حد غير طبيعي، غير متزن في جميع نواحي شخصيته، فلما وجد الناس منصرفة عنه: بدأ يثير المعارك هنا وهناك، وفي كل مجال.

وقد اندفع مرة في مجلس الثورة ضد محمد نجيب، وأعلن أنه سيقوم بقتله، وتخليص المجلس منه، وعلى المجلس أن يحاكمه بقتله.

وكان من المنتظر من الرئيس السادات، وقد مكن الله له في الأرض: أن يرد الاعتبار إلى هؤلاء المسجونين، الذين حكمت عليهم محكمة يرأسها جمال سالم! ولكن لم يحدث هذا الإفراج إلا بعد حرب العاشر من رمضان 1393هـ ،1973/10/6م، وإن كانت معاملتهم قد تحسنت كثيرا في عصر السادات عن العصر السابق الكئيب، الذي اشتهر بظلمه وظلامه. ويبدو أن السادات لم ينس أنه كان عضو اليمين في محكمة جمال سالم!

ولكن مما يذكر للسادات: أنه لم يمهل الأستاذ الهضيبي حتى يفرج عنه مع سائر المسجونين في قضايا الإخوان.

ففي شهر يوليو من سنة 1971: صدر قرار الإفراج عن الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، الذي أفرج عنه بعفو صحي . واستقبل الإخوان ذلك بالفرح والاستبشار، وزاره الكثيرون مهنئين ومجددين للبيعة والعمل لتبصير الأمة، وإحياء الدعوة، وخدمة الإسلام.

وفاة الأستاذ الهضيبي:

وفي موسم الحج، (سنة 1392هـ ـ1972م) خرج الأستاذ الهضيبي لأداء شعيرة الحج إلى بيت الله الحرام، لينضم إلى الآتين من كل فج عميق (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) الحج: .

وكان من المنافع المشهودة في ذلك الموسم: أن لقيه الإخوان الذين قدموا من أقطار شتى من أنحاء العالم، وسرّ الأستاذ بهم، وسروا

به، وانسكبت دموع الأعين، فرحا بلقاء الإخوة بعضهم لبعض، ولقاء القائد للجنود، في البلد الحرام، والشهر الحرام.

ولم يقدر لي أن أذهب إلى الحج في هذا الموسم، إذ لم يكن لديّ علم بأن الأستاذ على نية السفر إلى الحج، وهكذا قدر الله أن لا أرى المرشد في الحج، ولا ما بعد الحج، حتى وافاه الأجل بعد رجوعه في شهر أكتوبر. وأوصى بأن يدفن في (مقابر الصدقة) وهو من هو مكانة ومنزلة في المجتمع عامة، وفي الإخوان خاصة.

كلمة عن الأستاذ الهضيبي:

تحدثت عن الأستاذ حسن الهضيبي بمناسبة اختياره مرشدا عاما للإخوان، بعد وفاة مرشدهم الأول حسن البنا، وذكرت كيف عرف الأستاذ البنا إخوانه بالهضيبي، حين قدمه في (سجل التعارف الإسلامي) ضمن الشخصيات الإسلامية التي يعرف بها القراء في كل عدد من (مجلة الشهاب) التي كان الإمام البنا يصدرها في سنة 1948م، وصدر منها خمسة أعداد.

وكان كبار الإخوان المعروفين قد تنازعوا فيما بينهم: أيهم يقود الجماعة، ولم يتفقوا على واحد منهم، فكان اختيار الأستاذ الهضيبي هو الذي حسم النزاع، ووحد الوجهة، ووجدت السفينة ربانا يقودها باسم الله مجراها ومرساها، وإن بقي في بعض النفوس ما بقي، مما لا يسلم منه البشر.

وكانت شخصية الأستاذ الهضيبي مختلفة تمام الاختلاف عن شخصية الأستاذ البنا، التي تتلمذ عليها الإخوان، وعايشوها، وأخذوا عنها، طوال عشرين عاما، التي عاشها الإمام الشهيد مرشدا ومربيا وموجها للجماعة.

كانت شخصية البنا: شخصية المعلم الداعية، الذي يجيد الخطبة إذا خطب، والمحاضرة إذا حاضر، والمقالة إذا كتب، والتأليف إذا ألف، والحديث إذا حدث. وكان يأسر سامعه بحسن حديثه، وحلو نكاته. وهو الذي شد هذه الجموع إلى الله، وجندهم لخدمة الإسلام.

وكانت شخصية الهضيبي: شخصية القاضي، الذي يستمع كثيرا، ويتكلم قليلا، فإذا تكلم كان كلامه حكما صارما، يجب على الآخرين الإذعان له، وينفذه بكل دقة، ولم تكن لديه مؤهلات الخطابة والمحاضرة التصنيف.

كان البنا ذا ثقافة واسعة، تكونت لديه من الدراسة في دار العلوم، ومن قراءاته الخاصة الطويلة والمتنوعة، فهو عالم متبحر في علوم اللغة العربية وآدابها، وفي العلوم الشرعية: العقيدة والفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وله إلمام جيد بالعلوم الاجتماعية.

وكان الأستاذ الهضيبي: حقوقيا متميزا، متفوقا في علم القانون وفروعه، قارئا جيدا في علم الفقه، ولا سيما في (المحلى) لابن حزم.

كان حسن البنا رجلا (شعبيا) قريبا من الناس، يلقاه العامل والفلاح وابن القرية الفقير، فلا يشعر بأنه يكلم إنسانا من طبقة فوق طبقته، بل يندمج معه، ويحس بأنه من البنا، وأن البنا منه.

وكان حسن الهضيبي ـ بحكم منصبه ودرجته الإدارية والمالية ورتبة (البكوية) التي يحملها ـ رجلا (أرستقراطيا) كما يقولون، لا تكلفا منه، ولا تعاليا على أحد، ولكن هكذا شاءت له الأقدار أن يكون!

كان البنا صاحب قلب حي، وعاطفة جياشة، وكان إذا لقي الإخوان كل أسبوع في (حديث الثلاثاء) يبدأ حديثه بما يسميه (عاطفة الثلاثاء) يوقد فيها جذوة الإيمان والربانية في الصدور، وشعلة الحب والأخوة في القلوب. فإن الحب في الله من أوثق عرا الإيمان.

وكان الهضيبي صاحب عقل يقظ، يزن الأمور والأشخاص والأحداث والمواقف بميزان دقيق، ولم يكن للعواطف عنده كبير اهتمام بحكم تكوينه ومسار حياته.

كان أقرب الناس إلى حسن البنا في الجماعة: مكوّنين من طبقات شتى، من علية القوم، ومن أواسط القوم، ومن فقراء القوم، كما يظهر في تكوين مكتب الإرشاد العام الذي يقود الجماعة.

وكان أقرب الناس إلى حسن الهضيبي: من كانوا في مثل طبقته، من العِلْية غالبا، وإن لم يبعد الآخرين أو يطردهم، ولكن كما قيل: شبيه الشيء ينجذب إليه، وإن الطيور على أشكالها تقع. هذه سنة ماضية.

واختلاف ما بين الشخصيتين للمرشدين: الأول والثاني: كان له أثر ـ على المدى الطويل ـ في أنفس بعض الإخوان. وربما كون بعضهم لنفسه فكرة غير صحيحة عن المرشد الثاني، وأنه رجل متكبر أو متعال على غيره.

وأنا لم أختلط بالأستاذ الهضيبي كثيرا، فقد كنت طالبا في كلية أصول الدين وفي تخصص التدريس، أيام ولايته، ولكني لقيته عدة مرات من قريب، ووجدته رجلا سهلا سمحا، قريبا، على غير ما يظن به.

أول ما لقيته كان في مدينة المحلة الكبرى، وقد أقام الإخوان له حفلا كبيرا، كنت من المتحدثين فيه، وكنت شابا متحمسا، فكانت كلمتي معبرة عني، وعن شخصيتي في ذلك الوقت.

وعندما تحدث هو بعد خطباء الحفل قال: أنا لا أحسن الخطب الحماسية مثل الشيخ القرضاوي، ولكني أنصحكم بكذا وكذا أو بكذا. فكانت كلماته أشبه بتعليمات محددة.

ودعاه رجل المحلة الأول ـ رجل البر والخير ـ عبد الحي باشا خليل في بيته، فذهبنا معه، وكان موضع التجلة والاحترام من هؤلاء الأعيان.

وكذلك ذهبنا معه في اليوم التالي لزيارة مصنع المحلة، فكان الجميع يحترمونه ويقدرونه.

وزارنا في المحلة مرة أخرى، ومعه سيد قطب، وعبد الحكيم عابدين، فتعرفت به أكثر.

وذهبت معه مرتين قبل الثورة إلى مدينين من مدن مصر: مرة في مدينة كفر الشيخ، ومرة في مدينة السويس. وكان معه في كلتا الزيارتين: الشيخ أحمد حسن الباقوري، فقد كان قريبا منه. وكان الإخوة في قسم نشر الدعوة يريدون أن أحضر مع المرشد والباقوري لأكملهما، فكلاهما يحدث الخاصة، ولا يخاطب الجماهير. وكأن الأستاذ المرشد استراح إلى ذلك، فكان يرحب بوجودي.

وفي عودتنا من رحلة السويس، كنت رفيقهما في السيارة التي حملتهما، وهن اقتربت أكثر من الأستاذ الهضيبي، واستمعت إلى بعض نكاته، ومنها نكات يعدها بعض الناس خارجة! ويبدو أن

الأستاذ الهضيبي ـ من خلال هاتين المرتين ـ كون عني فكرة حسنة.

ففي أوائل الثورة في شهر أغسطس: أبلغت بأن الأستاذ المرشد يريدني أن أذهب لزيارة الإخوة في سورية والأردن، أنا والأخ محمد علي سليم من إخوان الشرقية. وقد تحدثت عن تفاصيل هذه الرحلة في الجزء الأول من هذه المذكرات. وبعد عودتي كتبت له تقريرا عن الرحلة، ولما لقيته في مناسبة بعدها، قال لي: قد قرأت تقريرك عن رحلتك إلى بلاد الشام، واهتممت به، وخصوصا ما كتبته عن (حزب التحرير).

وعندما أنشأ عبد الناصر (هيئة التحرير) لتكون سنده الشعبي، بدلا من الإخوان، وبدأت تحدثت تحديا وصدامات في بعض البلدان، أرسلني الأستاذ المرشد لأجوب مدن الصعيد كلها من الفيوم إلى أسوان، لألقى الإخوان، وأحثهم على أن يتمسكوا بدعوتهم، ولا يذوبوا في أي جماعة أخرى، كما لا يصطدمون بأحد يريد أن يجرهم إلى الصدام بوسيلة وأخرى.

وفعلا قمت بهذه الرحلة، وكانت من أخصب الرحلات، وأكثرها بركة.

وعندما اعتقلنا في المرة الأولى في عهد الثورة في يناير 1954م، وأخذنا إلى العامرية، ثم نقلونا ـ أنا وخمسة من الإخوان ـ إلى السجن الحربي: أنزلونا في سجن رقم 4، وكان فيه الأستاذ الهضيبي وكبار الإخوان، وكانوا يغلقون الزنازين في أول الأمر علينا، ثم فتحوها لنا. فكنا نصلي جماعة. وهنا أمرني الأستاذ أن أؤم الإخوان، وقد أطلت في بعض الصلوات الجهرية، فنصحني أن لا أطيل، مراعاة للكبير والمريض وذي الحاجة.

ثم نقل الأستاذ وكبار الإخوان إلى عنبر الإدارة، وكان هذا آخر عهدي به، حتى إني لم أحضر اللقاء الكبير الذي أقيم في المركز العام يوم خروج الإخوان من السجن الحربي، بعد أن اصطلحوا مع عبد الناصر، فقد كنت المعتقل الوحيد الذي تأخر الإفراج عنه يوما واحدا، كما حكيت في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

حتى إني حين اعتقلت في المرة الثانية بعد حادث المنشية: بقيت فترة في حجز مباحث المحلة الكبرى، التي تولت التحقيق معي فلم أصل إلى السجن الحربي إلا يوم خروج الأستاذ الهضيبي منه بعد أن صدر الحكم عليه وعلى ستة معه بالإعدام!

وقد تحدثت في الجزء الماضي عن الخلاف الذي حدث بين الأستاذ الهضيبي وجماعة من الإخوان القدامى، على رأسهم الأستاذ البهي الخولي، والمشايخ: الغزالي وعبد المعز عبد الستار وسيد سابق ومحمد جودة وآخرون. وأني كنت ـ أنا وأخي العسال والدمرداش وآخرون ـ أقرب إلى صف المشايخ، لاعتبارات ذكرتها هناك. فلما وقعت الواقعة، انضممنا إلى ركب الجماعة، وحوكمنا مع من حوكموا، وعذبنا مع من عذبوا، ونرجو أن يكون ذلك في ذات الله تعالى، وأن لا نحرم أجره عند الله.

لا يختلف اثنان من الإخوان ـ حتى من المعارضين ـ في أن الأستاذ الهضيبي مسلم عظيم، وأنه من الذين أخلصوا دينهم لله، فليس من المتاجرين بالدين ولا بالدعوة، ولا يريد من وراء عمله للإسلام جزاء ولا شكورا، وأنه رجل نظيف لا يماري أحد في نظافته، وأنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وأنه لم يستفد لنفسه ولا لأسرته من رواء الدعوة شيئا ماديا قط، إلا ما أصابه من لأواء في سبيل الله، وأنه رجل صلب لا يداهن في دينه،

ولا يجامل أحدا في أمر الدين، وهو يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم، وأنه أوذي في الله ـ مع كبر سنه ـ فما وهن ولا ضعف ولا استكان، ولا طأطأ رأسه لمخلوق، وأنه كان يعامل عبد الناصر ورجال الثورة بعزة واستعلاء، معاملة الند للند، والسيد للسيد، اعتزازا منه بأنه يمثل دعوة الإسلام.

ولعل هذه النقطة الأخيرة هي التي جعلت بعض الإخوان يقولون: إن موقف الأستاذ الهضيبي من رجال الثورة عامة، ومن عبد الناصر خاصة، هي التي ولّدت هذه الجفوة بين الطرفين، التي انتهت إلى خصومة، وانتهت إلى صراع بين الطرفين. ويقولون: لو كان حسن البنا في موقف حسن الهضيبي لكان له موقف آخر، ولاستطاع برفقه وتلطفه ولين طبعه: أن يجذبهم إلى ساحته، وأن يأخذهم بالتي هي أحسن، وأن يهتدي بقول الله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) آل عمران: .

ولكنه نفر منهم ونفروا منه، وأغلظ عليهم وأغلظوا له، وساء ظنه بهم، فساءت ظنونهم بالجماعة.

هكذا رأيت بعض الإخوان يفكرون، وسمعتهم يتكلمون، فهل هذا المنطق مسلّم؟ ومن يدري ماذا كان سيفعل حسن البنا لو كان حيا، فهذا علمه عند الله، ولا يملك أحد أن يقوّل غيره في ذلك ما لم يقل.

على أن الذي يبدو لي من تسلسل الأحداث، ومما أظهره عبد الناصر من أفكار وتوجهات: أن الرجل لم يكن يريد لأحد ـ لا الإخوان ولا غيرهم ـ أن يشاركه في الحكم، ولو بالمشورة والتسديد. وقد أعلن في الأيام الأولى للثورة: أنها مستقلة ولا وصاية لأحد عليها.. وقال بصراحة للإخوان: إنه يريد أن يضغط

على زر فتتحرك مصر من الإسكندرية إلى أسوان، ويضغط على زر آخر، فتتوقف مصر من الإسكندرية إلى أسوان!

كان في إهاب عبد الناصر (دكتاتور) يريد أن يستبد بالأمر، ولا يكون لأحد معه رأي ولا قول، إلا ما كان يسير في ركبه، ويدور في فلكه. ومثل هذا الطاغية المتجبر في الأرض: لا يمكن أن ينسجم مع أي رجل ينصح له، أو يقول له كلمة حق، أو يأمره بمعروف، أو ينهاه عن منكر، سواء كان حسن البنا أم حسن الهضيبي.

بين الهضيبي والغزالي:

وربما تساءل بعض الإخوة هنا عن موقف الشيخ الغزالي وما كان من خصومة بينه وبين الأستاذ الهضيبي، اشتد لهيبها بعد فصل الشيخ من الجماعة، فأطلق لقلمه العنان، فقال ما قال.

وكان ذلك من آثار الفتنة التي بذر عبد الناصر بذورها بين الإخوان بعضهم وبعض. ومما هيج الشيخ أكثر، واستثار غضبه: أن بعض المتحمسين من الإخوان تحداه، وهدده بالقتل إن تكلم أو كتب.

ومع هذا، حين تبين له طغيان عبد الناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذي تجرع مرارته إخوانه في السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأسا، ولم يوطئ لهم ظهرا، غير موقفه من المرشد الهضيبي ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته. وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه ويعانقه بحرارة وإخلاص، وقد قابله

المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التي كانت دائما إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالي ما كتب من مقالات ـ في فترة الغضب بعد فصله من الجماعة ـ رأى أن يطوي بعضها فلا ينشره في كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء ـ على ما فيها من آثار الحدة والغضب ـ للتاريخ، ومع هذا عقب في إحدى الحواشي عليها بقوله:

"في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك ـ للأسف ـ ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته آخر هذا الباب".

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبي ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ فقال:

"إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال... إن صبره الذي أعز الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور،

ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا... على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلا.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا أجمعين"أ.هـ.

وكان مما هز الشيخ الغزالي وقدره من مواقف للأستاذ الهضيبي: أنه أوصى في مرض موته أن يدفن في مقابر الصدقة، التي يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو من هو منزلة ومنصبا وجاها. فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أي مكان! ولم يكن من عبّاد المظاهر، التي فتنت الكثيرين، ولا أزكيه على الله.

رحم الله حسن الهضيبي وغفر له، وأجره أجر المجتهدين على ما أخطأ فيه، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين، الذين صبروا وصابروا ورابطوا، والذين أوذوا في أنفسهم وأهليهم وإخوانهم، (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله حسن ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) آل عمران: .

الحج سنة 1393هـ (1973م،1974م):

وفي سنة 1393 (1973) جاءتني دعوة من لجنة التوعية بالحج، وكانت قد تكونت عن طريق وزارة الحج والأوقاف، أو طريق الرئاسة العامة للإفتاء والبحوث والدعوة والإرشاد، لا أذكر.

المهم أنني استجبت للدعوة، وكنت لم أحج من سنة 1384هـ (1964م) وكان الوقت مناسبا بالنسبة للجو، فقد كان في فصل الشتاء، وهو مما يغري الناس بالإقبال على الحج، لأن جو مكة دائما أقرب إلى الحر.

وقد كان معي وفد إعلامي مسافر من قطر، يمثل الإذاعة و التليفزيون. وكنا نسافر على ثلاث مراحل: من الدوحة إلى الظهران، وفيها نتمم إجراءات الجوازات، وندخل المملكة، ومن الظهران إلى الرياض، ثم من الرياض إلى جدة. فكانت الرحلة إلى جدة تستغرق حوالي يوم كامل. وخصوصا أننا ننتقل في الظهران من مطار إلى آخر، أي من الطيران الخارجي أو الدولي إلى الطيران الداخلي، وهذا يقتضي أن نتسلم حقائبنا ونحملها إلى المطار الآخر.

وفي مطار الظهران: حدثت مشكلة، فبعض الإخوة من وفد قطر الإعلامي كانوا فلسطينيين يحملون (وثائق سفر) قطرية، فتوقفوا معهم: وقالوا: نريد جوازاتكم الأصلية، وقالوا لهم: ليس معنا جواز أصلي. قالوا: أنتم فلسطينيون، فلا بد أن معكم جوازا آخر.. وقال الإخوة: لا بد أن نتصل بالدوحة، ونبحث عن حل للمشكلة مع القوم.

وجاء الدور عليّ، فنظر المسؤول عن الجوازات في الجواز الذي معي، وهو جواز قطري، وقال: أين جوازك الأصلي؟

قلت له: هذا جوازي الأصلي!

قال: ألست أنت الشيخ يوسف القرضاوي الذي نشاهده في التلفيزيون ونترقب برنامجه بشغف؟

قلت: بلى، أنا هو.

قال: الست مصريا؟

قلت: أنا الآن قطري.

قال: ولكنك مصري، ونريد جوازك الأصلي.

قلت: يا أخي، لقد اختلط عليك الأمر، الإخوة الذين أوقفتهم من الفلسطينيين يحملون (وثائق سفر)

صالحة لسفرة واحدة أو لمدة سنة. أما أنا فأحمل (جواز سفر) كاملا. فلأكن مصريا أو استراليا أو من أي جنس كان. أنت تتعامل مع الأوراق. أمامك ورقة رسمية صادرة من قطر، ومن صاحب العظمة حاكم قطر. ودعك من أنك تعرفني أحمل جنسية أخرى من قبل. وهذا جواز زرت به بلاد العالم كلها، ولم يوقفني أحد كما أوقفتني أنت، لأنك تعرفني وتشاهدني في التليفزيون!

قال: وهل دخلت به المملكة من قبل؟

توقفت قليلا، ثم تذكرت، وقلت: نعم، دخلت به المملكة من قبل، ومن هذا المطار نفسه! وفعلا نظروا في الجواز فوجدوا فيه ختم دخول المملكة من الظهران. وقال الرجل: أنا آسف. أنا والله من المعجبين بك، والمتابعين لبرنامجك.

قلت له: متابعتك هذه ضرتني ولم تنفعني، وكادت تعطلني بلا مبرر، ولو كنت شخصا عاديا لمر بسلام.

وكانت الطائرة قد كادت تطير، وتدعني، ولكن الله سلم، وأدركتها في آخر لحظة، وانتقلت إلى الرياض، لننزل فيها فترة من الزمن، لنذهب منها إلى جدة، ومنها إلى بلد الله الحرام: مكة المكرمة، لأداء العمرة، ثم التحلل منها متمتعا بالعمرة إلى الحج.

وقد انضممت إلى العلماء الذين دعوا إلى ما دعيت إليه، وكان منهم الشيخ محمد الراوي وقد قدم من الرياض، والشيخ محمد السيد الوكيل وقد قدم من المدينة، وبعض الإخوة من مشايخ السعودية وغيرهم. وكنا نقوم بإلقاء محاضرات، لتوعية الحجيج، في خيم كبيرة، وخصوصا في أيام منى.

وكان بيني وبين الإخوة من مشايخ السعودية جدل لا ينقطع حول بعض مسائل الحج، فأنا من دعاة التيسير عموما، وفي مسائل الحج خصوصا، ولا سيما في هذه السنين التي يشتد فيها الزحام في موسم الحج، حتى ليبلغ الحجاج مليونين أو أكثر في بعض السنين. وهذا يقتضي منا التيسير على عباد الله، ورفع الحرج عنهم. فما جعل الله في هذا الدين من حرج، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عن أمور كثيرة مما يتصل بالحج، فما سئل عن أمر قدم ولا أخر، إلا قال: افعل، ولا حرج.

وهذا الزحام الهائل هو الذي حفز الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله: أن يتنازل هو ومن حوله عن الحج في أحد الأعوام، مخالفة سنة من سبقوه، ليؤثر الحجاج الوافدين، وليكون قدوة لغيره من أهل المملكة.

وكان من أهم النقاط التي احتد فيها الجدل: مسألة الرمي قبل الزوال، وأنا أفتي بمشروعيته، وقد أفتى بذلك من فقهاء التابعين عطاء وطاووس، كما أفتى بذلك أبو جعفر الباقر من أئمة آل البيت. وأفتى بذلك بعض علماء الشافعية المتأخرين. وأفتى به من المعاصرين الشيخ عبد الله بن زيد المحمود في قطر، والشيخ مصطفى الزرقا في سورية.

وهذا ما دفعني أخيرا أن أخرج كتابا حول الحج بعنوان (مائة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية) ضمنته ما أراه من رخص

وتيسيرات في أمر الحج، مثل النفرة من عرفة قبل الغروب، كما هو مذهب الشافعية، والبقاء في مزدلفة بمقدار الصلاة والتقاط الحصى، ورمي جمرة العقبة من بعد منتصف ليلة العيد، وعدم المبيت بمنى لمن يشق عليه ذلك، ورمي الجمار قبل الزوال في الأيام كلها.

وهو ما أصبح كثيرون من العلماء يميلون إليه ويفتون به، ممكن كانوا يعارضونه. وإنما ألجأهم إليه ما لمسوه من ضرورات الناس وحاجاتهم. والضرورات تبيح المحظورات، فكيف بأمور أجازها بعض الفقهاء في غير ضرورة ولا حاجة؟!

نهاية السنة الدراسية 73، 74م:

انتهت السنة الدراسية1973-1974م، وامتحنا طلاب كلية التربية وفق الفلسفة التعليمية الجديدة، لا سرية ولا كنترول، ولا شيء من ذلك. فالامتحانات مستمرة طوال السنة في فصليها الدراسيين، هناك امتحانات سنوية، وامتحانات تحريرية، وتكليف ببحوث ينجزها الطلاب بأنفسهم، وإن كنت لاحظت أن بعض الطلاب يستعينون بآخرين يكتبون لهم البحوث من ألفها إلى يائها، وكثيرا ما يعرف هذا بسؤال الطالب في بعض ما كتب في بحثه، فإذا هو لا يعرف عنه شيئا، كمثل الحمار يحمل أسفارا!!

ومن الطرائف أن الدكتور إبراهيم كاظم عميد الكلية، كان يقول في اجتماعاته مع الأساتذة: إن الامتحان لا يخصص له وقت معين، إنما يكون في المحاضرة الأخيرة، يقصد في وقت المحاضرة الأخيرة.

ولكن زميلي في قسم الدراسات الإسلامية الدكتور أحمد سكّر، فهم أن الامتحان في آخر محاضرة فقط، يعني: أن الطلبة لا يمتحنون ولا يسألون في كل ما أخذوه، مدة الفصل الدراسي، ولكن في المحاضرة الأخيرة، وأبلغ الطلبة ذلك، ووضع الأسئلة على هذا الأساس، وأخذ جميع الطلبة درجة (أ) أي امتياز!!

وفي هذا العام حصلت ابنتاي (إلهام) و(سهام) على الشهادة الإعدادية، وتهيئتا لدخول المرحلة الثانوية، وانتقلت (علا) إلى السنة الثانية الإعدادية، أما أسماء فلا تزال في المرحلة الابتدائية، وأما محمد فقد نجح في السنة الأولى الابتدائية، وكانت ترتيبه الأول، وقد أدخلته مدرسة أبي بكر الصديق، بجوار المعهد الديني.

العام الدراسي 74، 75:

بعد أن قضينا الإجازة الصيفية في مصر، واستمتعنا برؤية الأهل والأقارب والأحباب، وودعنا (أم الدنيا) كما يسمونها، وعدنا إلى قطر، وقد بتنا نحِن إلى قطر، ونشتاق إليها، فقد أصبحت لنا وطنا ثانيا، وكيف لا، وقد ولد فيها خمسة من أولادي؟ واثنتان من بناتي، قدمتا إلى قطر، وإحداهما لم تكمل السنة، والأخرى لم تكمل السنتين.

والإنسان بطبيعته المدنية والاجتماعية يألف المكان وأهله، كما يألفه المكان وأهله، والمرء المؤمن تقوم بينه وبين البيئة من حوله ألفة وصلة ودودة، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد: "هذا أحد جبل يحبنا ونحبه!" فانظر كيف عبر عن الجبل أنه يحبهم، كأن له قلبا تصدر عنه مشاعر الود، وعواطف الحب كالإنسان! وقد عدنا إلى قطر قبل أن تنتهي الإجازة تماما لأتهيأ لرحلة مهمة إلى

بلاد الشرق الأقصى. وهي بلاد سأزورها لأول مرة، فما أشوقني إلى رؤيتها والتعرف عليها!

زيارة الشرق الأقصى:

قبل أن تنتهي الإجازة الصيفية، وفي الشهر الثامن أغسطس سنة 1974م قمت بأول زيارة لبلاد الشرق الأقصى: ماليزيا، وأندونيسيا، وسنغافورة، وهونج كونج، والفلبين، وكوريا الجنوبية، واليابان. وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي ثلاثة أسابيع من (8/23 إلى 9/12) من هذه السنة. كما هو مسجل في جواز سفري القطري الذي سافرت به.

كانت الزيارة بتكليف من الشيخ خليفة أمير البلاد حفظه الله، وكان ذلك بطلب من المسلمين في جنوب الفلبين أن نزورهم، ونزور معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، فقام وفد من قطر مكون من فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري، ويوسف القرضاوي، والأستاذ سيد أبو يوسف موجه اللغة الإنجليزية مترجما لنا، أمر الشيخ خليفة لكل منا بخمسة آلاف ريال للإنفاق منها على الإقامة والمعيشة.

والحق أنها كانت رحلة نافعة وممتعة من وجوه عدة، فهذه أول مرة يتاح لي أن أزور تلك الديار، وفيها بلاد إسلامية مثل ماليزيا وأندونيسيا، وبلاد فيها أقلية إسلامية كبيرة وأصيلة مثل الفلبين، وبلاد فيها أقليات إسلامية حديثة مثل كوريا واليابان.

وقد قال الأقدمون: الرفيق قبل الطريق، وكان رفيقاي في هذه الرحلة الطويلة: الشيخ الأنصاري والأستاذ أبو يوسف، وهما نعم الرفيقان.

فلقد عرفت الشيخ الأنصاري من قبل، وازددت معرفة به في هذه الرحلة الطويلة، فقد قيل: إنما سمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ومن لم تستطع أن تعرفه وتسبر أغواره في الحضر، أمكنك أن تعرفه في السفر، والشيخ الأنصاري رحمه الله كان رجلا سمحا سهلا كريما رقيقا رفيقا، ييسر ولا يعسر، ويبشر ولا ينفر، ويجود ولا يبخل، ولا تصدر منه كلمة تجرح شعور صاحبه، ولا تصرف يؤذيه.

كذلك كان رفيقنا الأستاذ سيد أبو يوسف، فهو رجل حيي كريم مستقيم في قوله وفعله، نقي في ظاهرة وباطنه، ليس مهذارا ولا ثرثارا، ولكن يتكلم بحساب، ويتصرف بحكمة، (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) البقرة: .

ومن نعمة الله على المرء في سفر كهذا: أن يرزق بمثل هذه الرفقة الطيبة.

المبيت في كراتشي:

كانت أول محطة نزلنا بها هي كراتشي، فقد بتنا بها، واستقبلنا هناك سفير قطر في باكستان: الأستاذ مبارك الكواري، وقد صحبنا إلى بعض المحلات لنشتري منها بعض التحف والهدايا، وفعلا اشترينا بعض الأشياء، ورآها معنا بعض الإخوة الباكستانيين، فقالوا: إنكم اشتريتموها بضعف ثمنها أو أكثر، ولو نزلتم (السوق) لو جدتموها رخيصة جدا، فتعلمنا أن لا نمشي مع (السفراء) في قضية الشراء، لأنهم يشترون من المحلات (الفاخرة) والأولى أن نذهب مع أهل البلد، فأهل مكة أدرى بشعابها وأسواقها.

وتكفلت السفارة: أن تبعث الأشياء التي اشتريناها إلى الدوحة، فليس معقولا أن نحملها معنا طوال هذه الرحلة، وجلها أشياء خشبية ثقيلة.

ساعات في مطار بانكوك:

ومن كراتشي امتطينا طائرة أوصلتنا إلى مطار (بانكوك) عاصمة (تايلاند) وهو بعيد عن المدينة، ولذا لم نفكر في النزول إلى المدينة، رغم أننا ظللنا أكثر من أربع ساعات.

وظللنا نتجول في المطار، وكان مطارا متواضعا –ولم يكن بفخامة مطار بانكوك الحالي- ورأينا فيه بعض الهدايا التي يمكن أن تشترى، وقد اشتريت منها فصا من الأحجار الكريمة يسمى (عين القط) أهديته بعد العودة لزوجتي.

وصلينا الظهر والعصر في المطار قصرا وجمعا، ثم ركبنا الطائرة الماليزية، لتوصلنا إلى (كوالا لامبور) عاصمة ماليزيا.

في ماليزيا:

وجدنا (كوالالامبور) مدينة فخمة، فيها بنايات شاهقة، وشوارع نظيفة وواسعة، وأسواقا على الطراز الأوروبي، وبنوكا وفنادق وغيرها من مظاهر الحضارة والمدنية، ولكن فهمنا من مرافقنا من الماليزيين: أن هذه العمارات والمتاجر الكبرى والمصارف والفنادق والمطاعم والأماكن السياحية وغيرها، أكثر من ثمانين في المائة منها يملكها الصينيون والهندوس، والعنصر الملاوي

(المسلم) الذي هو أصل هذه البلاد وصاحبها لا يملك إلا أقل من عشرين في المائة.

كانت هذه البلاد تعرف قديما باسم بلاد (الملايو) والأصل في أهلها: أنهم مسلمون سنيون، على مذهب الإمام الشافعي، وكان لنا زملاء في الأزهر الشريف من الملايو، وهذه البلاد لم يدخلها جيش مسلم، ولا وصلتها الفتوحات الإسلامية المعروفة تاريخيا، وإنما دخلها الإسلام عن طريق التجار الذين جاءوا من اليمن، وخصوصا من حضرموت والجنوب، يبيعون ما لديهم من بضائع، ويشترون ما عند القوم من سلع تتميز بها بلادهم، وكان هؤلاء التجار أمثلة حسنة لأخلاق الإسلام، وأدب المسلم، في تعامله مع الله، وتعامله مع الناس، فرأى الناس فيهم الطهارة والنظافة والخشوع الله، والمسارعة إلى الصلوات وأوقاتها، مع الالتزام بالصدق في القول، والإحسان في العمل، وحب الخير للناس، والرحمة بالضعفاء، وبذل المعروف، وإغاثة الملهوف، والعدل مع من تحب ومن تكره، وتقديم العون لمن يحتاجه من خلق الله، مسلما أو غير مسلم، لا يريد مكافأة ولا محمدة من أحد (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) الإنسان: رآهم الناس كذلك، فأحبوهم، وسألوهم: من أنتم؟ ومن علمكم هذه الفضائل؟ فقالوا: نحن مسلمون، علمنا الإسلام! قالوا: وكيف نصير مسلمين؟ قالوا: تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وبذلك تدخلون في الإسلام، ثم تؤدون أركان الإسلام الأربعة من الصلاة والزكاة والصيام كل سنة في شهر رمضان، والحج مرة في العمر، وبعد ذلك تحبون للناس ما تحبون لأنفسكم، وتفعلون الخير ما استطعتم، وتتجنبوا الشر ما استطعتم، وبذلك تصبحون مسلمين، لكم ما لنا وعليكم ما علينا..

وبهذه السهولة دخل الناس في دين الله أفواجا، في بلاد الملايو، وفي جاوة وسومطرة وغيرها من الجزر، التي توحدت وسميت بعد باسم (أندونيسيا) فهكذا دخلت (الملايو) في دين الإسلام، وأصبحت عضوا في الأمة الإسلامية، وفي الجسم المسلم.

ولكن الإنجليز حينما احتلوها – في عصر الاستعمار- جلبوا عناصر للعمل من خارج الملايو، معظمهم من الصينيين، وبعضهم من الهندوس، فزاحموا أهل البلاد الأصليين، وظلوا يكثرون ويكثرون حتى قاربت نسبتهم نسبة أهل البلاد الأصليين في العدد، وأخطر من ذلك: أنهم بمهارتهم وتضامنهم، أضحوا يملكون معظم ثروة البلاد بأيديهم، فهم يملكون التجارة والصناعة، وأهل البلاد يشتغلون بزرع المحاصيل التي يشتريها منهم الصينيون. وقد ظلوا مدة من الزمن على جنسيتهم الأصلية من صينية وهندية، ولكن

الإنجليز ضغطوا على تكنو عبد الرحمن رئيس وزراء (الملايو) التي غير اسمها، لتصبح (ماليزيا) فصدر في عهده قراران خطيران:

أولهما: فصل جزيرة سنغافورة عن ماليزيا، لتمسي دولة مستقلة، لتكاثر العنصر الصيني بها.

ثانيهما: منح الجنسية للصينيين والهنود المقيمين في البلاد بعد عشرين سنة، على أن يبقى الجيش والقوات المسلحة في أيدي الماليزيين.

وما أسرع ما مرت العشرون سنة، وحصل الوافدون على الجنسية الماليزية، فاكتسبوا قوة جديدة، بالإضافة إلى قوتهم الاقتصادية والعلمية.

بقينا يومين وبعض يوم في ماليزيا، تعرفنا فيها على أهم معالمها، ولقينا بعض الوزراء، وأحدهم دعانا إلى بيته على غداء، ولا أذكر اسمه، كما لقينا بعض العلماء، وبعض الشخصيات الإسلامية، وممن زرناهم في ذلك الوقت: الشاب الذكي المتحمس الطموح :أنور إبراهيم مؤسس جماعة (الشبيبة المسلمة) في ماليزيا، ويطلق عليها اسم (اييم) وكان خارجا من قريب من السجن، وكان لقاؤنا به طيبا ومثمرا، وكان أساسا لأخوة وصداقة لا تزال ممتدة إلى اليوم، فك الله أسره، ورد كيد خصومه في نحورهم، وأعاذه من شرورهم.

كما زرنا الجامعة الوطنية، وغيرها. ثم ودعنا ماليزيا إلى أندونيسيا.

"الماليزيون مسلمون سنيون، على مذهب الإمام الشافعي، وهذه البلاد تصلها الفتوحات الإسلامية إنما دخلها الإسلام عن طريق التجار الذين جاءوا من اليمن، يبيعون ما لديهم من بضائع، ويشترون ما عند القوم من سلع تتميز بها بلادهم، وكان هؤلاء التجار أمثلة حسنة لأخلاق الإسلام، وأدب المسلم، في تعامله مع الله، وتعامله مع الناس، "

إلى أندونيسيا:

وبعد ماليزيا استقللنا الطائرة الأندونيسية إلى جاكرتا عاصمة أندونيسيا، أكبر دولة إسلامية في العالم، والمسافة قريبة، بين جاكرتا وكولالامبور.

غارة تنصيرية على أندونيسيا:

ومما أذكره: أننا سألنا المضيّفة التي تخدمنا في الطائرة وهي أندونيسية: هل أنت مسلمة؟ قالت: لا، ولكن عائلتي مسلمة! فقلنا في أنفسنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، معنى ما تقوله هذه الفتاة: أن التنصير أخرجها من دينها، وسلخها من أسرتها.

وكان معنا مضيّف رجل، فسألناه نفس السؤال: أأنت مسلم؟ فقال: لا، ولكني متزوج مسلمة!

وهذا زواج باطل في نظر الإسلام، فإن المسلمة لا يجوز ابتداء: أن تتزوج غير مسلم، ولو كان كتابيا لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن.

وكان قد زارنا في قطر: الأخ عز الدين بليق، صاحب (دار الفتح) للنشر في لبنان، وحدثنا عن الأخطار التي تواجهها إندونيسيا ـ التي زارها من قريب ـ من قبل التنصير الأوروبي والأمريكي، الذي أجلب بخيله ورجله، على أندونيسيا، أكبر بلد إسلامي الآن في العالم، بعد انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، وهم يضعون الخطط لتنصير أندونيسيا وتغيير هويتها، وتغليب المسيحيين فيها على المسلمين في (خمسين سنة) ووفروا لذلك ميزانيات هائلة، وقرروا قرارات بعضها معلن، وبعضها مكتوم،

لمسلمون عن ذلك غافلون،لذا ألف أخونا عز الدين كتابا بعنوان (أنقذوا أندونيسيا يا مسلمون)!

وكان للإرساليات التبشيرية – أو التنصيرية- الغربية أكثر من خمسين مطارا في أندونيسيا، فالمسلمون من أهل البلاد يتنقلون بين الجزر بالقوارب، والمنصرون ينتقلون بالطائرات، فمن المعلوم أن أندونيسيا تتكون من ألوف الجزر، بعضها كبير وبعضها صغير.

ولاحظنا أنهم نجحوا في تحويل بعض المسلمين والمسلمات إلى دينهم بالفعل، في حين لا يطمعون في البلاد العربية، التي قنعوا فيها بزعزعة إيمان المسلم بدينه، وتشكيكه في مسلماته العقدية، وإن لم يدخل في النصرانية.

كان الذي استقبلنا في المطار، ورحب بنا هو: المسلم الكبير الدكتور محمد ناصر، رئيس وزراء أندونيسيا الأسبق، ورئيس حزب (ماشومي) السابق، والذي تفرغ الآن هو وعدد من إخوانه ومحبيه وتلاميذه، للعمل الدعوي، والوقوف في وجه تيار التبشير أو التنصير، ومقابلة تخطيطه الماكر الهدام بتخطيط مثله وعلى مستواه في الفكر والوعي، إن لم يمكن أن تكون مثله في الإمكانات المادية الهائلة.

أنشأ د. ناصر (المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية) لإحياء الإيمان في أنفس الشعب الأندونيسي في جاوه وسومطرة وغيرهما من الجزر، والقيام بتوعية إسلامية شاملة، وتثقيف إسلامي مركز، حتى يملك المسلم (مناعة) ذاتية تقيه من التأثر بأي دعوة هدامة، تريد أن تنزعه من ذاته، وتخلعه من هويته.

وبالإمكانات القليلة المحدودة التي لا تساوي شيئا، بالنسبة لما تملكه قوى التنصير: استطاع الدكتور ناصر ومن معه: أن يقفوا في وجه

العاصفة، وأن يشعروا المهاجمين أن خصومة المسلمين مضيعة، وأنها لا يمكن أن تسقط بسهولة.

وقد اجتمعنا مع المجلس الأعلى، وشددنا على أيديهم، ووعدناهم بمد يد المساعدة الممكنة ماديا وأدبيا.

وقلنا: يا سبحان الله، كانت أندونيسيا مستعمرة من هولندا، وكانت أندونيسيا أكثر من خمسين مليونا، وهولندا نحو خمسة ملايين.

ولكن جرى على المسلمين ما جرى، حتى باتت بلادهم في وقت من الأوقات، ترزح تحت نير الاستعمار الغربي، أو الشرقي، ولم ينج من الاستعمار إلا السعودية واليمن.

وقد كان الإسلام – كالعادة - هو المحرك الأول للبلاد الإسلامية كلها لمقاومة الاستعمار، كما هو معلوم لكل مسلم من أمة الإسلام يفرض على أبنائه فرضا عينيا: أن يجاهد مع المجاهدين، لقتال الاستعمار المحتل، حتى يطردوه من دار الإسلام، ومن قتل فيه هذه المعركة فهو شهيد حي عند الله.

وكما هي العادة التي أصبحت وكأنها قانون: نجد أن الإسلاميين يزرعون، والعلمانيين يحصدون، فهم دائما يسرقون الثورات من أهلها، ويرثون وحدهم غنائمها، ويمسي الإسلام غريبا، وهو صاحب الدار!

هذا ما حدث في تركيا، وما حدث في أندونيسيا، وما حدث بعد ذلك في الجزائر، وما حدث في بلاد شتى.

المهم أنا وجدنا النصارى متمكنين من هذا العهد (عهد سوهارتو) بعد أن كان الشيوعيون هم الممكنين في عهد (سوكارنو) فقد

طردوا الشيوعيين ليحل محلهم المنصرون. وقد لقينا بعض المسؤولين، فكان يحدثنا همسا، مخافة أن تكون هناك أجهزة تسجيل وتنصت، ترصد ما يقوله، وتنقله إلى السادة المتحكمين، وهكذا أصبح المسلمون في ديارهم لا يملكون حرية التعبير ولا حق الكلام، وبعضهم يعد من المسؤولين والمشاركين في السلطة، فما بالك بغيرهم؟!

غيبة العلماء عن الوعي بالعصر:

ولم يكن كثير من علماء الدين على المستوى المأمول الذين يواجهون به هذه الحملة الصليبية الغازية إلا قليلا منهم، ممن تفتح أفقه على الدعوات التجديدية والإصلاحية المعاصرة، ومن هؤلاء: الجمعية المحمدية التي لها مدارس ومنشآت كثيرة زرنا بعضها، ومنهم قليل ممن تعرفوا على دعوة الشيخ حسن البنا ممن درسوا في مصر، أو في غيرها من العالم العربي.

ومن عدا هؤلاء كانوا يعيشون في الماضي السحيق، ويقرأون في الكتب الصفراء، ولا يعرفون عن حاضرهم، ولا عن حاضر الأمة شيئا، ولعله لا يحس بما يبيته له دعاة التنصير من مكايد ودواه وحباء، وهو لا يدري.

غياب فقه الأولويات:

وأذكر ما قاله لنا وزير الشؤون الدينية حين قابلته مع الشيخ الأنصاري رحمه الله: أن إحدى القبائل الوثنية الكبرى أرادت الدخول في الإسلام، فاتصل زعماؤها، ببعض كبار مشايخ الدين

في منطقتهم، وعرضوا عليهم رغبتهم في الدخول في دين المسلمين، فماذا يطلب منهم في ذلك؟ فقالوا لهم: مطلوب منكم شيء واحد حتى يكون إسلامكم مقبولا؟

قالوا: وما هو؟

قال المشايخ: أن تختتنوا!!

قال ممثلوا القبيلة: وهل هذا أمر لازم؟

قالو: هو من شعائر الإسلام، والفارق بين المسلم وغير المسلم؟

وهنا قال القوم: نشاور أهلينا في ذلك، وذهبوا ولم يعودوا، خشية من هذه المذبحة الجماعية!

فتصور هذا الفقه الأعوج، الذي يضع العقبات في طريق من يرغب في الإسلام، ولقد دخل الألوف وعشرات الألوف أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، فما رأيناهم اشترطوا على الناس أن يختتنوا، أو يكشفوا على الناس، ليروا من اختتن ومن لم يختتن!

وكما قال الرسول الكريم: بني الإسلام على خمس، لم يكن منها الاختتان!

فانظر يا أخي إلى المنصرين الذي جاءوا من أمريكا وأوروبا واستراليا: كيف يقدمون المغريات للناس ليدخلوهم إلى النصرانية؟ وكيف يضع مشايخنا المعوقات أمام الناس ليصدوهم عن الإسلام؟!

وشيء آخر عرفته من الإخوة هناك، وهو: أني وجدت الكتاب المقدس عند النصارى (العهد القديم والعهد الجديد) في كل حجرة

في الفندق الذي ننزل فيه، ألم يكن الأولى أن نضع لهم مصحفا معه ترجمة، قياما بواجبنا نحو الإسلام؟

فقال لي الإخوة: إن المشايخ لم يجيزوا ذلك؟ لأن المصحف لا يمسه إلا المطهرون، وهؤلاء نجس فلا يجوز لهم مس القرآن!!

زيارة المدرسة الشافعية والطاهرية:

ومن مزايا أندونيسيا: أن فيها مدارس دينية كبيرة تعلم طلابها وطالباتها اللغة العربية، تعلمهم القرآن والتفسير والحديث وعلومه، والعقيدة والفقه، واللغة العربية، وغيرها.

منها: المدرسة الطاهرية، والمدرسة الشافعية، وكل من المدرستين تكاد تكون جامعة، ففيها دراسات من الحضانة إلى المرحلة العالية، وكثير من خريجيها يذهب إلى الأزهر في القاهرة.

وقد حضرنا حفلا في إحدى المدرستين، ألقت فيه التلميذات بصوت مؤثر: النشيد الديني المعروف:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وقد تأثر الشيخ الأنصاري، وتأثرت معه بهذا النشيد، حتى ذرفت أعيننا الدموع.

ومما أذكره: أن أحد العلماء وقف يقدمني، وكان أكثر ما أدهشني: أنه قال: أقدم لكم العالم الجليل، والداعية الكبير.. صاحب كتاب (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر) وقد ترجم إلى الأندونيسيه، كما ترجم الحلال والحرام، والإيمان والحياة. وغيرها.

وعجبت أن الذي أهمه هذا الكتاب الصغير، ولم يقدمني بأني مؤلف (فقه الزكاة) أو غيره من الكتب، وعرفت من ذلك: أن الكتاب الصغير قد يؤثر أحيانا في نفس القارئ ما لا يؤثر فيه الكتاب الكبير.

ومن الطريف: أن جاكرتا فيها منطقة يسكنها يمنيون من قديم لا زالوا يحتفظون بلغتهم العربية، ويتزوجون فيما بينهم، وقد ذهبنا إليهم وتناولنا طعام الفطور عندهم، وكنا كأنما نعيش في قرية بالقرب من تعز أو صنعاء!

إلى سنغافورة:

وأخذنا طريقنا إلى (سنغافورة) وكانت إحدى (المضايق) البحرية التي كان يهيمن عليها المسلمون، مثل (باب المندب) و(جبل طارق) (وخليج) و (البسفور) و(الدردنيل) ويسميه الأتراك (البوغاز) وقد كانت سنغافورة: كما –قلنا- جزءا من بلاد الملايو، وهي بلاد إسلامية، فلما كثر فيها الصينيون، سعوا إلى فصلها عن ماليزيا، ليتخذوا منها دولة نموذجية مستقلة، يقوم اقتصادها على الصناعة والسياحة، وتقوم سياستها على الديمقراطية، وتراعى بشدة: النظافة والنظام والانضباط، ولا تسمح بأي خلل في هذه النواحي.

والمسلمون يكونون فيها أقلية كبيرة، ولها مدارسهم وجوامعهم وجمعياتهم ومؤسساتهم الخاصة، وقد زرنا الجمعية الإسلامية هناك، وقد تعرفنا على عدد من أعضائها وأطلعونا على أنشطتهم، فسررنا بها.

ولليمنيين خاصة جالية مرموقة، وقد صحبونا إلى مدرسة لهم تسمى (مدرسة الجنيد).

إلى الفلبين:

بعد سنغافورة ولينا وجهنا شطر (الفلبين) ونزلنا على عاصمتها (مانيلا) وقضينا فيها يومين، زرنا فيها بعض الجهات والمؤسسات الإسلامية في المدينة، وقابلنا بعض المسؤولين الذين اهتموا بنا وبزيارتنا اهتماما غير عادي، وكان ذلك في عهد الرئيس ماركوس طاغية الفلبين المعروف، وقد عرفوا أنا نقصد الجنوب الذي يسكنه المسلمون، فهيأوا لنا طائرة عسكرية خاصة، تنقلنا إلى أقرب مطار لمدينة (مراوي ستي) إحدى عواصم الجنوب الإسلامي، وهي المقصودة بالزيارة.

وبالفعل ركبنا الطائرة العسكرية ووصلنا إلى المطار، وكان الناس في استقبالنا بأعداد كبيرة، وقد طوقونا بالورود والزهور على عادة أهل تلك البلاد في تكريم الضيوف.

ووصلنا إلى (مراوي ستي) لنجد المدينة، وكأنما خرجت عن بكرة أبيها تستقبلنا، فالمسلمون هناك يحسون باليتم والضياع، حتى يأتيهم ضيف مسلم كبير، فيلتفوا حوله، وكأنما يقولون لخصومهم: نحن لسنا وحدنا، نحن جزء من أمة كبرى، تملأ الأرض من المحيط إلى المحيط!

كان المسلمون حكام الفلبين من قبل:

كان المسلمون في الفلبين هم أول من وجّه لنا الدعوة لنقوم بهذه الزيارة، فهم المقصودون أولا وبالذات، ولذا وجب أن نبقى معهم أطول مدة ممكنة، لنتعرف على أحوالهم، وأوضاعهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، ونجتهد أن نساهم ما أمكننا في حلها.

وكان المسلمون قديما هم الذين يحكمون هذه البلاد، حتى جاء الأسبان، بما يملكون من عتاد حديث، وأسلحة غير الأسلحة التقليدية، التي في أيدي المسلمين، ووقعت الحرب بين الفريقين، وانتهت إلى أن لاذ المسلمون بالجنوب واستقروا فيه، وأصبحت لهم الغلبة عليه، والتمكن في أرضه، والأسبان هم الذي أطلقوا على هذه البلاد اسم (الفلبين) نسبة إلى فليب أحد ملوكهم، ولم يكن هذا اسمها التاريخي.

وقد وقعت بين المسلمين وبين (ماجلان) الرحالة الاستعماري المعروف معركة قتل فيها (ماجلان).

المسلمون والدولة المركزية في مانيلا:

وفي العصر الحديث أرادت الدولة المركزية في (مانيلا) أن تخضع المسلمين في الجنوب لها، ورفض المسلمون أن يدينوا لها بالولاء والطاعة، لأنهم لا يعتبرون أنفسهم جزءا من الدولة، ولا يجوز للمسلم أن يذعن لغير المسلم، والله تعالى يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) النساء: .

أصدرت الدولة في منتصف القرن الماضي قانونا يفرض على كل مالك أرض أن يسجلها رسميا، وإلا اعتبرت أرضا لا مالك لها،

فيجوز للدولة أن تأخذها وأن تعطيها للآخرين. ورفض المسلمون هذا القانون، وانتهزت الدولة المركزية الفرصة لتهجر من نصارى المناطق الأخرى من يستولي على هذه الأرض بقوة السلاح، ومعه قوة الشرطة، وقوة القانون.

وهذا ما دعا المسلمين في تلك المناطق أن يحملوا السلاح ليدافعوا عن أملاكهم ووجودهم وأرضهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وزاد الطين بلة: أن المسلمين رفضوا أن يدخلوا مدارس الدولة، وأن يتعلموا في جامعاتها، إلا قليلا منهم، فترتب على ذلك أن أصبح المسلمون لا يعملون في دوائر الحكومة المختلفة، لأنهم لا يملكون مؤهلات أي عمل في الحكومة.

وأصبح للمسلمين تعليمهم الخاص، الذي تقوم عليه المدارس والمعاهد العربية الكثيرة في الجنوب الإسلامي، وهي مدارس تعلم طلابها وطالباتها: العلوم الشرعية والعربية، على الطريقة التقليدية القديمة، التي هجرها الأزهر وغيره من المعاهد الدينية، واختاروا طرقا أيسر منها وأقرب في تعلم النحو والصرف والبلاغة، وغيرها من العلوم.

ولا يتعلم هؤلاء اللغة الإنجليزية وهي ضرورية للناس في هذا البلد، كما لا يتعلمون العلوم الطبيعية والرياضية، فلا يعرفون شيئا عن الفيزياء والكيمياء والأحياء، والهندسة والجبر وغيرها، كما لا يدرسون شيئا عن الجغرافيا أو التاريخ.

إن هذه المدارس – وهي بالعشرات بل بالمئات - بمناهجها وكتبها ومدرسيها، تعيش خارج العصر، وكأنما هم أهل الكهف، حين خرجوا من نومهم، فوجدوا دنيا غير الدنيا، ولكن هؤلاء لم ينهضوا من نومهم، ولم يخرجوا من كهفهم بعد!

هذا هو واقع القوم الذين ذهبنا إليهم، والذين دعونا إلى زيارتهم، وقد نزلنا ضيوفا على محافظ المدينة، فقد كان القوم حريصين على أن نظل تحت أعينهم، خوفا من أن نتصل بالمجاهدين الذين يقضون مضاجعهم، والذين يطالبون بحكم فدرالي، يستقلون به في هذه المنطقة.

المدارس العربية في جنوب الفلبين:

بدأنا زيارة المدارس العربية، التي احتفت بنا احتفاء لا نظير له، وجلسنا مع مديريها ومع مدرسيها ومدرساتها، وقدمنا لهم من النصائح ما نرى أنه أساس لهم.

وكان من هذه المدارس: ما أسسته جمعية (إقامة الإسلام) التي أسسها الشيخ أحمد بشير رحمه الله، وقد زارنا في قطر وفي المعهد الديني أكثر من مرة.

وكان من نصائحنا لهذه المدارس ورجالها: أن تكون لها رابطة أو اتحاد، يجمع بينها، ينشئ جمعية عمومية، وينتخب مجلس إدارة، يقوم على تهيئة ما يلزمها من طلبات، ويرتب أولوياتها، وتعمل على تطوير مناهجها وكتبها، وإدخال ما هو ضروري من العلوم والمواد الدراسية.

قالوا: إن هذا التطوير يحتاج إلى مبان تصلح له، وهذه ليست عندنا، ويحتاج إلى معلم، ونحن لا نملك هذا المدرس، وتحتاج إلى إدارة تديرها، وهذه ليست عندنا.

فقلنا لهم: إذا اتحدتم، وحددتم مطالبكم، وطلبتم المساعدة من بعض البلاد العربية والإسلامية، يمكنها أن تقدم إليكم العون، ولو بالتدريج.

كان أهل الخير في قطر يثقون بالشيخ الأنصاري، ويدفعون له مبالغ عند زيارته لبلاد المسلمين، يفوضونه في إنفاقها، وكان الشيخ كلما زرنا مدرسة دفع إليها مبلغا، وكلما عرفت المدارس الأخرى ذلك، تزاحموا على الشيخ يريدون نصيبهم من هذا الخير الذي ساقه الله إليهم، وقد ظهر عدد من المدارس لا حصر له، وخصوصا الصغيرة منها، وقلت للشيخ رحمه الله: هذا أمر لا نهاية له بهذه الطريقة، لا بد أن نكلف من ثقاتهم المأمونين العارفين بقيمة هذه المدارس ومدى عطائها، ومدى حاجتها، ونعطيهم المبالغ، ونكلفهم صرفها على مستحقيها بما يرون، والعهدة عليهم، وهم أعلم بقومهم منا.

جامعة مندناو:

وكان أبرز مؤسسة في مدينة (مراوي) هي (جامعة مَنْدِناو) التي يفترض أن يكون للمسلمين فيها نصيب الأسد، باعتبارها في منطقة إسلامية، ولكن المسلمين – كما ذكرنا- لا يتعلمون في المدارس الحكومية –الابتدائية والإعدادية والثانوية- التي تؤهلهم للقبول في هذه الجامعة، لذا لم ينالوا حظهم منها كما ينبغي، وفي هذه الجامعة: معهد الملك فيصل للدراسات الإسلامية، وقد دعيت لإلقاء محاضرة فيه، قام بعض الإخوة المصريين الذين يعملون هناك بترجمتها، وكان لها وقع حسن في نفوس الأساتذة والطلاب.

وقد كرمتنا الجامعة وأعطتنا شهادات تقدير للشيخ الأنصاري، والأستاذ سيد أبو سيف، ولي.

أحمد ألونتو:

كما زرنا جمعية (أنصار الإسلام) التي أسسها الزعيم المسلم الفلبيني (أحمد ألونتو) الذي كان عضوا لمجلس الشيوخ هناك، وكان صديقا للدكتور إبراهيم كاظم عميد كلية التربية، والذي حصل فيما بعد على جائزة الملك فيصل في خدمة الإسلام.

وقد أنشأ (ألونتو) جامعة سماها (الجامعة الإسلامية) وقد زرناها مع الشيخ الأنصاري، ودعيت لإلقاء محاضرة فيها على طلابها.

وظللت طوال هذه الأيام في جنوب الفلبين أتحدث في كل مدرسة نذهب إليها، وكنا معنا أكثر من مترجم، يتناوبون واحدا بعد الآخر، حتى تعب المترجمون، وبحت أصواتهم، وأحمد الله أن بقيت سليما لم يصبني شي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إلى كوريا الجنوبية:

ومن جنوب الفلبين، نقلتنا الطائرة العسكرية إلى مانيلا لنبيت فيها ليلة، اشترينا فيها بعض التحف الخشبية الفلبينية، وبعض اللوحات المزينة بصدف البحر، ثم غادرنا (مانيلا) إلى مدينة (سؤول) عاصمة كوريا الجنوبية، ونزلنا في فندق (هَيَاتْ)، ولما سألناهم عن معنى هذا الاسم، قالوا: لا نعرف له معنى، لأنه من غير لغتنا، قلنا لهم: إن أصله عربي، وهو (حياة) ومن الطريف: أن بعض الفنادق في البلاد العربية نقلت هذا الاسم، وتسمت به منطوقا كما هو بالهاء لا بالحاء، ولما سألناهم، قالوا: هذا اسم لا نعرف أصله، فقد جاءنا من بلاد الشرق الأقصى!!

كان همنا في زيارة كوريا هو: زيارة جامع كوريا ومركزها الإسلامي، الذي ساهمت دولة قطر في إنشائه، وغدا محور النشاط الإسلامي.

وكوريا بلد بوذي، لكن دخله الإسلام بعد الحرب العالمية الثانية، حين وقعت الحرب بين الكوريتين، وأرسلت بعض البلاد جنودا من جيوشها لحماية كوريا الجنوبية من خطر الزحف الشيوعي، الذي تمتلكه كوريا الشمالية.

وكان من البلاد التي شاركت بجنودها هناك: تركيا، وكان في الجيش التركي: جنود مسلمون ملتزمون بأداء الصلاة في أوقاتها، وكان الكوريون ينظرون إليهم، وهم يؤدون الصلوات كل يوم خمس مرات بانتظام، وكثيرا ما يصلونها جماعة بأذان وإقامة، ثم يقفون صفا متراصا خلف إمامهم، وكان هؤلاء الجنود في غاية النظافة والاستقامة في القول والعمل والأدب مع الناس، فسألهم الناس عن هذا العمل الذي يلتزمون كل يوم، فقالوا: هذه صلاتنا نحن المسلمين فرضها الله علينا خمس مرات في اليوم والليل، لتكون صلة بين المرء وربه.

وسألوهم عن الإسلام، فشرحوه لهم بإيجاز: إنه إيمان بالله الواحد، وبدار يجزى فيها الناس بعد الموت، ثم عمل الصالحات، وفعل الخيرات، فأعجب كثيرون بهذا الدين، وأعلنوا انهم مسلمون، وتكاثروا يوما بعد يوم، حتى أمسوا نحو عشرين ألفا في ذلك الوقت.

وكان من هؤلاء: المسلم الغيور النشيط (الحاج صبري) الذي سافر إلى البلاد العربية، ليعرّف بمسلمين كوريا، ويلتمس لهم المعونة، وخصوصا لإقامة مسجدهم ومركزهم الإسلامي.

وقد التقينا بعدد من المسلمين الجدد، والقائمين على النشاط هناك، وألقينا بعض الدروس في المسجد، وزرنا قرية لهم أسلم أهلها، وأقاموا مدرسة لتعليم أطفالهم بجوارهم.

وأخذونا إلى المناطق الجبلية والمتميزة التي يرتادها السائحون، لنأخذ حظنا منها، وزرنا جامعة كوريا، وألقيت فيها محاضرة على طلاب قسم اللغة العربية، وقد أهدي كل عضو في الوفد القطري فصا من الحجر الكريم التي تمتاز به كوريا، وهو حجر (التوباس).

كما اشترينا بعض الحرير الطبيعي الذي تشتهر به كوريا.

إلى اليابان:

ومن سؤول في كوريا، استقللنا الطائرة إلى طوكيو عاصمة اليابان، هذه الدولة التي هزمت في الحرب العالمية الثانية، وألقت عليها أمريكا قنبلتين ذريتين على مدينتين من مدنها: هروشيما وناجازاكي، وقتلت عشرات الألوف، وتركت آثارها الضارة على آخرين أضعاف من قتلوا، ولكن اليابان التي هزمت في الحرب: انتصرت بعد ذلك في ميدان آخر هو: ميدان الصناعة والتكنولوجيا.

فأضحت منتجاتها تغزو أسواق أمريكا وأوربا، وأصبحت تملك اقتصادا قويا ينافس – إن لم يفق- أعظم اقتصادات العالم.

لقد بدأت اليابان نهضتها العلمية والصناعية تقريبا مع مصر، في عهد محمد علي، وإن شئت الدقة قلت: إن مصر سبقتها بقليل، فانظر أين مصر اليوم، وأين اليابان؟ وهل هناك وجه للشبه أو المقارنة؟ نزلت في فندق غاية في الفخامة، وفيما يقدم من خدمات

متطورة، ولكنه غال جدا، والحياة في اليابان تكوي السائحين كيا، لشدة غلائها، أحسبها أغلى بلد في العالم.

لذا لم نبق فيها كثيرا، وبخاصة أن رحلتنا طالت، فاتصلنا بالمركز الإسلامي، وجاءنا الأخ الكريم والصديق العزيز الدكتور صالح السامرائي، الذي عاش في اليابان مدة طويلة، وحصل على الدكتوراه منها، وهو الآن مدير المركز الإسلامي بها.

زرنا المركز الإسلامي، ورتب لنا لقاء مع المسلمين في طوكيو، حيث تعشينا معهم، ثم تحدثنا إليهم، ثم وجهوا إلينا أسئلتهم، وأجبناهم عنها، وكان ممن لقيناه: الدكتور علي السمني، استاذ اللغة العربية وهو من مصر ويقيم في اليابان من فترة طويلة.

وزرنا المسجد الذي بناه الأتراك، الذين هاجروا قديما من تركيا، وزرنا بعض البلاد الأخرى، التي نسيت اسمها بطول الزمن، وكان فيها الأخ المسلم الياباني د.خالد كيبا.

ودعانا بعض الإخوة اليابانيين للغداء عنده، فرأينا بيوتهم المتواضعة، والصغيرة والبسيطة، في بنائها وفي أثاثها ومحتوياتها، والتي ينتفعون فيها بكل جزء من المنزل، وكل شبر فيه، وترى الحجرة تستخدم للجلوس، فإذا جاء وقت الطعام تحولت بسهولة إلى حجرة طعام، وبقليل من التحوير تنقلب إلى حجرة نوم، وقد هيأ لنا إخواننا زيارة بعض الأماكن السياحية، فهكذا يحاول إخواننا في كل بلد أن يوفروا لنا حظا من ذلك، وإن قل، ترويحا لنا من عناء السفر، ومتاعب اللقاء والكلام المستمر في كل مكان ننزله، وهو شعور مشكور منهم، وجزاهم الله خيرا.

كما هيأوا لنا زيارة لبعض المتاجر الكبرى التي كان فيها تنزيلات، لنشتري بعض ما يلزمنا، وخصوصا من (اللؤلؤ الياباني) الشهير،

فاشترينا نحن الثلاثة: الشيخ الأنصاري وأبو يوسف وأنا: ما رأيناه مطلوبا لنا، ويروق أسرنا، فالمفروض بعد هذه الغيبة أن يعود كل منا إلى أهل بيته بما يسرهم، وهذا من أدب المسلم مع أهله.

إلى هونج كونج:

ثم بدأنا طريق العودة، لنزور مدينة (هونج كونج) الشهيرة، وهي آخر محطة لنا في رحلتنا، وقد أخرناها، لنخفف من طول الطريق في العودة.

وهونج كونج – كما هو معلوم- مدينة صينية يديرها الإنجليز، وقد جعلوا منها قلعة صناعية وتجارية تنافس أعظم مدن العالم، وعواصمه التجارية.

والإسلام قد دخل الصين من القرن الأول الهجري، فلا غرابة أن يكون في هذه الجزيرة مسلمون، على أن من المسلمين فيها مهاجرين جاؤوا من بلاد شتى، وكان فيها – على ما أذكر مسجدان- زرناهما كليهما وتحدثنا فيهما، وهم يحاولون أن يبنوا مسجدا كبيرا في منطقة حية من المدينة.

وكان فيها قنصل مصري نشيط، سهل لنا كثيرا مما نحتاج إليه، وقد دعانا إلى بيته، وأكرم وفادتنا، ولما جاء وقت الصلاة أردنا أن نصلي، فجاء بسجادة وفرشها لنا متجهة إلى القبلة، وبعد أن بدأنا الصلاة، رأتنا زوجته، فقالت: إن القبلة على عكس ما تصلون، وخجل الرجل خجلا شديدا، وقال الشيخ الأنصاري: يا سبحان الله، رجل مسلم لا يعرف أين القبلة في بيته؟! معنى هذا: أن الرجل لم يصل يوما في هذا البيت، وتعرف القبلة امرأته! بارك الله فيها، وهداه الله!

وزرنا مدرسة إسلامية لهم، وتعرفنا بأحد الإخوة المسلمين، وهو الأخ: يوسف يو.

ثم ودعنا (هونج كونج) لنركب الطائرة، في طريق العودة إلى الدوحة عن طريق كراتشي، ودعونا بأدعية السفر ووصلنا الدوحة في أمان الله والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

توديع المعهد والتفرغ لكليتي التربية:

ظللت في السنة الدراسية (73-74) محتفظا بوظيفتي في إدارة المعهد الديني، جامعا بينها وبين عملي في كلية التربية، مع ما يكلفني هذا من جُهد وجَهد، فقد كان المعهد جزءا مني، وأنا جزء منه، وكان عزيزا علي أن أودعه وأتركه بعد اثني عشر عاما قضيتها في إرساء دعائمه، وإعلاء بنيانه، وكان إخواني في المعهد يرغبون أن أبقى معهم لمصلحة المعهد و طلابه، والاحتفاظ بما كسب من سمعة طيبة.

والحمد لله، وفقني الله أن أودي لكل عمل منهما حقه، ولكن كان هذا على حساب صحتي من ناحية، وأمور أخرى مثل الكتابة والبحث، ولذا استخرت الله تعالى، وتوكلت عليه، وقررت في هذه السنة (74، 75) أن أدع المعهد لأحد إخواني يقوم على إدارته، ورشحت لذلك الأخ الكريم العالم الداعية الشيخ علي محمد جماز، المدرس بالمعهد رحمه الله، ووافقت الإدارة على ذلك، وقام بواجبه خير قيام، ولا سيما أن هناك من الزملاء الأفاضل من يعاونه، مثل الشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ مصباح محمد عبده، والأستاذ رشدي المصري وآخرين.

ولم يمنعني هذا أن أزور المعهد بين حين وآخر، للاطمئنان على سير العمل فيه، أو إلقاء محاضرة، أو المشاركة في مناسبة معينة أو نحو ذلك.

عدت إلى كلية التربية – أو كليتي التربية- وقد زادت سنة، فأصبح الطلاب والطالبات الذين نجحوا فيها في السنة الثانية، وإن كان نظام الكلية لا يحسب بالسنوات، ولكنه يحسب بالساعات المكتسبة. وكان على الطالب أن يكتسب 144 ساعة في مدة دراسته، وهي في الغالب موزعة على ثمانية فصول دراسية، كل فصل 18 ساعة، ومن شعر بصعوبة هذا المقدار من الساعات عليه، يمكنه أن يأخذ أقل، ويقضي بالجامعة مدة أطول، ومن أراد أن يأخذ أكثر فلا يسمح له، إلا إذا عرف أستاذه أو مرشده الأكاديمي، أن لديه استعداد لذلك، وأن درجاته في الفصول السابقة تشهد له بذلك.

زاد عدد الطلاب والطالبات، كما زاد عدد أعضاء هيئة التدريس، وفي قسم الدراسات الإسلامية ضم إلينا الأخ الصديق، والزميل الكريم الدكتور محمد عبد الستار نصار المعار من كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، والمتخصص في العقيدة والفلسفة، فأصبحنا ثلاثة في قسم الدراسات الإسلامية بدل اثنين.

الخطابة في مسجد أبي بكر الصديق:

كنت في السنوات الماضية، أخطب الجمعة في بعض المساجد، بصفة غير منتظمة،

خطبت فترة في مسجد الشيخ خليفة، وفترة أخرى في مسجد بنّه الدرويش، وفي مساجد متفرقة خطبا متنوعة، ثم شرعت رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية المسؤولة عن المساجد، إنشاء

جوامع كبيرة تتسع لعدد كبير من المصلين في صلاة الجمعة، وكان مسجد أبي بكر الصديق هو أول هذه المساجد، وقد طلب مني أن أتطوع بخطبة الجمعة فيه، ورضيت بذلك، والتزمت بخطبة الجمعة فيه، ما دمت في الدوحة، إلا مريضا أو على سفر.

وأنا أؤيد سياسة الجوامع الكبيرة التي تجمع ألوف المصلين فيها كل جمعة، فهذا يتفق مع ما كان عليه سلف الأمة، فالأصل أن يبنى المسجد ليسع أهل البلد جميعا، كما رأينا المسجد النبوي في المدينة قد بني ليسع أهلها في الجمعة، فلما كثر الناس في عهد الصحابة وسعوا المسجد.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر، بنى مسجده في الفسطاط ليسع أهل الفسطاط.

وحين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى مسجده الكبير ليسع أهلها.

وحين بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة بنى فيها الجامع الأزهر ليسع أهلها.

وكانت هذه المدن كلها مستقلة بعضها عن بعض: الفسطاط (مصر القديمة) و(القطائع) والقاهرة، ثم امتد العمران واتسع، ودخل بعضها في بعض، ودخل غيرها، حتى أصبحت القاهرة الكبرى اليوم تشمل مناطق كثيرة كل منها كان يعد مدينة أو قرية منفصلة.

والناس في عصرنا أحوج ما يكونون إلى المساجد الجامعة الواسعة، نظرا للكثافة العالية للسكان، وامتداد المباني إلى أعلى، حتى إن بعض العمارات والأبراج العالية، فيها من السكان ما يقارب سكان قرية قديمة.

المهم أني ظللت أخطب في جامع أبي بكر الصديق، حتى أنشئ مسجد عمر بن الخطاب وكان أرحب منه وأوسع، فطلب مني أن أقوم بالخطبة فيه احتسابا، فلم أملك إلا الترحيب بذلك، وظللت حتى اليوم أخطب في هذا المسجد، وإن كانت كثرة الأسفار والمشاغل، تحرمني من المواظبة على الخطبة فيه. واعتاد تليفزيون قطر أن يذيع هذه الخطبة على الهواء، وأصبح الناس يترقبونها في بقاع شتى، وخصوصا بعد أن تحول تليفزيون قطر إلى قناة فضائية تشاهد في أنحاء كثيرة من العالم، وهذا من فضل الله علينا أن غدت الكلمة الإسلامية الموجهة تسمعها آذان العالم في التو والحال.

السنة الدراسية 1975، 1976إلهام وسهام تختاران شعبة (العلمي) :

بدء السنة الدراسية 1975، 1976، وفيها:

انتقلت كل من إلهام وسهام ابنتَيَّ، إلى الصف الثاني من المرحلة الثانوية، وهو الصف الذي ينقسم فيه الطلبة والطالبات إلى شعبتين: علمي وأدبي، وكلتاهما قد اختارتا شعبة العلمي، وأنا لا أحب أن أضغط على أبنائي ولا بناتي في اختيار توجههم التعليمي، ولا أفرض عليهم ما أحب، كما نجد كثيرا من الآباء – مثل الأطباء- يفرضون على أولادهم أن يرثوا مهمتهم، وربما لم يكن لهم أي ميل لهذه المهنة. فلسفتي أن يختار كل امرئ لنفسه بعد أن نشرح له مزايا كل توجه، وعيوبه إن كان فيه عيوب.

وقد عرضت على ابنتي – مجرد عرض- أن ينوعا في اختيارهما، فتختار واحدة العلمي، والأخرى الأدبي، فقالتا في نفس واحد: يا

أبت إن الأدبي لا يدخله غير البنات الكسلانات! فقلت: وفقكما الله فيما اخترتماه، وجعله خيرا لكما في دينكما ودنياكما.

والحق أن كل بناتي، وكل أبنائي – ما عدا عبد الرحمن- اختاروا العلمي، عبد الرحمن وحده الذي اختار المعهد الديني ليدرس فيه، دون أدنى ضغط مني مع أني كنت تركت المعهد إلى الجامعة، حتى إني في المرحلة الثانوية قلت له: ادخل القسم العلمي في المعهد، ليكون لك أكثر من فرصة للاختيار، فرفض، وأصر على القسم الأدبي، ليدخل بعده مختارا (كلية الشريعة) بجامعة قطر، ويتخرج منها بامتياز ويعين معيدا، فمدرسا مساعدا.

وقد سأله أحد الصحفيين مرة: لماذا شذذت عن إخوتك ولم تدخل العلمي؟ فقال: أنا مشيت على الأصل، هم الذين شذوا وتركوا الأدبي!! يعني بـ (الأصل) أن يسير الولد على سَنن أبيه!

درجة أستاذ:

بعد سنتين في الكلية أحسست بفارق الدرجات في الكادر الجامعي، فدرجة المدرس غير درجة الأستاذ المساعد، وهي غير درجة الأستاذ، وقد كنت عينت بدرجة أستاذ مساعد، ولم أبال بذلك يومها، ثم تبين الفرق بينها وبين درجة الأستاذ، لا في الناحية المادية فحسب، ولكن في القيمة الأدبية.

وكلمت الدكتور كاظما في ذلك، وأن الجامعات السعودية تعطي الدرجات بالأهلية والشهرة العلمية، وليس بالشهادات ولا بالأقدمية، فالشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، والشيخ سيد صقر، والشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ محمد قطب وغيرهم لا يحملون شهادة دكتوراه، ولكنهم

جميعا يعينون في درجة أستاذ، لما تميز به عطاؤهم العلمي. وإذا كانوا محتاجين إلى أبحاث للترقية، فعندي أبحاث جاهزة، وأكثر من المطلوب.

وتجاوب معي الدكتور كاظم، وقال: نزور معا: الشيخ قاسم بن حمد وزير التربية، ونكلمه في هذا الأمر، فكانت استجابة الرجل أسرع مما توقعنا، وقال له: يا دكتور، الشيخ يوسف عندنا شيخ الأساتذة!

وما هي إلا أيام حتى صدر القرار من الشيخ خليفة بن حمد أمير البلاد بتعيني في درجة أستاذ.

د. عبد العظيم الديب في قطر:

وفي هذه السنة (1975م،1976م) أضيف إلى قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية:

الأخ الحبيب، والصديق الوفي، والزميل القديم في معهد طنطا: الدكتور عبد العظيم الديب، الذي حصل على الدكتوراة حديثا من (كلية دار العلوم) عن فقه إمام الحرمين، الذي حقق كتابه الشهير (البرهان) في أصول الفقه، وعكف على تراث الإمام، لخدمته وتحقيقه وإعداده للنشر.

وقد أشرت في الجزء الأول إلى الصلة الوثيقة، التي كانت تربطني بعبد العظيم منذ كان طالبا في المرحلة الابتدائية بمعهد طنطا، وقد فرقت الأيام بيننا حتى التقينا مرة أخرى عند نزولي في سنة 1973 ومناقشتي لرسالة الدكتوراة، وجددنا الذكريات، وأنشدنا قول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن أن لا تلاقيا!

وقد اتفقنا بمجرد الفراغ من رسالته، وإنهاء إجراءاته: أن يقدم أوراقه في أسرع وقت إلى قطر. وهذا ما كان.

ومن الطريف أننا حينما كنا في معهد طنطا كنا نناديه بـ (عبد العزيز الديب) ثم فوجئنا بأنه (عبد العظيم الديب) فعرفت أن الاسم الأول هو الاسم الذي سمته به والدته، وهو كان ينادى به في قريته وبين أصدقائه وإخوانه، والاسم الآخر هو المكتوب في شهادة الميلاد والأوراق الرسمية.

ومنذ جاء عبد العظيم إلى قطر، حمل العبء معي، وكان الساعد الأيمن لي، وقد هضم نظام الساعات المكتسبة، وأصول الإرشاد الأكاديمي، وساهم في تيسير ذلك للطلاب مساهمة فعالة. كما أنه رجل مخلص في تدريسه، يتعب على دروسه، ويعد محاضراته، ويقترب من تلاميذه، ويبتكر في طرائقه، حتى إنه كان يدرس كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) فاخترع له أسئلة على الطريقة الأمريكية، بملء الفراغات، أو الإجابة بعلامة صح أو غلط (بكلمة: نعم أو لا) إلى غير ذلك. ولهذا كان قريبا من الطلبة والطالبات، محببا إليهم، محوطا بعواطفهم، حتى بعد أن يتخرجوا، يظلون على صلة به، وقرب منه، وسؤال دائم عنه. وهذا ما لم أجده إلا عند القليلين من الأساتذة.

فمن الأساتذة من يحبه الطالب، ولا يحترمه، لأنه طيب القلب، دمث الأخلاق، جياش العاطفة، فمثله يحب، ولكن ليس عنده من العلم والموهبة والشخصية ما يجعل الطالب يحترمه.

ومن الأساتذة: من يحترمه الطالب لقوة شخصيته، وسعة علمه، وضبطه لقواعد الدرس، ولكنه لا يحبه، لفظاظته أو كبريائه، أو جلافة طبعه، أو نحو ذلك، مما لا يجذب القلوب إليه.

ومنهم: من لا يحترمه الطالب ولا يحبه، فليس عنده من العلم والشخصية ما يحترمه الطالب ويقدره لأجله، ولا عنده من العاطفة، وحسن المعاملة، وانبساط الشخصية: ما يحببه إلى الطالب.

ومنهم: من يجمع له الطلاب بين التقدير والحب معا، لما وهبه الله من علم، وما منحه من مواهب، وما يبذل من جهود: تفرض على كل من اتصل به أن يقدره ويحترمه، ويعطيه حقه من الإكبار والتقدير، كما أن لديه من الفضائل النفسية، والمكارم الأخلاقية، والسلاسة والعذوبة في الشخصية: ما يجعله يألف ويؤلف، ويُحِب ويُحَب.

وأحسب أن عبد العظيم كان ـ إلى حد كبير ـ مع طلابه من هذا الصنف. ليست هذه شهادة صديق لصديق، وإنما هي شهادة رئيس أو عميد لأستاذ.

على أن شهادة الصديق لصديقه ليست دائما موضع تهمة، فالله تعالى يقول: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) الأنعام: .

ومن الأصدقاء من يجور على صديقه، أو لا يعطيه حقه من الثناء إذا كان أهلا لذلك، حتى لا يتهم بالتحيز، وهو بهذا قد ظلم صديقه، وظلم الحق معا. كما قيل: إن بعض القضاة حكموا على بعض الأمراء ظلما ليشتهروا بالعدل! وقد شاهدت بنفسي بعض الأساتذة، وأنا عميد لكلية الشريعة ظلم ابني، ولم يعطه الدرجة التي يستحقها، حتى لا يقال: إنه جامل ابن العميد!!

اشتغل عبد العظيم بالتحقيق أكثر مما اشتغل بالتأليف. مع أنه قادر على التأليف بمنهجية وجدارة، ولقلمه نفحة أدبية ظاهرة، وله اهتمام بالثقافة العامة، وبالتاريخ الإسلامي خاصة، وله فيه دراسات وكتابات جيدة، نشرت له (الأمة) في سلسلة كتبها الدورية: كتابا منها، حتى إنه كتب قبل ذلك كتابا عن (أبي القاسم الزهراوي) الطبيب الجراح المسلم المعروف. وقلما يعنى المشايخ بمثل هذه الأشياء!

ولكن الذي استغرق وقته هو تحقيق تراث إمام الحرمين الفقهي، الذي أمسى من المختصين به، أو قل: من العاشقين له، فحقق ونشر من تراثه: (البرهان) في أصول الفقه، و(الغياثي) في السياسة الشرعية، و(الدرة المضية) في الخلاف في الحنفية والشافعية. وأخيرا أنجز عمله الكبير، في تحقيق (نهاية المطلب ودراية المذهب) وهو أعظم أعمال إمام الحرمين، وأحد أمهات كتب الشافعية، وقد عكف عليه أكثر من عشرين سنة، وعانى فيه معاناة لمستها بنفسي، وبخاصة أن بعض أجزائه كان من نسخة واحدة، وهو الآن في سبيل نشره، يسر الله له الأمر.

تأسيس أول بنك إسلامي في دبي:

في سنة 1975م أعلن في إمارة دبي عن تأسيس أول (بنك تجاري إسلامي) أي لا يتعامل بالفوائد الربوية أخذا ولا إعطاء، ويلتزم أن يجري معاملاته وفق أحكام الشريعة الإسلامية وقواعدها. إنه (بنك دبي الإسلامي).

كان إعلان ذلك حدثا في التاريخ الاقتصادي للأمة، يعد انتصارا لها في معركة من أخطر المعارك التي يخوضها، لتحرر اقتصادها من

رجس الربا، ومن هيمنة الاقتصاد الرأسمالي بفلسفته وتطبيقاته ـ منذ عصر الاستعمار ـ على جميع مصارفها ومؤسساتها المالية.

ولقد كان إنشاء بنك بلا فائدة حلما، فأصبح اليوم حقيقة!

كان (عبيد الفكر الغربي) كما سميتهم في كتاباتي، وأسرى الاقتصاد الوضعي، يقولون لنا: لا تحلموا ـ مجرد حلم ـ بإقامة بنوك بلا فوائد. فهذا مستحيل. إن الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفائدة عصب البنوك، ومن زعم إقامة بنك بغير فوائد، فهو واهم أو مغرق في الخيال!

وشاء الله أن يتحول الحلم أو الوهم أو الخيال، إلى واقع نشهده بأعيننا، ونلمسه بأيدينا. وكان هذا تطورا محمودا في موقف الأمة من هذه القضايا وأمثالها، وكان هذا تجسيدا للصحوة الإسلامية في ميدان الاقتصاد.

لقد مر فكر الأمة في مواجهة الغرب الذي غزانا وانتصر علينا بأطوار ومراحل:

أ ـ كان هناك طور الاستسلام والتبعية المطلقة، التي قال فيها طه حسين باتباع الحضارة الغربية في خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.. وحكى زكي نجيب محمود عن نفسه: أنه كان يرى في وقت ما: أن نأكل كما يأكل الغربيون، ونلبس كما يلبسون، ونتصرف كما يتصرفون، ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون! وهؤلاء يرون شرعية اتباع نهج الغرب في كل شيء جهرة لا خفية، وصراحة لا ضمنا.

ب ـ وجاءت مرحلة أخف من تلك، وإن كانت أخطر، لأنها تريد أن تأخذ نهج الغرب بعد أن تبرره بفتاوى شرعية، وأسانيد دينية،

تجعل حرامه حلالا، ومنكره معروفا، أي أنهم أرادوا أن يلبسوا الخواجة الأوربي (عمامة) بدل (البرنيطة) حتى يقبل إسلاميا.

وفي هذا ظهرت محاولات للقول بإباحة (الربا) الذي تقوم عليه البنوك، عناوين شتى: منها: أنه غير ربا الجاهلية، ومنها: أن المحرم هو ربا الاستهلاك للنفقة الشخصية، وليس ربا التجارات والإنتاج.

ومنها: أن المحرم هو ربا الأضعاف المضاعفة، ومنها: أن المجتمع أصبح في وضع ضرورة لهذه الفوائد، والضرورات تبيح المحظورات.. وكل هذه المحاولات باءت بالإخفاق، ورد عليها العلماء الراسخون، وكشفوا عن زيفها من أمثال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ أبي زهرة، والاقتصاديين من أمثال د.عيسى عبدة إبراهيم. ود: محمد عبد الله العربي، ود. محمود أبو السعود، ود. أحمد النجار. وآخرين.

جـ ـ وكانت ردود هؤلاء العلماء على المحاولات التبريرية التي تعبر عن هزيمة نفسية: تمثل طورا جديدا، انضم فيه علماء اقتصاديون، لهم وزنهم وثقلهم العلمي، إلى علماء الشرع، ليعلن الجميع: أن (الربا) لا ضرورة إليه، ولا يمكن أن يحرم الله على الناس شيئا يحتاجون إليه، فضلا عن أن يضطروا إليه. وأن من الممكن إقامة بنوك بلا فوائد. ونشروا في ذلك مقالات ورسائل وكتبا، بأكثر من لغة، فقد ساهم إخواننا الباكستانيون والهنود في ذلك مساهمة طيبة.

د ـ ثم جاء طور آخر تعاون فيه: رجال المال والأعمال، مع رجال الشرع، ورجال الاقتصاد الإسلاميين، لينشئوا أول بنك إسلامي، وانفردت إمارة دبي بهذه الفضيلة، وحازت قصب السبق في ذلك، وقد قيل: الفضل للمبدي، وإن أحسن المقتدي.

وكان ممن له الفضل ـ بعد الله تبارك وتعالى ـ في إقامة هذا الصرح الإسلامي: صاحب الهمة العالية، والعزيمة القوية: الحاج سعيد لوتاه، الذي صمم أن يقيم هذا البنك، رغم تخويف المخوفين له، مما وراء ذلك من مخاطر ومجازفات غير مأمونة، ولكنه توكل على الله، ومضى في الطريق (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم). وكان من رجال الاقتصاد الإسلامي الذين أسهموا بدور أساسي في إنشاء هذا البنك هو: الأستاذ الدكتور عيسى عبده إبراهيم، فيجب أن يذكر فيشكر.

وأيد الحاج سعيد افتتاح هذا الصرح بإقامة أول مؤتمر علمي شرعي للبنوك الإسلامية، فدعا كوكبة من علماء الأمة في دبي، ليبحثوا عدة موضوعات، ويصدروا فيها فتاوى بالإجماع أو بالأغلبية، ليعمل البنك بموجبها.

وقد اعتبرني الحاج سعيد لوتاه رئيس مجلس إدارة البنك: مستشارا شرعيا غير متفرغ للبنك، فيما يحتاجون إليه، فكانوا يتصلون بي هاتفيا، أو أذهب إليهم بين الحين والحين، على فترات متباعدة.

وكنت أقوم بهذا العمل محتسبا، دون أي مقابل، فقد كان فرحي بقيام هذه المؤسسة الإسلامية، وإسهامي في إنجاحه أعظم عندي من أي أجر أو مكافأة مادية.

شركة الاستثمار الخليجي:

بدأت فكرة البنوك الإسلامية تتسع، فأنشئ (بنك فيصل الإسلامي) في مصر، و(بنك فيصل الإسلامي) في الخرطوم، وكان يرأس مجلس إدارة كل منهما: الأمير محمد الفيصل آل سعود، الذي تبنى فكرة البنوك الإسلامية، وخدمها ورعاها بماله ونفوذه، ورأى أن

يخلد ذكر أبيه، الملك المحبب لدى جمهور المسلمين (فيصل بن عبد العزيز) بأن ينشئ سلسلة من البنوك الإسلامية تحمل اسمه، فنشأ البنكان في مصر والسودان.

ثم اقتُرح علي الأمير محمد: أن يؤسس في أقطار الخليج العربي: شركة للاستثمار، تجمع فيها أموال من لديه مدخرات يحب أن يستثمرها في الحلال المشروع. فكثير من الناس يجمد أمواله، ولا يستثمرها في حرام. فهذه الشركة فرصة تتيح للناس أن يستثمروا أموالهم وفق صكوك للمضاربة لمدة سنة، أو ثلاث سنوات، ثم يسردونها.

وقامت حملة إعلامية كبيرة لهذه الشركة، ومر الأمير محمد الفيصل ببلاد الخليج: الكويت والبحرين والإمارات، ثم قطر، للدعاية لهذه الشركة الوليدة، وكان معه الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس مجلس الوزراء المصري سابقا، والشيخ محمد خاطر مفتي مصر سابقا، والدكتور إبراهيم كامل أحد رجال المال والأعمال المرموقين، والذي يقيم بجنيف بسويسرا.

وقبل أن يصلوا إلى قطر، اتصلوا بي، وطلبوا مني أن أشد أزرهم في مسيرتهم، فقلت لهم: أنا معكم في وجهتكم في المعركة ضد الربا. فقالوا: نريدك أن تنضم إلينا وتكون أحد المتحدثين الرئيسيين في بلاد الخليج، فوافقت على ذلك.. وأقيمت ندوة حافلة حاشدة في فندق الخليج في قطر، في إحدى القاعات الكبرى، وقد ازدحمت على آخرها. تحدث الأمير والشيخ والدكتور، ثم تحدثت بكلمة قوية شدت الجماهير إليها، ثم بدأ الناس يسألون ويستفسرون، وتجيبهم المنصة عن أسألتهم.

والحقيقة: أن هذه الليلة كانت وراء نجاح شركة الاستثمار الخليجي، ولولاها لفشلت الشركة تماما، فقد تبين أن الذين ساهموا من قطر،

كانوا حوالي الثمانين في المائة، أو أكثر، فلم يستجب الناس في بلاد الخليج الأخرى للنداء. ولا أريد أن أزكي نفسي، ولكنها الحقيقة تقال للتاريخ. فلولا ثقة الناس في قطر بي، واستماعهم لكلمتي، وأسئلتهم المتتابعة بعد ذلك لي: هل نشترك أو لا؟ ما قامت لشركة الاستثمار الخليجي قائمة.

وبعد أن قامت الشركة، رأى الأمير محمد الفيصل والمسؤولون عن الشركة: أن يؤسسوا لها هيئة رقابة شرعية، تكون موضع ثقة عند الناس. كان رئيسها الشيخ المفتي محمد خاطر، وأعضاؤها الشيخ صديق الضرير، والشيخ عبد الله بن علي المحمود عالم الشارقة، ويوسف القرضاوي.

وكان مقر الشركة في ولاية الشارقة، وقد دعينا لافتتاحها هناك، وكان في يوم الخميس، وقد بتنا هناك وخطبت الجمعة في مسجد الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة وبحضوره، وقد دعانا للغداء عنده.

وكان نجاح هذه الشركة حافزا للتفكير في تأسيس شركة أكبر وأوسع، وهي التي سميت (دار المال الإسلامي) التي قامت في جنيف، ويديرها د. إبراهيم كامل، وسيأتي لها حديث يخصها في حينه.



د. عبد الحليم شيخ الأزهر مع القرضاوي

عضوية مجلس إدارة بنك فيصل المصري:

فوجئت في أمسية يوم من الأيام باتصال من الأخ الصديق الأستاذ يوسف ندا، أظنه كان من القاهرة، وقال: إننا نريد أن تكون معنا في مجلس إدارة (بنك فيصل الإسلامي المصري). وقد رشحك أكثر من واحد في المجلس منهم المهندس أحمد حلمي عبد المجيد، ورحب الأمير محمد بذلك. وذكر أنك عاونتهم معاونة كبيرة في إقامة شركة الاستثمار الخليجي، وأن معاونتك كان لها الأثر الأول في قيام الشركة، قلت له: أنا أرحب بكل ما يوسع قاعدة الاقتصاد الإسلامي، ويضيق دائرة الربا في مجتمعاتنا المسلمة. ولكن أخاف أن يجور ذلك على وقتي الذي نذرته للعلم والدعوة. قال: احتسب ذلك في سبيل الدعوة أيضا، ووجود عنصر شرعي مهم في المجلس، على أن المجلس يجتمع كل شهرين مرة. وقلت: على بركة الله. وكان المجلس الأول لا يحتاج إلى جمعية عمومية،ويكفي ترشيح بعض الأعضاء وموافقة أغلبية المجلس.

وأصبحت منذ ذلك الحين عضوا في مجلس إدارة بنك فيصل المصري، وحضرت أول جلسة عقدت بعد الانتخاب، وفيه تعرفت على سائر الأعضاء، ومنهم من لقيته قبل ذلك، مثل الأمير محمد، رئيس المجلس، ود. عبد العزيز حجازي نائب الرئيس، ود. توفيق الشاوي، والحاج حلمي عبد المجيد، ود. عمر عبد الرحمن عزام، والأستاذ حيدر بن محمد بن لادن، والأستاذ كمال عبد العزيز المحامي، والأستاذ أحمد ثابت عويضة، ود. أحمد محمد عبد العزيز النجار، والأستاذ علي حمدي. وغيرهم.

وما لاحظته: أن البنوك الإسلامية قد استعجلت في ظهورها، قبل أن تهيئ لها الكوادر المطلوبة، على مهل. هذه الكوادر التي تجمع بين العلم المصرفي، والفقه الشرعي، والالتزام الإسلامي، والحماس للفكرة والإيمان بها.. وهذا لم يكن حاصلا.

بل قامت البنوك الإسلامية أول ما قامت على أناس جاؤوا من البنوك الربوية، فليس عند أكثرهم أي فقه شرعي، ولا عندهم أي إيمان بفكرة بنك إسلامي، ولا عندهم أي التزام بخلق إسلامي، حتى كان منهم من لا يقيم الصلاة، ومن تدخل عليه وهو يدخن سيجارة. بل حكى لي بعضهم: أن منهم من كان يفطر في رمضان! فهل يؤمن هؤلاء على إقامة مؤسسة إسلامية يأتمنها المسلمون على تنمية أموالهم في الحلال، وهم لا يعرفون حلالا من حرام؟!!

لقد دخلت على مسؤول كبير في البنك يوما فوجدته يلبس في يده خاتما كبيرا من الذهب، فقلت له: هذا حرام على الرجال في الإسلام. قال: إن والدتي أهدته إلي حينما تزوجت! قلت: والدتك لم تكن تعرف أنه حرام. قال: ولا أنا أعلم أنه حرام. قلت: سأهديك كتابا يعطيك فكرة معقولة عن الحلال والحرام. فأهديته كتابي (الحلال والحرام في الإسلام). فلما قابلته بعد ذلك. قال: إن كتابك

قد علمني كثيرا مما كنت أجهله. لقد كنا في جهالة وعمى، ففتح عيني. ووجدته قد خلع خاتمه الذهبي، ولم يعد في يده.

ومما أذكره: أن أحد الموظفين في إدارة الاستثمار في البنك سألني عندما حضرت في أحد اجتماعات المجلس، سؤالا عجيبا، قال: هل يجوز أن يغير طالب المرابحة الشيء الذي اتفق على شرائه بشيء آخر؟ مثلا هو اتفق على شراء سيارة نقل كبيرة، فخطر له أن يغيرها ويشتري بثمنها جرارا زراعيا مثلا، هل هذا يجوز؟

قلت له: يا ابني هذا لا يتصور أصلا، لأن طالب المرابحة لا يعطيه البنك نقودا في يده يشتري بها ما يريد، حتى يفكر في تحويلها من سلعة إلى أخرى. لكن البنك هو الذي يشتري له البضاعة التي أمر البنك بشرائها له، ولا بد أن يشتريها البنك لنفسه، ويتملكها ويحوزها، ثم يبيعها له بعد ذلك، حتى لا يبيع ما لا يملك. فإذا كنت أعطيته الفلوس في يده، فهذا لا يجوز شرعا، وقد خالفت ما أفتت به هيئات الرقابة الشرعية جميعا، وخنت الأمانة التي ائتمنت عليها. فقال: والله ما كنت أعرف ذلك. ولن أفعلها بعد ذلك.

وحكيت ذلك لنائب محافظ البنك الأخ الكريم الأستاذ أحمد عادل كمال، فقال لي: يجب أن نجمع لك الموظفين لتشرح لهم هذه المسألة وغيرها من مسائل المعاملات التي يغلطون في تطبيقها، ويسيئون إلى سمعة البنك، ويطعمون الناس الحرام.

وبالفعل جمع لي الموظفين، وجلست معهم وقتا طويلا، أشرح لهم بعض ما غمض عليهم، وأجيب عن استفساراتهم حول معاملات البنك، وما قد يقعون فيه من أخطاء.

ومن ذكريات بنك فيصل: ما كان يحدث في اجتماع الجمعية كل عام، من صراع على مقاعد المجلس، فقد كان هناك فئة لها

مجموعة كبيرة من أسهم البنك من آل عزام ومن يلوذ بهم، وكانوا على خلاف مع الأمير محمد على ما بينهم من قرابة، وكانوا كل سنة يثيرون غبارا ودخانا في جلسة الجمعية العامة، ويقدمون الأسئلة المحرجة، ويرفعون درجة التوتر إلى أقصاها، ويزداد هذا ويتضاعف كل ثلاث سنوات، حين يكون هناك انتخاب مجلس جديد، فتراهم يرسلون إلى كل مساهم خطابات مطولة، فيها اتهامات وانتقادات، وربما شتائم لمجلس الإدارة، ولإدارة البنك.

وعند عقد الجمعية، يتكتلون في القاعة، ويبدأون المشاغبة، ويدفعون بعض الناس معهم ليقوموا بذلك.. ونظل أحيانا معظم الليل في هذا الجو الخانق المؤلم من الصراع.. ثم ينتهي الأمر دائما بفوز مجموعة الأمير محمد، لأنها تملك معظم أسهم البنك! وهم يعلمون ذلك تماما، ولكنهم يقولون: العيار الذي لا يصيب يترك دويا.

وكثيرا ما كنت استأذن وأنصرف قبل أن تنتهي الجلسة، لأني لم أعد أطيق البقاء في هذا الجو الساخن. وكان الأمير محمد يلقى هؤلاء بالحلم والابتسامة والصبر الطويل، وبمثل هذا الحلم يسود من يسود.

بنك فيصل الإسلامي بالخرطوم:

وكما قام بنك فيصل الإسلامي بالقاهرة: قام نظيره في الخرطوم، ولكن كان حظه في التهيئة والإعداد البشري أفضل من حظ بنك القاهرة. فقد كان المتحمسون لإنشائه من الإسلاميين المتمرسين، وممن يجمعون بين الوعي الفكري والقدرة على الحركة معا. وهذا كان له أثره في حسن نشأة البنك أول الأمر.

فهم لم يقبلوا كل من تقدم إليهم، بل انتقوا منهم أفضل العناصر الملائمة للعمل المنشود، عن طريق إجراء امتحانات تحريرية، ومقابلات شفوية، تنبئ عن قدرات الشخص المتقدم: الذهنية والمعرفية والمهنية والسلوكية.

ولقد اشترك في وضع هذه الاختبارات: رجال من ذوي الدراسة والكفاية من الشرعيين والاقتصاديين والإداريين والتربويين، منهم: الأستاذ الدكتور جابر عبد الحميد وكيل جامعة قطر فيما بعد، والأخ محمود نعمان الأنصاري، مساعد الأمين العام لاتحاد البنوك الإسلامية، وكان الأمين العام هو الدكتور أحمد النجار، المتحمس لفكرة البنوك الإسلامية وترويجها.

ولم يكتف بهذا الامتحان التحريري، فلا بد للمتقدم: أن يجتاز مقابلة شخصية، للجنة مختصة، يظهر فيها ما لا يظهر في الامتحان التحريري.

ومن ينجح في الامتحانين يختار منهم الأفضل فالأفضل، والعرب تقول: من أخصب تخير.

ولم يقف الإخوة في السودان عند هذا الحد، بل أقاموا دورة لعدة أسابيع لتثقيف المختارين، بإعطائهم جرعات مركزة في كل الجوانب التي يحتاج إليها العاملون في البنك: شرعية واقتصادية وإدارية ومحاسبية وسلوكية، يختار لها خبراء متخصصون في سائر هذه الجوانب من داخل السودان ومن خارجها. وقد دعيت للمشاركة في هذه الدورة النافعة، وبقيت في الخرطوم عدة أيام لإلقاء عدد من المحاضرات، والإجابة عن الأسئلة التي يثيرها الدارسون حول النواحي الشرعية.

بهذا كان حظ بنك فيصل السوداني من إعداد العنصر البشري أفضل من سائر البنوك. ولا أدري لماذا لم تستفد البنوك الإسلامية من هذه التجربة الفذة، كلما أرادوا أن ينشئوا بنكا إسلاميا جديدا!

إن العنصر البشري هو المؤثر الأول في نجاح أي مؤسسة، فكيف إذا كانت مؤسسة إسلامية ذات رسالة ربانية إنسانية أخلاقية، بجوار رسالتها الاقتصادية؟

والقرآن يحدد الصفات الأساسية في العنصر البشري المطلوب، بقوله تعالى: (إن خير من استأجرت القوي الأمين) القصص: .

فالقوة: تمثل القدرة على إنجاز العمل والخبرة فيه، وما يتطلبه ذلك من معرفة وثقافة ومهارة.

والأمانة: تمثل الجانب الأخلاقي، الذي يرعى حدود الله، وحقوق الناس، والذي يدفع لإحسان العمل، لإرضاء الله، لا إرضاء الناس، ويجعله يراقب الله في عمله قبل أن يراقب البشر.

وهذا يحتاج إلى حسن الاختيار والانتقاء من أول الأمر، فيختار العنصر الصالح، دون محاباة ولا محسوبية، ولا لأي اعتبار غير الكفاية والأمانة.

وبعد ذلك: يكون التدريب المستمر والتوعية الدائمة، ليظل المرء في حالة ترقٍّ أبدا من حسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأحسن. كما شأن المؤمن دائما ينشد الأحسن، كما قال تعالى: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الزمر: .

اتحاد البنوك الإسلامية:

ولقد شعر اتحاد البنوك الإسلامية الذي كان يرأسه الأمير محمد الفيصل، ويقوم بأمانته الدكتور أحمد النجار، بحاجة العاملين في المصارف الإسلامية إلى ثقافة شرعية واقتصادية، فشرع في عمل (موسوعة للبنوك الإسلامية) ضمنها كثيرا من التوجيهات والدراسات، التي كانت مهمة في بداية نشأة البنوك. وإن كانت البحوث والدراسات المصرفية الإسلامية، قد تجاوزتها كثيرا.

كما اجتهد الدكتور النجار ـ برعاية الأمير محمد ـ أن ينشئ معهدا لتثقيف العاملين في هذه البنوك، وكان مقره (قبرص) الإسلامية التركية، وظل عدة سنوات، يرسل إليه أفراد لتدريبهم وتخريجهم، ثم توقف لما يتطلبه من تكاليف للدارسين والمحاضرين، وكان الأولى أن يكون في مصر لا في قبرص.

والمهم هنا هو الشعور العام بالحاجة إلى إمداد العاملين في المصارف ـ أو البنوك ـ الإسلامية بما لا بد منه من المعارف والثقافات اللازمة لمن يعمل في هذا الميدان، وهي معارف تنمو وتتطور يوما بعد يوم، وفي حاجة إلى من يلاحقها ويساير ركبها.

حضور مهرجان ندوة العلماء بالهند:

كان من أهم ما حدث في تلك السنة (أواخر شهر أكتوبر سنة 1975م): المشاركة في (مهرجان ندوة العلماء) بلكهنو بالهند، الذي دعا إليه الداعية الإسلامي الكبير حبيبنا العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء، وذلك بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاما على تأسيس ندوة العلماء، التي قامت بدور مذكور مشكور، معروف غير منكور، في إقامة تعليم إسلامي

يأخذ من التراث ما صفا، ويدع ما كدر، يرحب بكل جديد نافع، ويحرص على كل قديم صالح، يؤمن بثبات الأهداف ومرونة الوسائل، هو في الأولى في صلابة الحديد، وفي الثانية في ليونة الحرير.

قام على هذه الندوة منذ تأسيسها رجال كبار، جمعوا بين النقل الصحيح، والعقل الصريح، واغترفوا من التراث، ولم يغفلوا عن العصر: جمعوا بين عقلانية الفيلسوف، وروحانية المتصوف، وانضباط الفقيه، ولم يكتفوا بالرواية عن الدراية، ولا بالدراية عن الرواية، من هؤلاء الرجال الأفذاذ: العلامة شبلي النعماني، مؤسس (دار المصنفين) في أعظم كره، ومؤلف (السيرة النبوية) الشهيرة، التي كتبها بالأردو، والعلامة سليمان الندوي مكمل سيرة النعماني، وصاحب المؤلفات القيمة، والتي نقل إلى العربية منها محاضراته في مدراس عن (السيرة النبوية) وخصائصها، والعلامة الشيخ عبد الحي الحسني والد الشيخ أبي الحسن مصنف كتاب (نزهة الخواطر) في أعلام الهند.. وغيرهم من الرجال الربانيين الذين علموا وعملوا وعلموا.

فكانت ندوة العلماء ومؤسساتها التعليمية مثل (دار العلوم) وكلياتها المختلفة في علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، ومعهد الفكر الإسلامي وغيرها نموذجا يحتذى في الجمع بين الأصالة والمعاصرة. أراد العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي أن يجمع كبار علماء الأمة ودعاتها بهذه المناسبة، ليروا هذه المؤسسة الفريدة بأعينهم، ويلمسوا آثارها بأيديهم، ويتحسسوا حاجاتهم بأنفسهم، ويساهموا في إقامة مشروعاتها المستقبلية.

ولهذا لم يسعنا حين وصلتنا دعوة الشيخ إلا أن نلبي النداء، ونهرع إلى هناك، وكنا وفدا من قطر مكونا من فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وفضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، والفقير إليه تعالى، وقد دعي عدد من الإمارات على رأسهم فضيلة الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس القضاء الشرعي، وعدد من علماء المملكة العربية السعودية ورجالها، ومن الكويت والبحرين ومصر وغيرها،

وكان على رأس الوفد المصري الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف.

وصلت الوفود إلى دلهي، فاستقبلنا إخوة من الندوة في مطار دلهي، ومن دلهي ركبنا الطائرة إلى لكهنو، حيث وجدنا استقبالا حافلا في المطار، وقد ألبسونا عقودا من الزهور والورود، على عادة أهل تلك البلاد. ثم رأينا الاستعدادات الضخمة في مقر ندوة العلماء لاستقبال الضيوف، ونزلنا في فنادق من فنادق الدرجة الأولى في المدينة، وكان مسلمو المدينة (لكهنو) ومسلمو الهند عامة في خدمتنا، فما من مدينة في الهند إلا أرسلت ممثلين لها، وكأنا كنا ضيوفا على مسلمي الهند جميعا، فبالغوا في إكرامنا، حتى

قال أخونا وصديقنا الدكتور محمد المهدي البدري مازحا: لم يبق على الشيخ الندوي إلا أن يزوج كل ضيف هندية مسلمة!

وفي مقر الندوة أقيم سرادق ضخم يسع ألوفا مؤلفة، لأن الندوة بدأت في أطراف المدينة، وأخذت منطقة واسعة، فأمكنها أن تقيم حفلها الكبير بها.

كان الحفل يضم المسلمين وغير المسلمين، فقد بهر الهندوس هذا الاستعداد الكبير، وعلموا أن شيوخا كبارا من العالم العربي والعالم الإسلامي سيحضرون، فرغبوا في المشاركة، وحضر ألوف منهم في المهرجان. كما أن كثيرا مهم حضروا إكراما للشيخ الندوي، ما له مكانة كبيرة في الهند كلها.

وسمح الشيخ الندوي لأول مرة للمصورين أن يحضروا، ويلتقطوا الصور للحفل وللضيوف، وللمتكلمين، وقال الشيخ: إن علماء الهند لا يجيزون التصوير، ولكن لأجل خاطر إخواننا من علماء العرب سمحنا بالتصوير، نزولا على رأيهم في إباحته.

وكان المتبع في مثل هذه الأحوال: أن يكون الشيخ أبو الحسن الندوي هو رئيس هذا المهرجان أو المؤتمر، ولكنه أبى إلا أن يكون الرئيس هو شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود.

وتحدث عدد من المدعوين، يقدمهم عريف الحفل، ولكن اثنين منهم حرص الشيخ الندوي على أن يقدمهم للجمهور بنفسه، أحدهما: العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الذي يعرفه علماء الهند بآثاره العلمية، والذين له عناية خاصة بعلماء الهند وآثارهم العلمية، ولا سيما عالم لكهنو الشهير الشيخ عبد الحي اللكنوي، الذي نشر الشيخ آثاره مثل (الرفع والتكميل في الجرح والتعديل) وغيرها، وعلق عليها تعليقات ضافية.

والثاني، هو: يوسف القرضاوي، الذي ألبسه الشيخ ثوبا فضفاضا، وأضفى عليه من الصفات والمحاسن ما يليق بالمقدِّم لا المُقدَّم.

ارتجلت في الحفل الكبير الذي لا تكاد ترى آخره؛ كلمة قوية مركزة، أثرت في الحضور، حتى الذي لا يعرفون العربية تأثروا بها، ربما لأنها خرجت من أعماق القلب، فأثرت في القلوب، حتى

قال لي الشيخ أبو الحسن: لعلك تعجب إذا علمت أن الهندوس الذين حضروا الحفل تأثروا بكلامك وإن لم يفهموه!! قلت له: إنها نفحات ندوة العلماء وشيوخها هبت علينا، فما كان في كلامنا من خير، فهو منكم وإليكم.

وقد قسم أعضاء المؤتمر إلى لجان، شاركت في إحداها، أظنها: لجنة التربية والتعليم، كما شاركت في لجنة الصياغة العامة لتوصيات المؤتمر.

كانت أيامنا في (لكهنو) أياما طيبة، حافلة بالخير، فياضة بالحب، سعدنا فيها بإخوتنا وأحبابنا في الندوة، الذين عرفناهم من قبل، والذين لم نعرفهم: الشيخ محمد الرابع، والشيخ واضح رشيد، والشيخ سعيد الأعظمي، وغيرهم من العلماء والدعاة من أرباب القلم واللسان.

وكانت دولة الهند إكراما للشيخ أبي الحسن واعترافا بمنزلته في العالم الإسلامي، قد استضافت عددا من الضيوف ،وهيأت لهم زيارة بعض المناطق السياحية، في دلهي، وفي تاج محل وغيرها.

وكان الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ الذهبي، والشيخ الأنصاري، والشيخ عبد المعز، وأنا، ممن نزلوا ضيوفا على الدولة، وذهبنا للسلام على رئيس الجمهورية، وكان مسلما، وهو الدكتور ذاكر حسين، والمعروف أن رئيس الجمهورية في الهند ليس له سلطات تذكر، وإنما السلطة في قبضة رئيس الوزراء، على غرار النظام الإنجليزي.

وقد دعانا رئيس الجمهورية على الغداء، ثم رافقنا عدد من رجال الحكومة لزيارة بعض الأماكن المهمة التي يحرص السياح عادة

على زيارتها، فزرنا القلعة الحمراء في دلهي، ومنارة قطب الدين، وغيرها.

وكان أهم معلم سياحي زرناه هو (تاج محل) الذي هيئت لنا زيارته بسيارات خاصة، وحجز لنا في أحد الفنادق هناك، وهو فعلا تحفة هندسية معمارية فنية لا نظير لها، وهو يعد من عجائب الدنيا السبع، وقد أعده الملك ليكون مقرا لزوجته التي يحبها.

ومن المهم أن نعلم أن كل المعالم السياحية التي تباهي بها الهند وتفخر: هي معالم إسلامية، فلم نكد نجد شيئا له قيمة يمكن أن يزار غير ما خلفه المسلمون.

كانت هذه أول مرة أزور فيها الهند، وهي زيارة لا شك نافعة، تعلمت منها الكثير، ورأيت فيها الكثير، وفي ختامها دعانا سفير قطر في الهند ـ ولا أذكر: أكان الأستاذ شريدة الكعبي أم الدكتور حسن نعمة ـ على الغداء في بيته، وشكرنا له حسن ضيافته، وطلبت منه أن يحجز لي للعودة إلى قطر، فأنا مرتبط بعملي الجامعي، ولا أستطيع أن أتغيب عنه كثيرا.

وحجزت السفارة العودة عن طريق (بمباي) التي بت فيها ليلة في ضيافة القنصلية القطرية هناك، ورأيت في بمباي ما رأيته في دلهي: مناطق تراها غاية في النظافة والرقي والتحضر، وأخرى غاية في الفقر والقذارة حتى ليكاد الناس لا يجدون ما يسترهم، وقيل لي في بومباي: إن هنا أناسا يولدون ويعيشون ويموتون في الشارع لا بيوت لهم**!!** إنها الطبقية الصارخة، التي تجعل بعض البشر كالآلهة، وبعضهم أدنى مرتبة من الحيوان**!!**

زيارة وفد اتحاد الطلبة المسلمين بأمريكا:

ومن أهم أحداث هذه السنة: زيارة وفد من اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا (MSA) لدولة قطر، وكان الوفد يتكون من ثلاثة من الإخوة المسؤولين عن الاتحاد، منهم الأخ الدكتور التيجاني أبو غديري، وهو سوداني الأصل، والأخ الدكتور جمال برازنجي، وهو عراقي الأصل، ونسيت الثالث.

وقد زاروا الأمير الشيخ خليفة بن حمد، وتحدث الأخ جمال البرازنجي، فكان حديثه في غاية التوفيق، فلخص له دورهم الذي يقومون به أحسن تلخيص، وعرضه أجمل عرض، كما بين حاجاتهم ومطالبهم التي ينشدونها من قطر، وتتحدد في أن تساهم قطر في بناء مركزهم الذي يريدون بناءه في منطقتهم التي اختاروها في ولاية (نديانا بولس)، وأعتقد أن الأمير انشرح صدره لهم، ووعدهم خيرا، وسافروا من قطر ليكملوا جولتهم في بلاد الخليج، وكلفوني أن أتابع الأمر مع الأمير.

وقد وجهوا دعوة بعد ذلك إلى الجامعة، لأشارك في مؤتمرهم السنوي الذي يعقد في شهر مايو من كل عام، ووافقت الجامعة على سفري للمؤتمر، وقابلت الأمير وذكرته بوعده للوفد الذي زاره، فكتب لهم شيكا بمبلغ نصف مليون دولار لبناء مكتبة مركزهم، وتكون باسم أمير دولة قطر.

السفر إلى أمريكا:

وفي الموعد المحدد، تهيأت للسفر إلى أمريكا، لأول مرة، ولم يكن معي أي رفيق، وقد سافرت من الدوحة إلى القاهرة، وبت ليلة في القاهرة، ومنها قمت من الصباح الباكر لأسافر إلى لندن، حيث

ركبت الطائرة الأمريكيةTWA ـ على ما أذكر ـ من مطار لندن الساعة الثانية عشرة ظهرا إلى نيويورك ، إلى مطار شيكاغو حيث وجدت بعض الإخوة ينتظرونني، لأبيت هناك وألتقي بعض الإخوة الكرام، وتعقد جلسة فكرية روحية طيبة، وفي اليوم التالي سافرت إلى مقر الاتحاد، وسلمت الإخوة؛ الشيك الذي حملني إياه الشيخ خليفة أمير قطر، تسلمه مني الأمين العام لاتحاد الطلبة المسلمين: الأخ الكريم الدكتور محمود رشدان، الذي كان شعلة متوقدة من الحيوية والنشاط، مع إيمان صادق، والتزام صارم، ووعي بالحاضر، واستشفاف للمستقبل، ومرونة بصيرة في التأمل مع الأحداث.

وكان الاتحاد مر بدور الطفولة ثم الصبا، وقد بدأ دور الشباب، وهو دور القوة والحيوية والنشاط الدافق، وقد بدأت تنبثق منه جمعيات وأجهزة ومنظمات لها قيمتها ووزنها.

مثل جهاز التعليم الذي يشرف عليه الأخ التيجاني أبو غديري.

ومثل جهاز (الوقف الإسلامي) الذي يشرف عليه الأخ جمال برزنجي.

ومثل جهاز آخر، يشرف عليه الأخ الدكتور هشام الطالب.

ومثل رابطة العلماء الاجتماعيين، ويشرف عليها الدكتور إسماعيل الفاروق.

وكذلك الجمعية الطبية الإسلامية، وجمعية العلماء والمهندسين.

وهكذا أطلعني الإخوة على مؤسساتهم وفروع أنشطتهم، مما زادني اطمئنانا على سداد خطواتهم، ورشد مسيرتهم.

وقد بقينا في مقر الاتحاد يومين ثم انتقلنا إلى مدينة (بولمنتو) حيث يعقد المؤتمر، وهي المدينة التي يقيم فيها الأخ مانع الجهني من طلاب السعودية.

كان الإخوة يستأجرون عادة مساكن إحدى المدن الجامعية في إحدى الإجازات لعدة أيام، ليستفيدوا من حجرات المساكن، ومن المطاعم، والقاعات، والساحات.

وكانت هذه الأيام نشاطا مكثفا: فكريا وروحيا ورياضيا واجتماعيا.

وكان كل مؤتمر يدور حول محور معين تلقى فيه محاضرات، وتدار حوله الأسئلة والمناقشة، وهناك محاضرات عامة للجميع. وهناك حلقات ولقاءات نوعية خاصة، مثل لقاء للنساء، أو لقاء لذوي اختصاص معين.

وكان التركيز شديدا علي، فكنت أشارك في المحاضرات العامة، وألتقي لقاءات خاصة، ولا سيما مع الأخوات، ونعقد جلسة عامة للإجابة على الأسئلة الفقهية والدعوية، وأقول كلمات موجزة بعد الصلوات، وبخاصة صلاة الفجر.

ونظرا لاختلاف التوقيت في أمريكا عن الدوحة اختلافا شاسعا، فقد أصبح نهاري ليلا، وليلي نهارا، واختلاف نوع الأكل عما اعتدته في قطر، وانشغالي الشديد بالنشاط، فقد نسيت نفسي، فلم أدخل المرحاض للتبرز أكثر من ثمانية وأربعين ساعة، وأصابني إمساك شديد، لم أستطع أن أخرج ما تخرجه أمعائي الغلاظ، رغم تكرار المحاولة والمعاناة، التي جعلتني أتلوى من الألم، ولا أخرج شيئا، وكانت نتيجة ذلك: أن أصبت بشرخ في الشرج، ظللت أشكو منه عدة سنوات، ولم أشف منه إلا بعملية جراحية أجريتها في (مستشفى الرميلة) بالدوحة. أجرها د. النجار، أستاذ الجراحة في

طب الأزهر. وكان طبيبا زائرا، استدعاه المستشفى للقيام ببعض العمليات المهمة. وكان من الأطباء المتميزين في الجراحة، وفي هذه العملية خاصة، جزاه الله خيرا.

على أن الإخوة المسؤولين عن المؤتمر، أحضروا لي طبيبا ممن يشاركون في المؤتمر، وهم كثر، والحمد لله، وقد نصح باستعمال الحقنة الشرجية، لتسهيل إنزال المخزون في البطن، وبعد ذلك تمشي الأمور طبيعية، وخصوصا مع مراعاة الإكثار من الخضروات والفواكه ونحوها مما يجنب المرء الإمساك المحظور.

وكان الإخوة قد اعتادوا في مؤتمراتهم: أن يصلوا كل صلاة في وقتها، مع أن 99% من المشاركين مسافرون، وكان الإعداد للصلاة يأخذ من الإخوة جهدا ووقتا ليس بالقليل، فالمنطقة التي تقام فيه الصلاة مشغولة في العادة بأشياء، فلا بد أن تفرغ من كل ما فيها من نشاط، وأن تفرش، ويطوى الفرش بعد الصلاة.

فقلت للإخوة: لماذا لا نأخذ برخصة الجمع، ونحن في هذا المؤتمر أحوج ما نكون إليها، لازدحام الوقت بالنشاط المكثف، ولأن أداء كل صلاة في وقتها يرهقنا من أمرنا عسرا.

قالوا: إن إخواننا من الهند وباكستان يرفضون الجمع؛ لأنهم أحناف، والمذهب الحنفي –كما تعلم – لا يجيز الجمع إلا في عرفة ومزدلفة في الحج.

قلت: لهم أن يقلدوا غير مذهبهم في هذه القضية، ولا سيما أن القول فيها أرجح، والحاجة إليه ماسة، والله يحب أن تؤتى رخصه، ولا داعي للتعصب المذهبي، والتعسير على سائر الإخوة.

أنا سأدعو إلى الجمع إذا أقمنا صلاة الظهر، ومن قبل قولنا صلى وراءنا، ومن لم يقبل صلى ما شاء بعد ذلك، وعندما أقيمت الصلاة

أخبرتهم بما سنفعل، وسكت الإخوة على مضض، وأكثرهم صلى خلفي، ثم ما لبثوا أن صلوا جميعا، وقالوا: ما كان أغبانا! عسرنا على أنفسنا ما يسر الله.

وبذلك وفرنا الجهد والوقت، وأصبح هذا هو المعمول به في كل المؤتمرات بعد ذلك، والحمد لله.

كان مؤتمر الاتحاد يضم الإخوة والأخوات، ويحضر الجميع المحاضرات، ويشارك الجميع – رجالا ونساء - في الأنشطة المشتركة، ثم تكون حلقات خاصة للنساء.

وكان الرجال عادة يجلسون في جانب والنساء في جانب، وأحيانا يكون الرجل وعائلته: هو وزوجته وأبناؤه وبناته يأخذون مكانهم في أحد الصفوف، وعائلة أخرى بجوارهم، فهناك أماكن مخصصة للعائلات، وأماكن أخرى للعزاب، أو للرجال الذين ليس معهم عائلاتهم.

لم يكن كل الحضور عربا، بل كان منهم الهنود والباكستانيون والماليزيون والأمريكيون وغيرهم ممن لا يعرفون العربية، وكان لا بد من مترجم ينقل معنى كلامي إلى الإنجليزية، وكان هناك أكثر من مترجم، ولكن أفضل مترجم لي كان هو الأخ العلامة الدكتور جمال بدوي، فقد كان لجودة معرفته باللغتين: العربية والإنجليزية، ولخلفيته العلمية الإسلامية، ولروحه الدعوية، كان ينقل كلامي بمعانيه وأفكاره، وبروحه وحرارته، وقد قال لي الشيخ أبو الحسن الندوي في لكهنو: إننا إذا وجدنا من يترجم معاني كلامك، فأنى نجد من يترجم حرارتك وحيويتك؟ ولكني وجدت الدكتور بدوي، يترجم الفكر والروح جميعا، بارك الله فيه، ونفع به.

بعد انتهاء أيام المؤتمر، عدنا إلى مقر الاتحاد، ومن هناك رتب الإخوة عدة زيارات لبعض المدن، ومنها: مدينة (نيوجرسي) التي تعد لنيويورك، مثل الجيزة للقاهرة، فهما متصلتان.

إلى مدينة نيوجرسي:

وفي نيوجرسي يوجد مركز إسلامي قوي، فيه حركة ونشاط، ويقوم عليه عدد من الإخوة معظمهم مصريون، وإمامه عالم أزهري مصري كبير، هو أستاذنا الدكتور سليمان دنيا، أحد علماء الأزهر المضلعين، وأحد أساتذة العقيدة والفلسفة، الذين دخلوا تخصص المادة، وحصلوا على شهادة العالمية من درجة (أستاذ) بامتياز، وابتعث إلى لندن، مع زميليه: حمودة غرابة، ومحمد بيصار، لإتقان اللغة الإنجليزية، والحصول على الدكتوراه من لندن، وقد أحيل على التقاعد، واختار أن يقيم في أمريكا إماما ومستشارا دينيا لهذا المركز الإسلامي الكبير، وقد سعدت بالتعرف عليه وجها لوجه، بعد أن كنت أعرفه بالاسم وقراءة كتبه فقط.

كان هذا المركز في الأصل كنيسة اشتراها المسلمون، وحولوها إلى مركز إسلامي، يسع أنشطتهم المختلفة، وأولها: الصلاة، ففيها صالة كبيرة ومنصة ، تتحول عند الصلاة إلى مسجد جامع، تتراص فيه الصفوف، وفق علامات معينة، ترسم خطوطا، تحدد القبلة.

وبعد الصلاة يجلس الناس فيه هذه القاعة الكبيرة، التي تتحول إلى قاعة محاضرات، يجلس المتحدثون فيها على المنصة المعدة لذلك من أول الأمر، ويجلس الناس فيها على الكراسي، ويولون وجوههم شطر المنصة.

وهنا وجدنا –كالعادة- بعض الإخوة الذي يجنحون إلى التشديد والتعسير، يعترضون –فيما يعترضون عليه- على جلوس الناس على الكراسي، وتوجههم إلى غير القبلة في الجلوس، وعلى لبس (البنطلونات) ولبس الساعة في اليد اليسرى، بدل اليمنى.. الخ.

نظم الإخوة لي محاضرة في المركز، لا أذكر موضوعها، وبعد المحاضرة: يخصص وقت للأسئلة للإجابة عنها ما وسعنا الوقت والجهد.

وكان من الأسئلة هذه الأشياء، التي يعترض بها الإخوة الذين يوصفون بأنهم (سلفيون) وقلت للإخوة: إن الإسلام يقوم على التيسير، كما قال تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) البقرة: وقال: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج: وقال رسوله: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" رواه البخاري، وقال: "يسروا ولا تعسروا" متفق عليه، والمسلمون في هذه البلاد خاصة –ومثلهم كل من يعيش خارج المجتمعات الإسلامية- أولى الناس بالتيسير ورفع الحرج عنهم، لبعدهم عن دار الإسلام، والله يحب أن تؤتى رخصه.

والمسلمون ينتهزون يومي الإجازة: السبت والأحد، ليلتقوا فيها في هذا المركز، ليتعلموا دينهم، ويتدارسوا أمورهم، ويتفاهموا ويتوادوا، ويقترب بعضهم من بعض، وهم يقضون سحابة النهار في المركز، ويتغدون فيه، ولا بد أن نهيئ لهم أسباب الراحة، حتى يمكثوا هذه المدة دون تعب كثير، وتوفير المقاعد والكراسي التي اعتادوا الجلوس عليها مما يساعدهم على ذلك.

والاتجاه إلى القبلة في الجلوس: أدب من الآداب، وليس فرضا ولا واجبا ولا سنة مؤكدة، وخصوصا إذا عارضه ما هو أهم منه، وهو ضرورة الجلوس في مواجهة المنصة التي يجلس عليها المتكلمون.

وأما لبس البنطلونات، فهو مطلوب في هذه البلاد، لأن الأزياء تتغير بتغير الأعراف، والإسلام لم يلزمنا بزي معين نعتبره وحده الزي الشرعي، لكن له مواصفات لا بد من مراعاتها: من ستر العورة، وأن لا يشف ولا يصف، وأن لا يكون زيا اختص به الكفار، وهو يريد أن يتشبه بهم، وقد أصبح هذا الزي معتادا في كثير من بلاد العالم، ومنه بلاد المسلمين، فإذا كان في مصر والشام والعراق والمغرب والخليج، يلبسون هذا الزي، فكيف لا يلبسه المسلم الذي يعيش في قلب أمريكا نفسها؟ بل الأولى أن يلبس لبسهم- مادام غير محرم- حتى يكون قريبا منهم، غير مخالف لهم، فهذا أدعى إلى تأثيره فيهم، وتجاوبهم معه.

وهنا سأل أحد الإخوة الأمريكيين الجدد سؤالا، حول أمر الصيام، وهو: لماذا اختار الإسلام للصيام شهرا قمريا يتنقل بين الفصول الأربعة، ولم يثبته في شهر شمسي بحيث يظل ثابتا لا يتغير؟

وقبل أن أجيب عن السؤال قام شيخنا إمام المسجد – رحمه الله – فقال للسائل: كل من له سؤال في العبادات يحتفظ به، لأننا ندرس فقه العبادات للمسلمين الجدد، كل يوم ثلاثاء، هنا في المركز، ونحن ندرس الفقه في كتاب يدرس في القسم الثانوي بمعاهد الأزهر الشريف، وهو : (الشرح الصغير على الدردير)، وسكتُّ، ولم أعلق على كلام شيخنا، فلم يكن من اللائق أن أرد عليه أمام الناس، ولكني بعد ذلك أشرت إليه: أن هذا الكتاب يستصعبه طلاب الأزهر فكيف يسهل على مسلمين جدد غير متخصصين يدرسونه بغير العربية؟ وإذا كان الشيخ يُدرسهم الآن فقه الطهارة، فمتى يصل إلى الصوم؟ على أنه لو وصل إليه لن يجد فيه جواب السؤال الذي طرح.

وجواب السؤال واضح، وهو: أن يتعبد المسلم لربه سبحانه بالصيام في كل فصول السنة، ما كان فيها حارا، وما كان باردا، وما كان معتدلا، ما كانت أيامه قصيرة، وما كانت أيامه طويلة، وهذا يدل على قوة الإذعان والطاعة والاستجابة لأمر الله في سائر الأحوال.

رسالة من الشيخ المجذوب:

كان الشيخ محمد المجذوب من دعاة سورية، الذين يجمعون بين العلم والأدب والشعر.

وكان قد ترك سورية، كما تركها كثير من أبنائها المخلصين من أهل العلم والدعوة، فرارا من طغيان حكم البعث النصيري المغتصب. وكنت لقيت المجذوب، وتعرفت عليه عند الشيخ العلامة الدكتور مصطفى السباعي، حينما لقيته في المدينة في موسم الحج سنة 1384هـ - 1964م. كما تعرفت عليه في المدينة المنورة مع أخي في الدعوة وزميلي في معهد طنطا: العالم الداعية الشيخ محمد السيد الوكيل رحمهما الله.

كما سمع الشيخ المجذوب عني من الإخوة السوريين الذين يعملون في قطر، ولا سيما زوج ابنته (أبو العز) الأستاذ محمد نعسان عرواني، مدرس التاريخ، وزميلنا في قطر لعدة سنوات، وقد كان مثالا عاليا في الأدب وحسن الخلق، وسلامة الذوق، وحسن التعامل مع إخوانه.

وقد أراد الشيخ المجذوب أن يصنف كتابا بعنوان (علماء ومفكرون عرفتهم) وخطط لأن يكون اسمي فيهم، وأرسل إلي رسالة مطولة، يرجوني فيها: أن أجيب عن أسئلته التي أرسلها إلى كل من سيكتب

عنهم، لتعينه على استكمال فكرته عن الشخص، ورسم صورة له أقرب ما تكون إلى الحقيقة.

وكنت في أول أمري متثاقلا أو متكاسلا عن إجابة الشيخ، ولكنه استعان عليّ بصهره وإخوانه في قطر، فدفعوني إلى تحقيق ما طلب، وأجبته عن أسئلته، إجابة مفصلة بعض التفصيل، وقد سر بها، وشكرني عليها. وصدرت في الجزء الأول من كتابه المذكور، والذي ضم عددا من أعلام العلم والفكر والدعوة، وكنت عندما أرسل إليّ كتابه أخطو إلى الخمسين من عمري

رسالة مهمة من الشيخ عبد العزيز بن باز:

ومما أذكره من وقائع تلك المدة من الزمن: أني تلقيت رسالة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المفتي العام للمملكة العربية السعودية، خلاصتها: أن وزارة الإعلام طلبت رأيه في كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) لأن بعض الناشرين طلبوا من الوزارة أن (تفسح) له، وكلمة (الفسح) غدت مصطلحا معروفا في المملكة يقصد به الإذن بنشر الكتاب ودخوله في السعودية.

وكان الشيخ صالح الفوزان من شباب علماء المملكة قد أثار ضجة بما كتبه في الصحف، وأصدره في كتاب سماه (الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام) وهو يمثل وجهة النظر السلفية في المسائل الخلافية المعروفة من قديم، مثل تغطية وجه المرأة هل هو واجب أو لا؟ وحكم خروج المرأة للتعلم والعمل، وحكم الغناء بآلة وبغير آلة، وحكم التصوير الزيتي والفوتوغرافي، وغير ذلك، مما تتفاوت فيه فتاوى المفتين بين ميسر ومعسر، وبين من يميل إلى الظاهر، ومن يرجح الالتفات إلى المقاصد.

فلا غرو أن ذكر الشيخ ابن باز بأدب العالم الكبير، ورفق الداعية البصير: أنه يريد أن يفسح الكتاب لما فيه من نفع للمسلمين لسلاسته وجمال أسلوبه، وأخذه بمنهج التيسير، ولكن المشايخ في المملكة خالفوه في ثمانية مسائل. وسرد الشيخ رحمه الله هذه المسائل الثمانية، ومنها: ما يتعلق بزي المرأة وعملها، وما يتعلق بالغناء والسماع، وما يتعلق بالتصوير، وما يتعلق بالتدخين، وأني لم أحسم الرأي فيه بالتحريم، وما يتعلق بمودة غير المسلم..الخ.

وقال الشيخ رحمه الله: وإن كتبك لها وزنها وثقلها في العالم الإسلامي، وقبولها العام عند الناس، ولذا نتمنى لو تراجع هذه المسائل، لتحظى بالقبول الإجماعي عند المسلمين.

والواقع: أني ظللت محتفظا بهذه الرسالة سنين طويلة ثم اختفت مني، ويبدو أنها غرقت في بحر الأوراق الخضم الذي عندي، والذي قل أن ينجو ما غرق فيه!

هذا، وقد رددت تحية الشيخ بأحسن منها، وكتبت له رسالة رقيقة، تحمل كل مودة وتقدير للشيخ، وقلت له: لو كان من حق الإنسان أن يدين الله بغير ما أداه إليه اجتهاده، ويتنازل عنه لخاطر من يحب، لكان سماحتكم أول من أتنازل له عن رأيي، لما أكن لكم من حب وإعزاز واحترام، ولكن جرت سنة الله في الناس أن يختلفوا، وأوسع الله لنا أن نختلف في فروع الدين، ما دام اختلافا في إطار الأصول الشرعية، والقواعد المرعية: وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة الكبار، فما ضرهم ذلك شيئا، اختلفت آراؤهم، ولم تختلف قلوبهم، وصلى بعضهم وراء بعض.

والمسائل التي ذكرتموها سماحتكم، منها: ما كان الخلاف فيها قديما، وسيظل الناس يختلفون فيها، ومحاولة رفع الخلاف في هذه القضايا غير ممكن، وقد بين العلماء أسباب الاختلاف و ألفوا فيها

كتبا، لعل من أشهرها كتاب شيخ الإسلام (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

ومن هذه المسائل: ما لم يفهم موقفي فيها جيدا، مثل موضوع التدخين، فأنا من المشددين فيه، وقد رجحت تحريمه في الكتاب بوضوح، إنما وهم من وهم في ذلك؛ لأني قلت في حكم زراعته: حكم الزراعة مبني على حكم التدخين، فمن حرم تناوله حرم زراعته، ومن كره تناوله كره زراعته، وهذا ليس تراجعا عن التحريم.

وأما مودة الكافر، فأنا لا أبيح موادة كل كافر، فالكافر المحارب والمعادي للمسلمين لا مودة له، وفيه جاء قوله تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) المجادلة: 22، ومحادة الله ورسوله ليست مجرد الكفر، ولكنها المشاقة والمعاداة.

وتعلم سماحتكم أن الإسلام أجاز للمسلم أن يتزوج كتابية، كما في سورة المائدة (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) فهل يحرم على الزوج أن يود زوجته، والله تعالى يقول: (وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم: وهل يحرم على الابن أن يود أمه الكتابية؟ أو يود جده وجدته، وخاله وخالته، وأولاد أخواله وخالاته؟ وكلهم تجب لهم صلة الرحم، وحقوق أولي القربى.

على كل حال، أرجو من فضيلتكم ألا يكون الاختلاف في بعض المسائل الاجتهادية الفرعية حائلا دون الفسح للكتاب، وهاهو الشيخ الألباني يخالفكم في قضية حجاب المرأة المسلمة، فهل تمنعون كتبه؟

وختمت الكتاب بالتحية والدعاء.. وأعتقد أن الشيخ استجاب لما فيه، وفسح لكتاب (الحلال والحرام) ولغيره من كتبي، والحمد لله.

مسابقة القرآن الكريم للمدارس:

ذكرت فيما سبق: أن من السنن الحميدة التي سنتها وزارة التربية والتعليم في قطر – باقتراح من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي رئيس تفتيش العلوم الشرعية- إقامة مسابقة في حفظ القرآن وتلاوته، مفتوحة لجميع الطلاب والطالبات في جميع مدارس قطر بالدوحة، وغيرها من مناطق قطر.

وكان الفائزون الأوائل الثلاثة من كل فصل يأخذون جوائز نقدية تشجيعية، وكانت المدارس تتنافس في ذلك، كما يتنافس الأبناء والبنات، في حفظ كتاب الله تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون). وقد أدى ذلك إلى تسابق كثير من الطلاب والطالبات في حفظ القرآن، وأن تجد البيوت قبيل الامتحان مشغولة بالقرآن.

كما فتحت الوزارة جزاها الله خيرا باب التسابق للطلاب ولغير الطلاب في حفظ القرآن كله، أو نصفه أو أجزاء منه، ويعطى الحافظ جائزة قيمة على قوة حفظه وحسن تلاوته.

وكانت بناتي إلهام وسهام وعلا ثم أسماء بعد: يدخلن كل عام هذه المسابقة ويفزن فيها، ويحصلن على جائزتها.

بل دخلت إلهام هذه المسابقة في الأجزاء الخمسة الأخيرة، ونجحت فيها، وحصلت على جائزتها، ودخلت سهام في ثلاثة أجزاء، وأسماء في جزأين.

عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة:

وفي شهر ذي القعدة من سنة 1395هـ (1975م) وصلتني رسالة من فضيلة الشيخ الدكتور عبد المحسن بن حمد العباد، نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة هذا نصها:

فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي الأستاذ بكلية التربية ـ قطر
حفظه الله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

يسرني أن أبلغ فضيلتكم أنه صدر الأمر الملكي رقم أ/233 في

1395/9/29هـ بتعيينكم عضوا بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية ـ بالمدينة المنورة ـ لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة (13) من نظام الجامعة.

وأبعث مع كتابي هذا إليكم بصورة من الأمر السامي المشار إليه، ومن نظام الجامعة، وتوزيع الاختصاصات والصلاحيات التي وردت به.

وسوف نخطركم بموعد الدورة الأولى لانعقاد المجلس الأعلى في وقت لاحق، إن شاء الله، نأمل أن يكون قريبا.

وإني لأسال الله تبارك وتعالى أن يعينكم ويسدد خطاكم، وأن يوفقنا جميعا لخدمة هذه الجامعة والنهوض برسالتها السامية رسالة الإسلام الخالدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نائب رئيس الجامعة الإسلامية

عبد المحسن بن حمد العباد

ومع الخطاب الأمر الملكي الصادر من الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود بتعيين ثلاثة عشرة عضوا، بعضهم بشخصه، مثل الشيخ الندوي، والشيخ الغزالي، والشيخ الألباني، والشيخ ابن الخوجه، والشيخ غوشه، ود كامل الباقر، د. أحمد الكبيسي، والشيخ صالح الحصين، والفقير إليه تعالى، وبعضهم لوصفه، مثل مدير جامعة الأزهر، ومدير جامعة الرياض، ومدير جامعة الملك عبد العزيز.

وكان يمثل هذه الجامعات في هذه الدورة: الشيخ محمد فايد عن الأزهر، والدكتور عبد العزيز الفدا عن الرياض، ود. محمد عمر زبير عن الملك عبد العزيز.

وكان رئيس المجلس الأعلى هو الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد والنائب الأول لرئيس الوزراء. وقد التقينا به أكثر من مرة في المجلس.

المؤتمر العالمي الأول في الاقتصاد الإسلامي:

أقيم المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، تحت رعاية جامعة الملك عبد العزيز، وكانت الجامعة تضم كليات في جده، وأخرى في مكة، وهي التي استقلت بعد ذلك، وضمت إليها كليات جديدة، وبها ظهرت جامعة (أم القرى).

أعدت الجامعة لهذا المؤتمر الكبير إعدادا جيدا، واستعانت بعدد من المعنيين والمختصين في الاقتصاد الإسلامي، وكان المدعوون من قارات العالم كله، من الغرب والشرق، من العرب والعجم، من علماء الاقتصاد، وعلماء الشرع، من رجال النظر، ورجال التطبيق.

وقد اختيرت الموضوعات بعناية، وكلف بها أخص الناس ببحثها، وأوصلهم رحما بمعرفتها.

وكانت دعوة الباحثين قبل المؤتمر بمدة كافية، وقد حدد موعد المؤتمر، ثم اضطروا إلى تأخيره بسبب حادث جلل، وهو اغتيال رجل الأمة، وبطل المرحلة، الملك الصالح، فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمة الله عليه. الذي اجتمعت الأمة على حبه وتقديره، لما لمسته فيه من إخلاص وتفان في خدمة الإسلام، ومقاومة أعدائه. لهذا حزنت الأمة كلها من المحيط إلى المحيط، على وفاته.

وكان في هذا التأجيل فرصة لمزيد من الإنضاج وحسن الإعداد، أكثر وأكثر.

كان مدير جامعة الملك عبد العزيز في ذلك الوقت، صديقنا الحبيب الرجل الشعلة، الذي يعمل ولا يكل ولا يمل ولا يهدأ، من أجل خدمة الإسلام، ونصرة قضايا الإسلام. إنه الدكتور محمد عمر زبير الذي وفقه الله للإعداد الجيد لهذا المؤتمر، بمن معه من الأعوان الصادقين من عمداء الكليات، وأساتذة وإداريين.

وقد عقد المؤتمر في فندق (إنتر كونتيننتال مكة) وكان فندقا جديدا وواسعا، وفيه قاعات تسع المؤتمرين والضيوف، وقاعات فرعية للحلقات المتخصصة، ومسجد جامع كبير للصلاة، وهناك فرصة لمن يريد الصلاة بالحرم الشريف، تنقله إليه (باصات) وسيارات خاصة، مهيأة للضيوف.

كان المؤتمر جامعا لكل من تحب أن تراه من كبار رجال الفقه والشريعة والدعوة،ورجال الاقتصاد والمحاسبة والإدارة، الشيخ ابن باز، والشيخ الزرقا، والشيخ الندوي، والأساتذة عيسى عبده، ومحمد المبارك، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمود أبو

السعود، وأحمد النجار، ومناع القطان، وعبد العزيز حجازي، وخورشيد أحمد، وحسين حامد حسان، ومحمد نجاة الله الصديقي، ومحمد صقر، وأنس الزرقا، ومنذر قحف، وشوقي الفنجري، وعبد الرحمن يسري، ورفيق يونس المصري.

وآخرين لا أستطيع أن أتذكرهم، فقد كانوا نحو ثلاثمائة أو أكثر.

وهناك عدد من الإعلاميين المرموقين، قد دعوا ليغطوا هذا المؤتمر، بعد أن يشاركوا فيه، ويروه رأي العين، أذكر منهم الأستاذ فهمي هويدي.

كان في المؤتمر محاضرتان عامتان، يدعى إليها أعضاء المؤتمر وغيرهم: محاضرة في أول المؤتمر، ألقاها الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب، ومحاضرة في خواتيم المؤتمر يلقيها الفقير إلى إليه تعالى يوسف القرضاوي.

كانت جلسات المؤتمر غنية بالبحوث الأصيلة في بابها، والمناقشات الحرة المستفيضة حولها، وكان بحثي الذي كلفت بكتابته حول (دور الزكاة في علاج المشاكل الاقتصادية).

وكان من البحوث التي احتد فيها النقاش: بحث (التأمين بين الحل والحرمة) وقد كتب فيه عدة أشخاص، وكان جل النقاش بين العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ الدكتور حسين حامد حسان، حيث يميل الزرقا إلى الإباحة بقيود، ويميل حسان إلى التحريم.

ومما ذكره الأستاذ فهمي هويدي: أنه حضر منذ سنوات مؤتمرا في (كوالالامبور) في ماليزيا، فرأى الحضور هناك انقسموا إلى قسمين: قسم يحرم فوائد البنوك، وقسم يحاول تبرير الفوائد، بإيجاد

سند شرعي لها، ولكن هذا المؤتمر لم تثر فيه هذه القضية قط، بل هو مجمع على تحريم الفوائد تحريما باتا.

قلت له: وأضيف إليك ملاحظة أخرى، وهي أن رجال الاقتصاد هنا كانوا أشد حماسا للتحريم من رجال الشريعة!

كان من حضور المؤتمر أستاذنا البهي الخولي، الذي شارك في المؤتمر بالمناقشة، وبكلمة شفوية ألقاها في إحدى الجلسات، وقد حضر هو وزوجته، واقتضت ظروفه الصحية أن يسافر قبل انتهاء المؤتمر، وعند موعد سفره زرته في حجرته لأودعه، وأبيت إلا أن أحمل حقيبته التي فيها حاجياتهما، وهو يأبى علي، وأنا مصر، وهنا تطلع إلى زوجته وقال لها: يا أم مجيد، أتعرفين من يحمل حقيبتك؟ إن من يحملها هو فقيه العصر! قلت: يا مولانا إنما نحن تلاميذك، ومن غرس يدك.

وختم المؤتمر جلساته بالجلسة الختامية، وفيها توصيات وقرارات مهمة، مما اتفق عليه المؤتمرون، تتعلق بالموضوعات التي بحثت،ومنها: التوصية بإنشاء مركز عالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، توفر له الإمكانات المادية والبشرية، ليقوم بمهمته وسط الصراع العالمي، الذي اتخذ طابعا أيديولوجيا محوره الاقتصاد، ليظهر الاقتصاد الإسلامي: الاقتصاد الوسط الذي يقيم الموازين القسط بين الاقتصادين الفردي (الرأسمالي) والاقتصاد الجماعي (الشيوعي).

والحمد لله قام هذا المركز في جامعة الملك عبد العزيز، ودعيت له أكثر من مرة، وقام عليه إخوة كرام، على رأسهم: أ.د الزبير، الذي

تفرغ له حينا من الدهر، ود. أنس الزرقا، ود. منذر قحف، ود.رفيق المصري، وآخرون من أفاضل العلماء.

اجتماع تاريخي للإخوان معي:

وكان من أهم الأحداث التي وقعت لي خلال هذا المؤتمر: أن التقى بي ثلاثة من كبار الإخوان، هم

الأستاذ هارون المجددي، الذي كان مسؤولا عن الإخوان المصريين في الخارج أيام محنة 1965م وأعقابها، والأستاذ صالح أبو رُقَيِّق عضو مكتب الإرشاد، وأحد القيادات التاريخية في الإخوان، والذي كان قريبا من الأستاذ الهضيبي، والأستاذ محمود أبو السعود عضو الهيئة التأسيسية، وأحد الإخوان القدامى، والاقتصادي الإسلامي البارز، وقد عرضوا عليّ أمرا في غاية الأهمية، قالوا: إن الأستاذ الهضيبي المرشد الثاني للإخوان قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، وأصبحت الجماعة في فراغ من القيادة، والإخوان في هذه المرحلة في حاجة إلى قيادة شابة واعية مؤمنة، تجمع بين فقه الشرع، وفقه العصر، والإخلاص للدعوة، وتجتمع عليها كلمة الإخوان، ولم نجد أحدا يجتمع فيه هذه الصفات غيرك، ونحن نتحدث بلسان من وراءنا من الإخوان، وهم كثيرون، فإن كنت حريصا على مصلحة الدعوة التي نشأت فيها، وأفنيت زهرة شبابك في إعزازها ونشرها والذود عنها، حريصا على جمع كلمة أبنائها، حريصا على أن تستمر الدعوة وتتقدم إلى الأمام بوعي وبصيرة وثبات وقوة، فتوكل الله، واقبل هذا الأمر، محتسبا عند الله، مبتغيا الأجر منه، لتكمل الطريق الذي بدأه حسن البنا، وخلفه

حسن الهضيبي!

واستمر الإخوة يتحدثون بعضهم وراء بعض، ليقنعوني بقبول ما عرضوه علي، وأن في ذلك الخير للإسلام ودعوته وأمته إن شاء الله، وإنما لكل امرئ ما نوى.

قلت للإخوة: إن ما عرضتموه علي ليس بالأمر الهين، بل هو أمر جلل، وهو قيادة دعوة عالمية في ظروف غير مواتية، وقد فاجأتموني بهذا الطلب، الذي ما فكرت فيه قط، فما كنت في الجماعة إلا جنديا من جنودها، لم أتطلع يوما إلى زمام القيادة، لتكون في يدي، وهذه منة من الله علي، أني لست من الذين يجرون خلف سراب الزعامة، وكأنها طبيعة فيّ لا متكلفة ولا مفتعلة.

قال الإخوة: وهذا مما يزيدنا تمسكا بك، وإصرارا عليك، وأنت تعرف الحديث الذي يقول ما معناه: "إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها، وإن أخذتها بسؤال وكلت إليها".

قلت لهم: أعطوني مهلة أفكر فيها على مهل، أشاور نفسي، وأراجع حساباتي، واستخير ربي، واستشير بعض إخواني، ثم أرد عليكم. وإن كنت مبدئيا لا أراني أهلا لهذا الأمر.

قالوا: نعطيك شهرين للتفكير والمراجعة.

قلت: لا بأس بذلك.

قالوا: ليكن ردك على الأستاذ أبو السعود، لأنه يعيش في أمريكا، فالرد عليه أضمن وأحوط من الرد على من يعيشون داخل مصر.

وبعد طول تفكير، واستخارة، واستشارة، على ما جاء في الأثر: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، وإن كنت لم أستشر إلا قليلين جدا، لأن جل من أستشيرهم يحثونني على القبول، ولكني لم

ينشرح صدري لهذا الأمر، وكتبت إلى الدكتور أبو السعود الرسالة التالية:

أخي الدكتور محمود أبو السعود حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد)

فلقد كانت فرصة طيبة تلك التي جمعتنا في ظل المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في رحاب مكة المكرمة، وبجوار بيت الله الحرام، وكانت أياما مباركة تلك التي سعدت فيها بلقائكم بعد غيبة أكثر من عشرين عاما، افترقت فيها الأبدان، ولم تفترق القلوب.

وأسأل الله تعالى أن يديم هذه الأخوة التي انعقدت أواصرها على دينه وفي سبيله، حتى يظلنا بها في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

هذا وقد فكرت طويلا فيما عرضتم علي عند لقائنا ذاك، وقلبت الأمر على وجوهه، كما استخرت الله تعالى في الأمر، وتبين لي بعد ذلك ما سبق أن أبديته لكم لأول وهله، وهو أني لست الرجل المنتظر للمسؤولية التي تحدثت عنها، ولا أرى نفسي أهلا للقيام بها. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه.

أخي، إن الله تعالى قد وزع المواهب والقدرات على عباده، فمنهم من فتح له في مجال العلم، ومنهم من فتح له في مجال السياسة، ومنهم من فتح له في مجال الإدارة، ومنهم من جمع له أكثر من موهبة، وهو سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأحسب أني - إن كان لي موهبة - فهي في المجال الأول، والحمد لله على ذلك أولا

وآخرا، وقد قيل: من بورك له في شيء لزمه، وذلك ليكون أقدر على إتقانه والتفوق فيه.

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم خصائص أصحابه، فوضع كلا في المكان اللائق به، فلم يضع حسانا ولا أبا هريرة في مكان خالد، أو زيد بن حارثة، ولم يضع أبا ذر في مكان عمرو بن العاص، وإن كان أبو ذر أحب إليه، وأعز عليه، وآثر لديه.

ولما سأله أبو ذر أن يوليه على بعض أعماله، قال له بصراحة: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها خزي وندامة يوم القيامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.

فهذا توجيهه - صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر وهو الذي قال فيه: "ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر"

إن دعوتنا - وان كانت دينيه المصدر والغاية - فهي سياسية من حيث الوسيلة والمواجهة، ولذا تحتاج إلى رجل يعرف السياسة وألاعيبها وأغوارها بجوار معرفته للدين ومصادره، وأنا لا أحسن هذا الفن، إلا في خطوطه العامة، ولم أتمرس به، ولا أظن طبيعتي تصلح له. ولا أرضى لنفسي- ولا ترضى لي أنت أيضا - أن أكون جهازا في أيدي آخرين، يحركونه فيتحرك، ويوقفونه فيتوقف!

وفضلا عن هذا كله، فان هذه الدعوة الربانية التي جعلت شعارها من أول يوم (الله غايتنا) تحتاج أن يكون على قمتها رجل غامر الروحانية، عامر القلب بالخشية والتقوى، متألق الجوانح بمعاني اليقين والإنابة، ليستطيع أن يفيض من قلبه على قلوب من حوله، وأراني دون هذا الأفق بمراحل، وفاقد الشيء لا يعطيه.

لا تظن يا أخي أن ما أقوله لك من باب التواضع أو هضم النفس، فإنما هو من باب تقرير الحقائق، ووصف الأشياء بما هي عليه، وقديما قالوا: "من سعادة جدك، وقوفك عند حدك".

وقد تقول: إن تقدير كفايتك وأهليتك لعمل ما ليس من شأنك أنت، وإنما هو شأن أهل الحل والعقد الذين وكل إليهم الاختيار، وهم الذين يقولون: هذا يصلح، وهذا لا يصلح، فإذا رشحوك فهم أعرف بك، وأقدر على تقويمك، وأقول: إن كل إنسان أدرى بعيوب نفسه، ونقاط ضعفه، والناس تحكم بما يطفو على السطح لا بما يرسب في الأعماق.

ومن النعم التي أحمد الله عليها أنه رزقني السلامة من الانتفاخ الكاذب، والغرور بالباطل، ولعل هذا هو فضلي الوحيد: أن مرآتي لم تصدأ ولم تتغير حتى أرى فيها وجها غير وجهي، أو شخصا غير شخصي، ولهذا أرى نفسي على حقيقتها بضعفها وغفلاتها وبمواهبها المحدودة، دون تضخيم أو تزييف.

وقد قال ابن عطاء في حكمه: الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تستيقنه منها. أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس!

إني أعتقد أن من مصلحة الدعوة التي أنتمي إليها، ومصلحة الإسلام عامة، الذي نذرت نفسي لخدمته: أن أظل مشتغلا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عندي من مشروعات علمية أراها مهمة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيح لي الآن - من خلال موقعي ومعرفة الناس بي - أن أتصل بالجمعيات العلمية في مؤتمرات عربية وإسلامية وعالمية شتى.

ومن الخير أن يستمر هذا الاتصال بعد أن فرضت على العزلة مدة طويلة في مكان قصي منعزل.

إن جماعتنا لم تخل - ولن تخلو إن شاء الله - من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوة وأمانة، ولن تعدموا (القوي الأمين) أو (الحفيظ العليم) في صفوف الحركة، بعون الله.

والله يتولى الجماعة ويرعاها بعينه التي لا تنام، وهو ولي الصالحين.

أخوكم

يوسف القرضاوي

وقد علق الأستاذ محمود أبو السعود برسالة، جاء فيها:

الأخ الكريم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي

وعليكم من الله السلام والرحمة والبركات ـ أعزك الله، ونفعك ونفع بك، وأعانك على ما فرغت له نفسك من خير وعلم، وجعلك أبدا مهوى القلوب، ومقصد الحق، وعقد واسطة الأخلاء.

يا أخي: "لقد أسكت جهيزة قول كل خطيب" ولم يعد لي ما أقول، وما حدثتك فيه أمر تمناه غيري كما تمنيته، أما وقد قطعت فيه برأي، فالخيرة ما اختاره الله، وإني لأعلم كما تعلم أنت أن ليس لما دعوناك إليه من يرتضيه الخاص والعام، ولا من أوتي ما أوتيته من تجرد وفضل، وعلم وخلق، لا أمتدحك سعيا وراء مغنم، وإنما هكذا عهدناك وخبرناك، والأغلب أن يظل الوضع الراهن كما هو حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. على كل حال يا أخي شكر الله لك، وجزاك بنيتك أضعاف ما يجزيك بحسن عملك.

الفقير إلى ربه

محمود أبو السعود

20 ربيع أول سنة 1396

1976/4/20